



كلية دار العلوم

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.

قبائل البجة في صعيد مصر في العصر الإسلامي
دراسة سياسية حضارية من بداية الفتح العربي الإسلامي
لمصر حتى سقوط الدولة الفاطمية
في الفترة من (٢١ - ٥٧٠هـ / ٦٤١ - ١١٧٤م)

بحث لنيل درجة الماجستير

مقدم من
الباحث / محمد خليفة ركابي حمد الله

إشراف
أ. د / نعمة علي مرسى
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة المنيا.

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

﴿إهداء﴾

إلى والدي

إلى والدتي

أطال الله في عمريهما

مبارك رمضان أبو زيد

شكر

الحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجلال وجهه الكريم على ما هداني إليه ووفقني فيه لإتمام هذه الرسالة .

يطيب لي أن أقدم بوافر شكرى ، وعظيم عرفاني لأستاذى الدكتور محمد

أحمد محمد أحمد ، أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب بأسبوط جامعة أسبوط الذى كان له فضل الإشراف على هذا البحث وأمدنى بعلمه وتفسيره وبذل معى من الجهد ما أعاننى على إتمام رسالتى وإرشاداته المستمرة لى ظهرت هذه الرسالة بهذا الشكل .

كما أقدم بأسمى آيات الشكر للدكتور أسامة محمد فهمى ، مدرس

التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بأسبوط جامعة أسبوط والذى كان له أيضاً فضل الإشراف على هذا البحث فضلاً عما أمدنى به من مصادر ومراجع أعاننى لإتمام هذه الرسالة .

وأوجه بالشكر والتقدير لكل من ساعد فى إتمام هذه الرسالة ، وأخص بالشكر

العالم الجليل الأستاذ الدكتور عصام الدين عبد الرؤف الفتى أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب جامعة القاهرة ، الذى منحني من وقته وعلمه تكبر وإرشاداته العظيمة لى طوّل فترة إعداد هذا البحث .

وأوجه بالشكر والتقدير لكل من ساعدنى على ظهور هذا العمل المنوع لى أبلغى به مرضاة أمه سبحانه وتعالى .

مبارك رمضان أبو زيد

رسالة ماجستير في التاريخ الاسلامي

اسم الباحث / محمد خليفة ركابي حمد الله

عنوان الرسالة

قبائل البجة في صعيد مصر في العصر الإسلامي
دراسة سياسية حضارية من بداية الفتح العربي الإسلامي
لمصر حتى سقوط الدولة الفاطمية

في الفترة من (٢١ - ٥٧٠ هـ / ٦٤١ - ١١٧٤ م)

القسم / التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية

كلية / دار العلوم

الجامعة / المنيا

سنة المنح / ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

الدرجة العلمية / ماجستير



كلية دار العلوم

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

قبائل البجة في صعيد مصر في العصر الإسلامي دراسة سياسية حضارية من بداية الفتح العربي الإسلامي لمصر
حتى سقوط الدولة الفاطمية

في الفترة من (٢١ - ٥٧٠ هـ / ٦٤١ - ١١٧٤ م).

بحث لنيل درجة الماجستير

مقدم من

الباحث / محمد خليفة ركابي حمد الله

هيئة الإشراف

الاسم	أ. د / نعمة علي مرسى
الوظيفة	أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
الكلية - الجامعة	كلية دار العلوم - جامعة المنيا

لجنة الحكم

الاسم	أ. د / نعمة علي مرسى
الوظيفة	أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (رئيساً للجنة ومناقشاً)
الكلية - الجامعة	كلية دار العلوم - جامعة المنيا

الاسم	أ. د / كرم كمال الدين الصاوي بتر
الوظيفة	أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ومدير مركز الدراسات السودانية (مناقشاً)
الكلية - الجامعة	معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة

الاسم	أ. د / أحمد التوني عبد اللطيف
الوظيفة	أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامي (مناقشاً)
الكلية - الجامعة	كلية دار العلوم - جامعة المنيا

الدراسات العليا :

ختم الإجازة :

اجزت الرسالة بتاريخ :

موافقة مجلس الكلية :

موافقة مجلس الجامعة :

الإهداء

إلى من خلق الإنسان وعلمه، وأحسن صورته وقومه، جعل له التاريخ فسجله، ليستفيد منه
بني البشر الموعظة ويعتبره، من فوائد العلوم وما حصله، هذا العمل مني فقدمته، أنا عبدك
الضعيف فاحسبه تقريباً إليك فتقبله.

سبحانك اللهم وبحمدك
سبحان الله العظيم.

وإلى الذي كتب له تاريخ الأرض والسماء، محمد عبد الله ورسوله وخاتم الأنبياء،
أرسله ربه بالهدى ودين الحق والعقيدة السمحاء، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وتركنا على
الحنجة البيضاء، ليلها كنهارها سواء، لا يزيغ عنها إلا هالكون الأشقياء، فاللهم صلي عليه
وعلى إخوانه الأنبياء، وعلى آله وصحبه الكرام النجباء، واكتب لنا بهذا العمل درجة عند
لقائه يوم اللقاء.

اللهم صلي أفضل على حبيبي وهاديي سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وإلى أبي الذي أنبني وأكرمني ورعاني، وأرشدني إلى طريق العلم وحياتي، وإلى أمهاتي
اللاتي عوضاني عن فقد الأم بعظم الحنان، وأسرتني وإخوتي اللتان ساعداني، وأساتذتي الذين
علموني، وكل من قدم لي يد العون وأثرائي، وكل من جعلني ابناً للعلوم وهداني، فاللهم مني
الشكر والدعاء بدخول الجنان.

فارجهم اللهم جميعاً برحمتك واجعلهم من عبادك المخلصين.

شكر وتقدير

أتقدم بعظيم الشكر وخالص التقدير والعرفان بالجميل إلى :

أستاذتي الدكتورة / نعمة علي مرسى

أستاذة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة المنيا.

وأستاذي الدكتور / محمد سيد كامل

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة المنيا.

لما قدماد لي من عون وتوجيه وإرشاد جزاهما الله عنا الخير ووفقتهما لأدائه.

فلهما مني جزيل الشكر وخالص التقدير والاحترام.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي لطف بالبريا إذ براهيم، وبروح أهل الصلاح والفلاح وسرّ، واطلع على ضمير من نوى
وسر من أسر. سبحانه قدر الأشياء؛ فقدر منها الخير ومنها قدر الشر. سبحانه بقدرته تقطع المراكب البحر،
ويقطع المركوب البر.

وصلاة وسلاماً على المبعوث رحمة للعالمين، من عمت رسالته البحر والبر، وعلى أبي بكر الذي ما
احتلب يوماً إلا درّ، وعلى عمر الذي ما قُدم يوماً نحو الوفاء فرّ، وعلى عثمان الذي كانت عيادته للحياة مقر،
وعلى عليّ الذي ارتفع بالأرومة فأبر وبرّ، رحماهم رجالاتهم افتدينا وافتقينا، فعلمونا إلى أين يكون المستقر.
وبعد

* سبب اختيار الموضوع: حقيقة تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه دراسة واعية وشاملة
تحصيلية، عن قبيلة وإقليم يعدان من أهم ما أثر في حضارة جنوب الصعيد المصري عبر العصور القديمة
المختلفة عامة. والعصور الإسلامية الوسطى خاصة، وذلك منذ الفتح العربي لمصر حتى سقوط الدولة
الفاطمية.

ولعل ما يكمن في داخلي من أهمية نحو ذاتية ذلك الموضوع؛ فإني وأحدًا من ملايين المعجبين، وأحد
الباحثين الذين فتنوا بذلك الأثر الذي يروح نحو فكر وتاريخ وحضارة امتدت من شمال أسوان إلى الأطراف
الشمالية لهضبة الحبشة جنوباً، ومن البحر الأحمر شرقاً إلى نهر النيل ونهر اتبرا غرباً.

وقد يتوهم عدد من البشر خلال نظرته الأولى لهذا الإقليم أنه أحد الأقاليم الصحراوية الفاحشة التي تخلو
من النشاط الإنساني ودروبه. والحقيقة: أن هذا الإقليم شهد نشاطاً بارزاً ومتنوعاً في شتى مجالات الحياة
البشرية؛ وذلك لما حظي به من مقومات جغرافية طبيعية، وظروف مناخية متميزة، وموارد مائية مناسبة.
جعلت منه بيئة صالحة يمارس فيها السكان الأصليون - البجة - حياتهم فترة طويلة، امتدت منذ استقرار
السلالات الإفريقية القارة إلى اليوم.

ومع بداية قيام الحضارة الإنسانية استجد عامل هام من عوامل ازدهارها، تمثل هذا العامل في التعامل
التجاري؛ ذلك الذي دفع بالشعوب إلى الانتقال للمناطق الحيوية. وبما كان لإقليم البجة من مميزات، جعلت منه
مركز جذب لشعوب الحضارات المختلفة على مر العصور، أتاح خلالها الفرصة الجليّة للبجة أن يتصلوا بهذه
الشعوب والافتباس من حضارتهم، فتعلموا الزراعة واستئناس الحيوان واستخراج المعادن.

ولعل أول من اتصل بالبجة من شعوب الحضارات؛ وأبرز أهمية هذا الإقليم ودور سكانه، هم أولئك
الذين أقاموا أول حضارة على ضفاف النيل، وهؤلاء هم فراعنة النيل. وتبدو مظاهر اتصال المصريين بالأقاليم
الشرقية للبجة في استخراج الذهب التي أوردها عدد من الباحثين بوصفها العامل الأساسي في الاتصال بين

المصريين والبنجة؛ فإن حكم تجاور الأوطان كان له الأثر الأكبر في هذا الاتصال والذي وضحت أكبر مظاهره في استخدام الفراعنة لعنصر البنجة كمسكر وجنود لدولتهم.

وتلا الفراعنة البطالمة اليونان، وذلك حين ملكوا مصر فاعتنوا بالأجزاء الجنوبية الشرقية للإقليم، لما كان لهم من مآرب في استنباط الذهب وجلب الأفيال، فأنشأوا الموانئ على ساحله. غير أن الرومان انصرفوا عن هذا الإقليم واقتصر اتصالهم بالبنجة الشماليين الذين عاشوا في مصر أو على تخوم مصر في شمال السودان. وكانوا يطلقون على هؤلاء اسم البليميين Plemmyes وإن كان هناك شك في أن هؤلاء هم البنجة أو جماعة أخرى.

وفي ذلك العصر كانت دولة أكسوم قد نمت وقويت شوكتها، وأخذت تغير على البنجة جهة الجنوب، ودار بين الفريقين منازعات تتور أحياناً وتهدأ أخرى. لم يترتب عليها في النهاية إخضاع البنجة تحت طاعة الأحباش، لكن هذه الأحداث مثلت أحد مظاهر الاتصال المتنوع والمتباين للبنجة مع العناصر البشرية المختلفة.

وعلى الرغم من طول الفترة الزمنية التي اتصل فيها البنجة بالعناصر الشمالية والجنوبية لم يفقدوا اتصالهم بالجنوبيين أيضاً من جهة الغرب، ولا العرب خلال تجارتهم في البحر الأحمر جهة الشرق. غير أن الاتصال العربي كان له الأثر الأكبر في إبراز قيمة هذا الإقليم ودور سكانه في المنطقة، وإن كان قبل الفتح العربي لمصر بزمان طويل شهدت أرض البنجة وفود جماعات عربية هاجرت إليها من شبه الجزيرة العربية، جاء معظمها تحت تأثير الأحوال السيئة، وجاء الباقون من أجل التجارة، وأثر بعض الذين جاءوا البقاء على أرض البنجة زاهدين في حياة الصحراء القاسية.

إلا أن بعد الفتح الإسلامي لمصر ازدادت أعداد الجماعات العربية التي وفدت على أرض البنجة، فجاءت مجاهدة في سبيل الله لتستقر بعد ذلك لتحقيق الرسالة التي خرجوا من أجلها وتأمين حدودها. غير أن بنود عقد الأمان الذي أعطاه عبد الله بن الجهم لكانون بن عبد العزيز عظيم البنجة في عام ٢١٦هـ / ٨٤١ م، والذي كان أهم وأبرز بنوده أن أرض البنجة أصبحت أرض إسلامية تابعة لدولة المسلمين، فأتاح أمامهم الفرصة للتنقل في هذه البلاد بحرية والاستقرار فيها بأمان.

وما لبث أولئك العربان فترة من الزمن، حتى لمع بريق الذهب في أرض البنجة فلفت أنظارهم وجعلهم يطمحون في مشاركة ثرواته، مما نتج عن ذلك ازدياد تدفق القبائل العربية إلى هذا الإقليم والانتشار في أقاليمه، مما ترتب عليه تنشيط حركة التعريب وانتشار الإسلام بين البنجة.

ومنذ ذلك الحين أصبح إقليم البنجة أرضاً وشعباً مركزاً إسلامياً، مارس دوره السياسي والحضاري في المنطقة. ولعل أبرز القبائل التي ساهمت في هذا الدور هي قبيلة ربيعة، تلك القبيلة التي وفدت بطونها إلى مصر في عام ٢٣٨هـ، وانتشرت في أنحاء متفرقة - وأحدها الطائفة التي استقرت في أرض البنجة - هذه الطائفة التي استطاع أبناؤها أن يختلطوا مع أهالي تلك البلاد التي نزلوا فيها، فصاهروهم واندمجوا معهم اندماجاً تاماً؛ بعد ما استفادوا من نظام الوراثة السائدة عند قبائل البنجة، وقد انتهت هذه العلاقة بسيطرة ربيعة على تلك المنطقة، وأقامة إمارة حاكمة في العلاقي نقلت بعدها إلى مدينة أسوان لتشهد عصرها الذهبي.

لذلك سعت جاهداً من خلال البحث والتحليل للوقوف على هذه الحقائق واستكمال فجوة التاريخ الإسلامي المصري لبيان دور مصر الإسلامية محلياً وإقليمياً، حتى يكتمل الوعي التاريخي لدينا لأن فكر التاريخ يعبر عن ذات الإنسان وهويته من خلال إدراك الذات والهوية.

* الدراسات السابقة لموضوع البحث:

من خلال البحث والدراسة لم أعر في الدراسات السابقة إلا على مجموعة محدودة من المقالات التي لا يتعدى بعضها صفحات في مجموعة الكتب والدوريات التي تناولت الموضوع في صورة نمطية واحدة، فهي تناولت الحديث عن النمط الاجتماعي لقبائل البجة وعلاقتهم بالعرب دون الاتجاه للدراسة وبحث الجوانب الهامة الأخرى وهي كالتالي:

أولا الكتب:

- ١ - الشاطر بصيني: تاريخ وحضارات السودان، القاهرة ١٩٧٢م.
- ٢ - عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، ط١ القاهرة ١٩٧٦م، دار المعارف بمصر.
- ٣ - محمد عوض: الشعوب والسلالات الأفريقية، القاهرة ١٩٦٥م.
- ٤ - محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى ط٢، ١٩٩٦م.
- ٥ - نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، القاهرة ١٩٠٣م.

ثانياً الدوريات:

- ١ - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، المجلد ٢١ ج٢ - ديسمبر ١٩٥٩م، طبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤م، المقال الأول، مصطفى محمد مسعد: البجة والعرب في العصور الوسطى.
 - ٢ - كتاب الأبحاث الصادر عن مؤتمر أسوان عبر العصور الفترة من (٣ - ٥ أبريل ٢٠٠١) إعداد وتقديم د/ عمر صابر عبد الجليل، ط١ أسوان ٢٠٠٢م، كلية الآداب بأسوان جامعة جنوب الوادي. المقال الثالث من المحور الثالث: أحمد حسين النمكي: أسوان وصحراء مصر الشرقية.
 - ٣ - كتاب الحدود المصرية والسودانية عبر التاريخ، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩م، تاريخ المصريين رقم ١٦٤، أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة (٢٠ - ٢١ ديسمبر ١٩٩٧م) إعداد د/ عبد العظيم رمضان.
 - مقال الجلسة الثالثة: أ. د/ رجب محمد عبد الحليم: ميناء عيذاب ووادي العلاقي وأثرهما في علاقة مصر بالسودان حتى نهاية القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي.
- لذلك أسعى جاداً لتقديم دراسة وافية عن هذا الموضوع.

* أبرز الصعوبات التي واجهتني خلال البحث:

- ١ - ندرة المصادر وشحها في الموضوع. ويرجع السبب في رأيي إلى تأخر قدوم المؤرخين العرب إلى بلاد البجة.
 - ٢ - لم يتم توثيق تاريخ وأحداث هذه القبائل بشكل كامل، والدليل على ذلك وجود حلقات مفقودة منه في جوانب متعددة.
 - ٣ - ضياع وفقد أهم المصادر التي تناولت تاريخ قبائل البجة، وهو (كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والفيل) لابن سليم الأسواني - ويرجع السبب برأبي في ضياع هذا الكتاب الهام وعدم نسخه إلى غياب الدافع لدى المؤرخين في الكتابة عن هؤلاء القوم.
 - ٤ - تكرار بعض الأحداث في المصادر المتنوعة، ولكن بتاريخ مختلفة، وربما مرجع ذلك النقل دون العناية بالمراجعة والتحريض بالنحو الدقيق.
 - ٥ - انعدام المعلومات المباشرة وعدم إفراز أنماط كتابية تشمل جوانب حياتهم وخاصة الجانب الاقتصادي.
 - ٦ - تناولت غالبية المصادر التي ذكرت أحداث البجة بصورة عرضية دون الاهتمام بالتفاصيل والنتائج مما أدى إلى اتساع الفجوة بين الأحداث التاريخية.
 - ٧ - تناول المراجع والأبحاث الحديثة للجوانب الاجتماعية وعلاقة البجة بالعرب وإغفال الجوانب الحضارية.
 - ٨ - عرض بعض المراجع النتائج الغير صائبة لعدم استخدام أساليب البحث التاريخي المناسبة للخروج بنتائج مقاربة تعين على رسم صورة لتاريخ البجة.
- ورغم هذه الصعاب حاولت جاهدة باستخدام أساليب البحث التاريخي المتنوعة بعون من هيئة الإشراف للخروج بنتائج صائبة لرسم الصورة الحقيقية لتاريخ أولئك القوم.

* المناهج والأساليب المستخدمة في البحث:

- لقد اعتمدت في هذا البحث على مجموعة من المناهج والأساليب البحثية في التاريخ الإسلامي، التي جعلتني أتوصل إلى مجموعة من النتائج الهامة وذلك بتوجيه وإرشاد من هيئة الإشراف، وهي كالتالي:
- أ- المنهج الوصفي وأنماطه:
 - الدراسات المسحية .
 - دراسة العلاقات (دراسة الحالة - دراسة الارتباط - الدراسة المقارنة للأسباب).
 - دراسات تطورية.
 - دراسات تنبؤية.
 - ب- أسلوب التحقيق العلمي .
 - ج- أسلوب التحليل التراكمي.
 - د- أسلوب الموضوعية واليقين.
 - هـ- أسلوب تحليل السببية (العلية).
 - ح- أسلوب التحديد.

ط- أسلوب الترتيب على أساس الزمن والموضوع.

ي- الأسلوب الكمي.

ك- الأسلوب المقارن.

ل- أسلوب الاستنتاج.

ولقد توصلت من خلال هذه المناهج والأساليب إلى دراسة بحثية تاريخية مقارنة تعين على رسم صورة أقرب إلى الواقع لتاريخ هذه القبائل وإيضاح دور مصر في المنطقة الجنوبية.

* عرض لأهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذا البحث:

اعتمدت في بحثي هذا على عدد وافر من مصادر التاريخ الإسلامي، كما اعتمدت أيضا على عدد كبير من المراجع الحديثة، العربية منها والأوروبية. وسأقتصر في هذا العرض على أهم المصادر والمراجع التي تتصل اتصالا مباشرا بموضوع البحث، والتي برزت أهميتها من خلال معالجتي لهذه الدراسة. ويسأني على رأسها المصادر المطبوعة في مقدمتها بالنسبة لموضوع البحث:

- كتب الرحلات :

1- ومن أهمها كتابي 'البلدان' و'تاريخ اليعقوبي' لليعقوبي، المتوفى سنة 292هـ والذي أفادني كثير حديثه عن البجة ومواطنهم ومواقع الذهب والزمرد في بلادهم.

2- كتاب 'مروج الذهب ومعادن الجوهر' للمسعودي، المتوفى سنة 346هـ، والمسعودي عرض معلومات كتابه من مشاهداته خلال أسفاره العديدة، فقد كان يكثر خلالها الاستقصاء والبحث فجمع الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد.

ونأني أهمية كتاب المسعودي بالنسبة لبحثي؛ في أنه كان معاصرا لبشر ابن إسحاق رئيس إمارة ربيعة في وادي العلاقي ببلاد البجة وأنه تحدث في إسهاب عن ظروف نشأة هذه الإمارة وقيامها في أرض البجة.

3- ويستوي في الأهمية مع مروج الذهب كتاب 'صورة الأرض' لابن حوقل، الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وكان معاصرا للمسعودي ومعاصرا لإمارة بني الكنز الأولى في وادي العلاقي، وكان ابن حوقل من كبار الرحالة العرب الذين جابوا الأمصار الإسلامية، واستمر في تجواله ثلاثين عاما، وقد أسدنا بمعلومات شيفة وغامة عن الشعوب التي زارها، كما أمدني في بحثي بمعلومات طيبة عن قبائل البجة في مختلف جوانب حياتهم، وعن ظروف اختلاط القبائل العربية بهم وخاصة قبيلة ربيعة وكيفية وصولهم إلى رئاستها.

4- ويأتي بعد ذلك كتاب 'سفر نامه' لمؤلفه الرحال الفارسي ناصر خسرو، المتوفى سنة ٤٧٦هـ، وقد جاب ناصر خسرو كثيرا من البلاد الإسلامية وخاصة الشام وفلسطين ومصر والحجاز. وأودع كتابه هذا كل ما شاهده في تلك البلاد، وكانت زيارته لمصر سنة ٤٣٩هـ في أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، واستمرت هذه الزيارة لمدة سنتين استطاع خلالها التعرف على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمصر في عهد هذا الخليفة.

هذا وقد زار ناصر خسرو أسوان وعيذاب وقدم لنا وصفا طيبا لهما في عهد ازدهار إمارة ربيعة الأولى.

٥- وتلى رحلة ناصر خسرو في الأهمية 'رحلة ابن جبير'، الذي رحل إلى مصر من الأندلس ثلاث مرات. ثم أفرسته الوفاء بالإسكندرية سنة ٦٠٤هـ. وأثناء رحلته الثانية قد زار ابن جبير الوجه القبلي في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي. وسافر من قوص إلى عيذاب بطريق الصحراء ومن عيذاب ركب البحر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

وأمدنا ابن جبير بمعلومات هامة عن عيذاب وعن أهميتها بالنسبة للتجارة والحج. كما أمدنا بمعلومات هامة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مصر من صلاح الدين. وحدثنا أيضا عن قبائل البجة في الصحراء الشرقية وثر عيذاب.

٦- أما الرحالة ابن بطوطة، المتوفى سنة ٧٧٩هـ فيعتبر من أعظم الرحالة المسلمين ومن أكثرهم طوقا في البلاد. وقد وصف لنا ابن بطوطة في رحلته مشاهداته أثناء رحلته الثلاثة، وقد أتبع له وصف مشاهداته عن قبائل البجة وعيذاب. أثناء رحلته الأولى سنة ٧٢٦هـ، ورحلته الثانية سنة ٧٤٩هـ.

- المصادر التاريخية المطبوعة:

فمن المصادر الأصلية التي أفدت منها في بحثي هذا كتاب 'فتوح الشام' للواقدي. وكتاب 'فتوح مصر وأخبارها' لابن عبد الحكم، وكتاب 'فتوح البلدان' للبلاذري.

ولما تناولت في بحثي هذا مظاهر الحياة السياسية للبجة في عهد الدولة الطولونية كان لازما علي أن أرجع إلى أهم مصادر التاريخ الإسلامي المعاصرة للدولة الطولونية. وأعني بهذا: المؤرخ البسوي، المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري. الذي ألف كتابه المشهور 'سيرة ابن طولون' الذي أفادني في أنه حمل معلومات عن نشاط البجة، ونشاط الثائر المعروف عبد الحميد الغمري، الذي لعب دورا هاما بلاد البجة والنوبة.

ولا يغوتني أن أشير إلى مؤلفات المقرئ - علي وجه التخصيص - الكبيرة منها والصغيرة فقد استفدت منها جميعها. وفي مقدمتها كتاب 'المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار' نظرا لأهمية ما جاء به عن بلاد النوبة وقبائل البجة نغلا عن كتاب 'أخبار النوبة والمقرة وعنوة والبجة والنيل' لمؤلفه ابن سليم الأسواني المتوفى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. فهذا الكتاب المفقود الذي لم يعثر على نسخة منه بعد، يعتبر من أهم الكتب التي كتبت عن تاريخ النوبة والبجة. وكان ابن سليم قد كتبه بعد سفارة قام بها إلى بلاد النوبة بتكليف من القائد الفاطمي جوهر الصقلي إلى ملكها جورج الثاني. واستقى معظم المعلومات التي دونها به عن النوبة من سيمون ولي عهد النوبة آنذاك. وقد أهدى ابن سليم هذا الكتاب بعد فراغه منه إلى الخليفة الفاطمي العزيز بالله.

وفيما يختص بالفصل الثالث الذي تحدث فيه عن مظاهر الحياة الاقتصادية عند البجة وتناولت فيه كيفية استخراج الذهب والزمرد من أرض البجة فقد اطلعت على كتاب 'ترجمة المشتاق في اختراق الأفاق' للإبريسي، وكتاب 'أزهار الأفكار في جوهر الأحجار' للنفثاسي، وكتاب 'تخب النخائر في أحوال الجواهر' لابن الأكفاني، وكتاب 'الجواهر في معرفة الجواهر' للبيروني، والروض المعطار في أخبار الأقطار' للحميري.

وهذا يجب أن نشير - ونحن في صدد حديثنا عن المراجع الحديثة التي ألفت منها في بحثي - إلى ما كتبه المستشرقون عن بلاد النوبة والسودان عموماً، وأشاروا خلال كتابتهم عن هذه البلاد إلى تاريخ قبائل البجة. ويأتي في مقدمة هؤلاء المستشرق: بول Paul, A. الذي قدم لنا أهم الكتب الحديثة التي كتبت عن تاريخ البجة وهو كتاب:

- تاريخ قبائل البجة في السودان

A History of the Beja Tribes of The Sudan

ويأتي بعد ذلك ماك مايكل Mac Michael في الأهمية الذي قدم لنا كتابه:

- تاريخ العرب في السودان

A History of the Arabs in The Sudan

- ولا يغوتني أن أشير إلى ما كتبه سليجمان Seligman من قول عن البجة وسلاطنتهم في:

"Some Aspects of The Hametic problem in the Anglo Egyptian Sudan" J. R. A. S

وأهمية هذه الكتابات مستمدة من مؤلفيها التي استقت معلوماتها من كتب الأسباب التي وجدتتها في السودان، وذلك لأنهم عاشوا في السودان مدة طويلة كانوا يشغلون خلالها وظائف حكومية هامة سهلت لهم الاطلاع على المصادر النادرة ويسرت لهم الاتصال بكبار رجال القبائل الذين زودوهم بأهم المعلومات عن تاريخ السودان والنوبة والبجة. فقد أنصبت دراستهم صفة أصلية على ميدان البحث.

أما عن المراجع العربية الحديثة التي استقت منها في دراستي هذه فيأتي على رأسها ما كتبه السادة الأساتذة الأفاضل: نعم شفيق، والدكتور محمد عوض محمد، والدكتور مصطفى محمد سعد، والدكتور الشاطر بصلي عبد الجليل، والدكتور صلاح الدين الشاسي، والدكتور عطية القوصي، والدكتور محمود الحويري.

خطة الدراسة:

وهي عبارة عن أربعة فصول يسبقها المقدمة ودراسة لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذا البحث. ويتلهم أهم النتائج التي توصلت إليها وهي كالتالي:

* المقدمة: وقد عرضت من خلالها سبب اختياري لهذا الموضوع، ثم تبعتها بالدراسات السابقة التي تناولت موضوع البحث، وما هي أبرز الصعوبات التي واجهتني، وما هو المنهج المستخدم في هذه الدراسة.

* عرض لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذا البحث: وتناولت فيه عرض أهم المصادر والمراجع التي نتصل اتصالاً مباشراً بموضوع البحث، والتي برزت أهميتها من خلال معالجتني لهذه الدراسة.

* الفصل الأول: جغرافية البجة وأصولهم. وفيه تحدثت عن موطن البجة وموقعه الجغرافي وأهم ما يميزه من تضاريس طبيعية متنوعة. ثم عرضت أصل الاسم وقدمت إلاحتمالات المقترحة لتفسير المصطلح، وهذا يقتضي التحدث عن علاقة البجة بأصحاب الحضارات القديمة الشمالية منها والجنوبية. ثم عالجت الأصل السلافي من خلال عنصر التعريف بالسكان وأصولهم وقدمت من خلاله الطباع الخلقية والصفات الجسمانية

لأولئك البجة، وذلك حتى تتكشف شخصية البجاوي في تعامله مع نفسه وغيره، وبعدها قمت بعرض العقائد والأديان التي ظل يمارسها البجة حتى ظهور الإسلام لتصبح بعد ذلك أهم مراكز نشر الثقافة والفكر العربي الإسلامي في المنطقة. وقد ألهمت هذا الفصل بالحديث عن لغة البجة وما طرأ عليها من تأثير وتأثر من خلال علاقتهم بأنفسهم والآخرين.

* أما الفصل الثاني: فقد تحدثت فيه عن 'مظاهر الحياة السياسية عند البجة'، وقد قسمته إلى مظاهر خارجية ودخلية، ومن أولى المظاهر الخارجية التي تحدثت عنها موقف البجة من الفتح العربي لمصر وما تلاه من سنوات من عدم وجود صلة عداوية مكررة بين العرب الفاتحين والبجة. ثم تحدثت بعدها عن البجة في عصر الولاة. وهذه الفترة اشتهت بالعداء والتمرد ضد السلطة العربية في مصر. مما نتج عن ذلك عدد من المعاهدات والعقود التي كانت تنقض من حين إلى آخر تعدد من الأسباب التي تقدمت بعرضها، كما قمت بعرض بنود هذه المعاهدات والعقود وتقدمت بدراسة تحليلية لها وما أدت إليه من نتائج. ثم تناولت الدور السياسي للبجة منذ بداية قيام الدولة الطولونية حتى توقف النشاط الحربي لهم تماماً. وقد استهلكت الحديث في ذلك عن شخصية كان لها الفضل في تثبيت الأقدام العربية في هذا الإقليم. وهي الشخصية التي عرفت باسم 'عبد الحميد الغمري' وقد تناولت نشأته، وعلاقته بالدولة الطولونية، ودوره السياسي في بلاد البجة والنوبة إلى أن قتل. لتصبح السيطرة بعده في يد قبيلة ربيعة. وقد عرضت الأحداث التي أدت إلى ذلك وكيف استفادت ربيعة منها حتى نجحت في النهاية من إقامة إمارتها العربية الأولى في بلاد البجة. كما كانت لربيعة علاقة بأهالي أسوان وما جاورها من بلاد النوبة الشمالية، وقد انتهت أيضاً هذه العلاقة بسيطرة ربيعة على تلك المنطقة.

أما المظاهر الداخلية من نظم إدارية وسياسية داخلية فقد بدأتها بنظام الحكم والإدارة المتبع عند تلك القبائل. والذي أثبت أنه نظام قبلي ولكي أفق على حقيقة ذلك تقدمت بدراسة تحليلية قامت على المقارنة بين ما أورده اليعقوبي من جانب وابن حوقل والمقريزي من جانب آخر. ثم قمت بعرض للنظام المتبع في ورئاسة الحكم. وهو نظام ورثة تعلق بالنسب إلى الأم، وعرضت كيف استفاد العرب القادمين إلى أرض البجة من هذا النظام بعد مصاهرتهم للبجة لتصبح مفاهيم الحكم في النهاية بين أيديهم. ونهيت القول عن مظاهر السياسة الداخلية بالحديث عن المنازعات والخلافات التي تعرض لها مجتمع البجة بين أنفسهم وأسبابها رغم صمت المصادر التاريخية عن ذكر أية أخبار عن ذلك. ورغم ذلك القصور فقد حاولت بحث العلاقات التي قامت بين قبائل البجة وما يحتمل أن تكون عليه.

* الفصل الثالث: تحدثت عن 'مظاهر الحياة الاقتصادية عند البجة'، وقد بدأت هذا الفصل بالحديث عن الزراعة والري وما قامت عليه من موارد المياه المتنوعة وطريقة الري المتبعة عندهم، وهذا يتطلب التحدث عن أنواع المحاصيل التي قامت عليها، ومعيشة الفاتمين بالزراعة. ويلي الحديث عن الزراعة الحديث عن الرعي والثروة الحيوانية، وهذا يقتضي التحدث عن حرفة الرعي وقدم عهد البجة بها. ثم تحدثت عن أهم الحيوانات التي افنتاها البجة والدفع من ذلك من خلال عنصر الثروة الحيوانية. وثالثاً تناولت الحديث عن الصناعة وما هي المواد الأولية التي قامت عليها، ثم تلاها الحديث عن أهم الصناعات والحرف التي كان أهمها استخراج الذهب والزمرد. وفي النهاية جاء الحديث عن مظاهر التجارة. وقد انقسمت إلى مظاهر داخلية

تمثلت في المراكز التجارية وأهم الأسواق، ثم أهم السلع المصدرة. ومظاهر أخرى خارجية تمثلت في أهم الطرق، والموانئ التجارية ودورها على المستوى الإقليمي والعالمي وكانت أهم هذه الموانئ ميناء باضع وعذاب وسواكن.

وأخيراً في الفصل الرابع: تحدثت عن مظاهر الحياة الاجتماعية عند البجة، وبدأت الحديث عن عناصر السكان وطبقات المجتمع، وبينت لنا من خلال هذه الدراسة الترتيب الطبقي للقبائل وبطون هذه القبائل حسب الظهور والدور المؤثر في الإقليم. كما يتضح لنا كيف راح بعض المؤلفين أن ينسب هذه القبائل إلى البجة، وهم بأنفسهم راحوا ينتسبون إلى أنساب عربية شريفة. لذلك حاولت صانعاً فاصلاً بين القيل والقال من خلال دراسة موضوعية تحليلية ليكون هذا العمل لهم ولنا دراسة تاريخية بقدر ما أراد انطباقاً لما يقال بالحاضر لم يكن له علاقة بالماضي. وبعدها تناولت الحديث عن القبائل العربية التي استقرت بين قبائل البجة، وهذا يقتضي الحديث عن علاقة العرب بالبجة قبل الإسلام. أما بعد الإسلام فقد وجدت هذه القبائل لأسباب عدة قمت بعرضها، ثم عرضت هذه القبائل وأسماءها وما قدمته من أدوار في شتى مجالات الحياة عند البجة.

وفي نهاية هذا الفصل أوجزت الحديث عن عادات وتقاليد البجة من مسكن وملبس ومأكل وطقوس وذلك بسبب صمت المصادر التاريخية عن الحديث في ذلك، وعلى الرغم من هذا الفصور، فقد حاولت بحث ما تحتمل أن تكون عليه.

* الخاتمة: وعرضت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة، ثم قمت بعرض مجموعة من الملاحق والصور التي تعين على رسم الصورة الكاملة عن قبائل البجة، ثم زينت هذه الدراسة بقائمة تضم المصادر والمراجع التي تم الرجوع إليها.

والمرجو أن أكون وفقت في كتابة هذا البحث وإخراجه على هذا النحو، وأن تثر الصفحات ثمرتها المرجوة، وأن يرضى تاريخنا الإسلامي حاضرننا ومستقبلنا، وأن ينفع الله عز وجل بها قارئها وكتبتها إنه نعم المولى ونعم النصير. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. والتقدم بسواقر الشكر والعرفان لكل من قدم لي يد العون في إنجاز هذا وأخص بالذكر أساتذتي الدكتور المبددة/ نعمة على مرسى رئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة المنيا.

والحمد لله في ذي بدء ومختتم

محمد خليفة ركابي

وبين البحر الأحمر شرقاً، ونيل مصر والسودان غرباً^(١)، في صحراء طولها أكثر من ألف فرسخ، وعرضها ثلاثمائة^(٢). كما أشاروا إلى أن بداية طول هذه البلاد الشاسعة تأتي من الشمال من قرية تعرف بخربة معدن الزمرد^(٣) في صحراء قوص^(٤)، وبين هذا الموضع وبين قوص مسافة ثلاث مراحل^(٥) ويمتد هذا الطول جنوباً حتى ينتهي بالمنددرات الشمالية لهُضبة الحبشة، لذلك نجد هذه البلاد جاورت أرض الحبشة من الشمال^(٦). ويأتي عرضها من ساحل البحر الأحمر شرقاً، ويمتد غرباً إلى جبال منيعة تفصل بينها وبين أرض النوبة^(٧). وهذه الأوطان ثم تمثل موطن البجة في العصور الوسطى فحسب؛ بل مثلت هذه المنطقة الموطن الأصلي لهم، وذلك منذ زمن غارق في القدم، فهذه القبائل استوطنت هذا الإقليم منذ عهد الأسرة السادسة الفرعونية (2460-2200 ق.م)، وكان يعرف هذا الإقليم باسم إقليم (مجا) أو (مزا)^(٨)، وعرف أهله القائلين به باسم (أونوت) وهو يعنى الرامي من القوس^(٩). وهذه الأوطان الآن هي أضيق مساحة مما كانت عليه في الأزمنة الغابرة. فمواطنهم اليوم تتألف من الأراضي الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً، ونهر العظيرة^(١٠)، ثم النيل

— وأول حدها من الشمال آخر بلاد البجة، ومن الغرب حده ثلثة الشرقى. (المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار _ المعروف بالخطط المقريزية، جزءان _ القاهرة 1270م، ج 1 ص 192، 194).

— وآخر هذه المنطقة، ممثلة الرنج (بلاد الصومال) وهو حدها الجنوبي، وكل من في بلاد الحبشة من ملوك، فهم تحت يد الجاشي يعطونه الطاعة، ويؤدون إليه الخراج، وهو على من التصرفات العنقوية. (اليقوبي: تاريخ اليعقوبي، طبعه بيروت 1960م، ج 1 ص 193).

— وأهل الحبشة نصارى تقرب ألوانهم من العرب بين السواد والبياض، والجمع أهل سلم، وليست دارهم بدار حرب، وما كان من جلود التمر والجلود البقرية المنسعة فيقع من نحيبتهم (ابن حوقل: صورة الأرض، الطبعة الثانية، لندن 1938م، القسم الأول، ص 56).
(١) المسعودي: مروج الذهب، ج 1 ص 18.

(2) ناصر خسرو عتوي: سفر نامه، ترجمة وتحقيق: يحيى الخشاب، القاهرة 1945م، ص 134.

(٣) خربة معدن الزمرد: هي ما تعرف بخربة الملك، وهي موضع يستخرج منه الزمرد، وهي على ست مراحل من فقط (بافوت الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 355).

— وهذا الموضع ذكره اليعقوبي فقال عنه: أنه بعد ثمان رحلات عن فقط (البلدان، لندن 1891م، ص 333).

(٤) قوص: بالضم ثم السكون وصاد مهملة، وهي من المدن المصرية، وهي مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر، بينها وبين القاهرة ثلثة عشر يوماً، وأهلها أرباب ثروة واسعة، وهي محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة. وهي شديدة الحر لقربها من البلاد الجنوبية، وبينها وبين فقط فرسخ وهي شرقي النيل، بينها وبين البحر الأحمر خمسة أيام أو أربعة، وقوص في الإقليم الأول، وطولها من جهة الغرب خمس وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها أربع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة. (بافوت الحموي: معجم البلدان، ج 4، ص 413).

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج 1 ص 194.

(٦) ابن الوردي: خريدة العجائب وأريدة الغرائب، القاهرة 1316هـ، ص 48.

(٧) الهمداني: مختصر البلدان، طبعه لندن 1302هـ، ص 78.

(٨) Gardiner, A. H., Ancient Egyptian Onomastica, Oxford, 1947. II, p. 73

(٩) سليم حسن: موسوعة مصر القديمة، مهرجان القراءة للجميع 2000م، ج 10، تاريخ السودان المقارن إلى أوائل عهد بيغلي، ص 82.

(١٠) نهر العظيرة: وهو ما عرف أيضاً باسم كيرا، وهو أحد الروافد الحبشية التي تصب في نهر النيل في المنطقة الواقعة بسهول السودان شمال خط 17°، وغرب خط طول 18°، وهذا النهر يكون من اتجاه عدة روافد في أثيوبيا، غير أن أهمها رافد ككري أو سبت الذي ينبع من شرقي الحبشة عند خط عرض 12°، ويقدّر طول هذا الرافد من منبعه إلى مصبه بالعظيرة 864 كيلو متر، والمسافة بين نقطة التقاء نهر ككري بالعظيرة، وبين مصب العظيرة في نهر النيل تبلغ نحو 500 كم وهو من الأنهار الموسمية، بحيث يجف لمدة خمسة أشهر في السنة -

الأكبر غرباً، وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية في الجنوب إلى نهاية محافظة أسوان في الشمال.^(١)

وتحدد أيدح هذا الإقليم من الشمال خط وهمي يبدأ من منطقة عيذاب^(٢)، الواقعة على البحر الأحمر في الشرق، وينتهي غرباً ببدة العلاقي^(٣)، الواقعة على نهر النيل، شمال مدينة وادي حلفا، ويحده شرقاً حوض البحر الأحمر، أما في الجنوب فيحده خط وهمي يمر من ساحل البحر الأحمر جنوباً من عدوة، وينتهي غرباً بنهر العظيرة في منطقة شمال بلدة القصارف جنوب السودان ويبدأ لحد الغربي بخط وهمي من شمال القصارف، ويتجه شمالاً إلى بلدة العلاقي التي أشرنا إليها من قبل^(٤). وقد تبلغ هذه المساحة حوالي ١١٠,٠٠٠ ميل مربع موزعة بين مصر والسودان وإريتريا.^(٥)

ومن الجدير بالذكر أن هذا الإقليم اتصف بصفات جغرافية متنوعة، واشتمل هذا التنوع التضاريس وموارد الماء، وما يترتب على ذلك من تنوع الذبات والحيون. ولعل اختلاف التضاريس هو أكبر عامل طبيعي يؤثر في الظواهر الطبيعية الأخرى. وأكبر مظهر لاختلاف التضاريس هو وجود تلك السلاسل الجبلية الممتدة من الجنوب إلى الشمال في محاذاة البحر الأحمر، في شكل مرتفعات متصلة الحلقات، فيما عدا مكان واحد يشقه خور بركة^(٦)، والملاحظ في تلك المرتفعات المحاذية للبحر الأحمر أنها تلتصق به أحياناً، حتى لا يكاد يفصلها عنه شيء، وتبعد عنه أحياناً عنه، فتترك بينها وبينه سهلاً ساحلياً ضيقاً، يتراوح عرضه ما بين ٢٠ إلى ٣٠ كيلو متر، يضيق في القسم الأعظم من الجهات الداخلة في السودان، وأكثر اتساعاً في الجزء الداخل

- من يناير إلى مايو، وينتظم المجرى مجموعة من الترك والفران، إلى أن يحل الفيضان حتى يتكئ بالمياه. (د/محمد محمود الصياد، د/ محمد عبد القوي سعودي: السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1966م، ص 74).

(١) محمد عوض: الشعوب والسلالات الإفريقية، القاهرة 1965م، ص 246.

(2) عيذاب: هي أكثر بلاد البجة أهمية وأغناها شهرة؛ لأنها حظيت ببناء كان ذو دور مهماً على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي. وكان هذا الميناء يستند للأغراض الحربية في بداية الأمر، وما لبث أن أصبح يستند للأغراض التجارية وأصبح أعظم ميناء تجاري في المنطقة، وبذلك أصبحت مدينة عيذاب أكبر سوق تجاري آنذاك. والآن عيذاب ومينائها أصبحت خراب تقع شمال حلايب الدالية بنحو 20 كم عذ دائرة عرض 20، 22 شمالاً كمكان مفسر. (عبد العالي عبد المنعم الشامي: محاضرات في الجغرافية التاريخية، طريق عيذاب قوص خلال العصر الوسيط، القاهرة 1998م، ص 28).

(3) العلاقي: هو وادي عظيم في صحراء مصر الشرقية، ينحدر من جبال البحر الأحمر من جهة الغرب، فيصل إلى نهر النيل في المنطقة الواقعة شمال كرسكو بنحو ٥٠ كم ويبلغ طول مجراه ٣٥٠ كم ويقدر عرضه بنحو ٥٠٠ كم تقريباً، وهو أم المراكز التجارية في بلاد البجة لأنه يمثل أكبر مركز لاستخراج الذهب وسوقه منذ العصور القديمة، كما كان أهم مركز يربط بين عدة طرق تجارية في المنطقة خلال العصر الوسيط. (عبد العالي عبد المنعم الشامي: محاضرات في الجغرافية التاريخية، الصحاري المصرية في العصر الوسيط، القاهرة ١٩٨٧م، ص ١٢٣).

(٤) الشافط بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، القاهرة ١٩٧٢م، ص ١٤٥.

(٥) مصطفى سعد: البجة والعرب ص ١.

(٦) خور بركة وهو أحد الأنهار الموسمية في بلاد البجة، وهو ينبع من شمال الحبشة عند خط عرض ١٥ تقريباً، ويسير مجراه في اتجاه يكاد يكون شمالياً. وينتهي في السهول الساحلية السودانية، فيكون في النهاية دلتا مروحية تقدر بمساحة ٣٨٦ ألف فدان على بعد ٩٠ كم من سواكن. (السودان دراسة في الوضع الطبيعي، ص ١٣).

في حدود مصر. كذلك نجد أنها ليست متساوية في الارتفاع والوعورة، فترتفع في بعض الجهات لتزيد على ١٥٠٠ متر ويقال في أخرى عن ٥٠٠ متر أما من حيث الانحدار ووعورته فيكون فجائي جهة الشرق، وتدرجي جهة الغرب تتخلله بعض الأودية والسهول.^(١) ومن غير شك فقد أثرت هذه الجبال واختلاف مظاهرها في تنوع موارد المياه وتوزيعها؛ وخاصة في مصدرها الأول إلا وهو سقوط المطر، فنجده أغزر في جهات عن الأخرى. وكذلك اختلف في توقيت هطوله، فمنها ما هو صيفي وما هو شتوي، فالمرتفعات المنحدرة غرباً وما يليها في هذا الاتجاه فمطرها صيفي، أما المرتفعات المنحدرة شرقاً وكذلك الساحلية فمطرها شتوي^(٢)، وهذا ما نتج عنه أن جرت بعض الأنهار الموسمية في هذا الإقليم في بعض الأجزاء، مثل خور بركة وخور الجاش ونهر العظيرة^(٣).

وانعكاساً للتنوع السابق للضاريس وموارد الماء؛ كان له دوره في تنوع النباتات، ففي المرتفعات المنخفضة والتي وفرت مناخ مناسب وأقل حرارة غلبت عليها وفرة النباتات، وهذه المنخفضات توفرت بالقرب من البحر الأحمر، وكانت أكثر حظاً في تلك من المناطق الغربية، والتي تغلب عليها الصفة الصحراوية والمناخ الجاف وخاصة منطقة الشمال الغربي، وهذا لا يعني أنها تخلو من بعض الأقاليم التي يغزر فيها النبات في بعض فصول السنة^(٤).

ولم تكن مواطن البجة على هذه الشاكلة من القسوة في العصر القديم السابق للتاريخ؛ فقد كان هذا الإقليم على الأرجح أغزر مطراً ونباتاً مما هو اليوم وكانت طوائف مختلفة من الحيوانات ترحل فيها^(٥) وفي نفس الوقت كان طقس المنطقة في مراحل مبكرة للدخول في مراحل جفاف كبيرة، ولا شك أن هذه الحالة دامت طويلاً والتي نرى نتائجها اليوم في جفاف الصحراء الشرقية^(٦).

وفي هذه البيئة المتنوعة _ إذن _ عاشت قبائل البجة منذ عصور عديدة، وقد نظموا حياتهم على المنوال الذي تفرضه خصائصها الطبيعية، حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها، بعدما وظفوا كل جزء من المقومات الطبيعية مع ما يناسبه من جوانب الحياة، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية. وسوف نقدم لكم دراسة لكل مقوم ودوره منها في كل جانب على حدى في الفصول اللاحقة.

ب- مصطلح البجة ومصدره:

البجة، كلمة قديمة قدم البجة أنفسهم، وتنطق بالبجة والبيجة أو البجاة، وقيل بكجة^(٧)، ولعل أول إشارة إلى اسم لبجة في المصادر العربية بعد ظهور الإسلام، وردت في كتاب

(١) محمد عوض: السودان الشمالي سكانه وقبائله، ط٢، القاهرة ١٩٥١م، ص ٢٣

(٢) محمد عوض: نفسه ص ٢٤، ٢٥.

(٣) محمد الصبياد، محمد عبد القوي: السودان دراسة في الوضع الطبيعي، ص ٤٢، ٤٣.

(٤) محمد عوض الشعوب والسلالات الإفريقية ص ٢٤٨.

(٥) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٣٠.

(٦) محمد عوض: الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٧) عمر صليبر عبد الجليل: كتاب الأبحاث، مؤتمر أسوان عبر العصور، أبريل ٢٠٠٦، كلية الآداب، جامعة جنوب الوادي، طبعة أسوان

٢٠٠٢، ص ٢١٧.

الواقدي^(١) باسم البجاة، ولاحقاً تردد الاسم عند المؤرخين ولكن بهجاءات متعددة وأشكال مختلفة. فورد بضم الباء، وفتح الجيم، وإضافة تاء مربوطة (البجّة) عند كل من ابن عبد الحكم^(٢)، والبلاذري^(٣)، واليعقوبي^(٤)، والطبري^(٥)، والإصطخري^(٦)، والمسعودي^(٧)، وابن حوقل^(٨)، وابن النديم^(٩)، والهمذاني^(١٠)، وابن سديم الأسواني^(١١)، وناصر خسرو^(١٢)، والإدريسي^(١٣)، والبلاوي^(١٤)، وابن الوردي^(١٥)، والمقريزي^(١٦). كما ورد عند بعض المؤرخين بضم الباء، وفتح الجيم، وإضافة ألف زائدة (البجّا)، عند كل من ابن سعيد^(١٧)، وأبو الفدا^(١٨)، والقلقشندي^(١٩). وورد عند آخرين بضم الباء، وفتح الجيم، وألف زائدة وتاء مربوطة (البجّاة)، أمثال ابن جبير^(٢٠)، وابن الأثير^(٢١)، والثعمری^(٢٢)، والإدقوي^(٢٣)، وابن بطوطة^(٢٤)، وابن خلدون^(٢٥)، وأبو المحاسن^(٢٦).

-
- (١) فتوح القمام، جزآن، بيروت (بدون تاريخ) ج ٢، ص ٥٥.
 - (٢) فتوح مصر وأخبارها، نشر ماسيه، القاهرة ١٩١٤م.
 - (٣) فتوح البلدان: تحقيق: رضوان محمد رضوان، بيروت ١٤٠٣هـ، ص ٢٣٩.
 - (٤) تاريخه: ج ١ ص ١٩٢.
 - (٥) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤، القاهرة ١٩٦٧م، ج ٩، ص ٢٠٣.
 - (٦) المسالك والممالك: تحقيق محمد جابر عبد العال، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٤٢.
 - (٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢ ص ١٨.
 - (٨) صورة الأرض ٥٠.
 - (٩) الفهرست: تحقيق رضا سجاده بن علي بن زين العابدين، طهران ١٣٩١هـ، ج ١ ص ٢١.
 - (١٠) مختصر كتاب البلدان.
 - (١١) حواشي إسلامية، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة، القاهرة ١٩٨٥م، المجلد ٢١، مقال محمد خير: ابن سديم الأسواني ص ٤٩.
 - (١٢) سفر نامه ص ١٣٤.
 - (١٣) نزعة المشاق في اختراق الأفاق، بيروت ١٨٦٦م، ج ١، ص ٤٦.
 - (١٤) سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، دمشق ١٣٥٨هـ، ص ٦٤.
 - (١٥) خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ٤٨.
 - (١٦) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.
 - (١٧) بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق: خوان فرنيث خينيس، تطوان ١٩٥٨م، ص ٥٠.
 - (١٨) تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص ١٢٠.
 - (١٩) صبح الأعشى ج ٥، ص ٢٦٣.
 - (٢٠) تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، المعروف برحلة ابن جبير، تحقيق: حسين مؤنس القاهرة ١٩٠٨م، ص ٤.
 - (٢١) الكامل في التاريخ، بيروت ١٤٠٢هـ.
 - (٢٢) مسالك الإبرار في مسالك الأمصار، تحقيق: دوروتيا كرفولسكي، ط ١، بيروت ١٩٨٦م، ص ٧٨.
 - (٢٣) الطالع السعيد الجامع لجباء الصعيد، تحقيق: محمد سعد حسن، وراجعه طه الحاجري، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٧٨.
 - (٢٤) تحفة الظواهر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة، القاهرة ١٩٦٤م، ج ١ ص ٥٣.
 - (٢٥) المعبر ويوان المبدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، القاهرة ١٩٧٩م، ج ٤، ص ٦٤٦.
 - (٢٦) التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٢م، ج ٢ ص ٢٣٨.

ولعل اللفظ الأشهر هو لفظ البجة، بضم الباء وفتح الجيم^(١)، وقد تحولت حركة الضم إلى الكسر في الزمن الحديث^(٢).

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أن المؤرخين العرب في العصور الوسطى، لم يكونوا أول من أطلق اسم البجة على سكان الصحراء الشرقية وما يليها جنوباً إلى أطراف الحبشة. فإن لهذه التسمية أصولاً تاريخية قديمة، وإن لم تكن ثابتة ولا مطردة على مدى العصور. من ذلك مثلاً، ظن البعض أن الاسم مصدر لفظ بوكا (Buka) أو (Bukak)، الذي جاء في النصوص المصرية القديمة، التي ترجع إلى عهد الملك تحتمس الثالث^(٣)، وهو اسم قبيلة من بين القبائل الجنوبية التي أخضعها المصريون لسلطانهم آنذاك. ولعل هؤلاء هم الذين ورد ذكرهم في أحد النقوش الأكسومية، (يرجع إلى القرن الرابع الميلادي) باسم بوجايتاي (Bugaitae)^(٤).

وقد ظن آخرون أن الاسم مصدره هو اللفظ المصري القديم (أشبا) أي (ساكن الصحراء) أو البدو، فتغيرت صورته الصوتية، فصار حرف الشين جيماً، ويرجعون ذلك التغير إلى ما تعرضت له المنطقة من تيارات بشرية ولغوية وحضارية في ظروف متباينة^(٥)، وبخلاف ذلك أرجع آخرون أن الاسم مرجعه لفظ ميدجو (Medgo) بعدما أُنشئت الحفائر الأثرية وجود قبائل قديمة في صحراء مصر الشرقية تسمى قبائل الميدجو، وهي بقايا القبائل القديمة التي تكونت منها مملكة أثيوبيا القديمة^(٦).

(١) عبد العظيم رمضان: الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ، أعمال لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، ديسمبر ١٩٩٧م، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩م، تاريخ المصريين رقم ١٦٤، ص ٢٩٣.

(٢) الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان، ص ١٤٥.

(٣) تحتمس الثالث: هو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر (١٥٥٢ – ١٣١٤ أو ١٢٩٥ ق.م). وقد تولى حكم مصر في الفترة ما بين ١٤٧٨ – ١٤٢٥ ق.م عقب وفاة الملكة حتشبسوت، واشتهر عصره بالتحريض والثورات في أطراف الإمبراطورية المصرية، خاصة في أسيا وبلاد النوبة. مما اضطره إلى القيام بسبع عشرة حملة عسكرية قبل أن ينجح في السيطرة على الأوضاع المتأزمة. وإضافة إلى أعماله الحربية قام بعدد من الإنشاءات المصرية أهمها تغيير واجهة معبد آمون رع بالكرنك، فضلاً عن المنشآت الأخرى في بلاد الصعيد والوادي التي يحفظ لنا الزمن شيئاً من آثارها. (يقول جريمان: تاريخ مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاني، وراجعته د/ زكية طبوزادة، ط٢، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٢٧١ – ٢٧٦).

(٤) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ٤.

– النقوش الأكسومية: هي آثار خلفها دولة كانت قلعة قبيماً في شمال شرق أثيوبيا، سيطرت على منطقة الساحل الإفريقي المقابل لليمن. وعرفت هذه الدولة بمملكة أكسوم، نسبة إلى عاصمتها مدينة أكسوم، ويقدر بأنها ظهرت في بداية القرنانية. ويظن أنها قامت على يد العرب الجنوبيين في تلك البلاد، ودانت هذه المملكة باثوثية إلى القرن الرابع الميلادي، بعدها تحولت إلى القرانية. وقد شهدت هذه الدولة ازدهاراً سياسياً واقتصادياً نتجت عنه حضارة لا تقل عن جاراتها. (جواه علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، بغداد ١٤١٣هـ، ج ٣ ص ٤٥١).

– وجاءت نهلية هذه الحضارة، حين وقعت منطقة الساحل الإفريقي في قبضة المسلمين، وهو الأمر الذي جعل موارد أثيوبيا وعلاقتها مع خارج البلاد تنقطع، وترتب عليه انهيار المدن الإثيوبية التي ازدهرت بالتجارة في الماضي، ومنها العاصمة نفسها "أكسوم". وأصبحت البلاد بأزمات اقتصادية، بسبب ما حدث من جذب وقطع تولدت عنه المجاعات. ومن ذلك انتهت الحضارة الأكسومية بعد أن قضت ثلاثين قرناً من الازدهار والرفق. (الشاطر بصيلي: معالم تاريخ السودان وادي النيل، ط١، القاهرة ١٩٥٥م، ص ١١).

(٥) الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان، ص ١٤٧.

(٦) عمر صابر: كتاب الأبحاث ص ٢١٧.

وعلى أية حال ومهما ورد من قول فقد اتفق عدد من الباحثين الأثريين من أمثال إدوارد مير^(١) والأسناد زينه^(٢)، والأسناد كيس^(٣)، على أن اسم البجة قديم جداً؛ لأن شعب البجة كان معروفاً لدى المصريين القدماء تحت اسم (مزا) أو (مجا). وقيل (ميجا) و(ميجوي) وللعلامة هجاءات مختلفة ولكنها متقاربة^(٤) - وهي تعني في الفرعونية الحارس أو المحارب^(٥) - معتمدين في ذلك على عدد من الأدلة التي وردت على النقوش الفرعونية تؤكد على استعانة الفراعنة بقبائل جنوبية تحت اسم (مجا)، تتطابق في صفاتها ومواطنها مع قبائل البجة الحالية^(٦).

ومن ذلك ما أثبتته العالم الأثري ويجول^(٧)، والذي أكد بأنه ورد في النصوص المصرية القديمة أن القائد المصري (أوني)^(٨) جذب عسكر من رجال هذه القبيلة، لقمع ثورة في فلسطين، زمن الملك (يببي الأول)^(٩)، وأن رجال هذه أيضاً ساعدوا هذا القائد في حفر قناة وسط صخور الجندل الأول، في عهد الملك (مرنوع)^(١٠). وإضافة لذلك تزرع عدد من الوثائق والمؤلفات التي تؤكد استمرار ولاء هذه القبيلة لمصر في عصور متباينة. ولكن وإلاهم أن هذه الشواهد تؤكد قدم شعب البجة الذي عرف باسم (مجا) أو (مجاوي)، وفي الفترات اللاحقة من مراحل التاريخ، تحول الاسم إلى "بجا" لأن مبادلة الباء بالميم أمر ليس غريباً في اللغات السامية كما هي

(١) Meyer, Ed, Geschte des Abertums, Stuttgart, Berlin, 1921. p 165.

(٢) Sethe, K, Urkunden d. es alten Reichs, Leipzig, 1932, I. p 36

(٣) Kees, H., Beitrage zur Altgyptischen Provinzialverwaltung und der Geschichte des Feudalismus, 1932, p 237.

(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٣٢.

(٥) سعاد ماهر: محافظات جمهورية العربية المتحدة في العصر الإسلامي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٢١، العدد الأول مايو ١٩٥٩م، ص ١٧٩.

(٦) سليم حسن: مصر القديمة، ج ١٠، ص ٥٢.

(٧) Weigall, A. E. P., A Report on the Antiquities of Lower Nubia, Oxford, 1907, p 5.

(٨) (أوني): من أكبر موظفي الدولة في عهد لأسرة السادسة، وقد عاش في عهد الملوك الثلاثة الأول لهذه الأسرة. تدرج خلالها حكمهم المناصب والطاقات المختلفة. فقد كان في عهد الملك "تبتي" يشغل وظيفتين: مدير بيت الزراعة، ومدير ضياع القصر الملكي. وفي عهد الملك "يببي الأول" انتقل من العمل الإداري إلى الجيش قام خلالها بإخضاع عدد من الثورات في فلسطين وسوريا، وبعد أن حصل على هبة متكببة جنترية انتقل إلى مجال الإنشاءات الكبرى واستغلل المحاجر. في عهد الملك "مرنوع" تولى منصب حاكم الجنوب من أسوان جنوباً إلى أطفح شمالاً. وخلال هذه الفترة تمتع أوني بالثقة والولاء لملوك هذه الأسرة، مما جعله يستحق الشاء من هؤلاء الملوك وإغداق المناصب والعليا عليه. (فيتولا جريمال: تاريخ مصر القديمة، ص ١٠٠ : ١٠٤).

(٩) يببي الأول (مري تاوي): أي حبيب الأرضين، هو ثلثي ملك من ملوك الأسرة السادسة، ورث الحكم عن أبيه (تبتي) بعد اغتياله، فحكم بعدما في حكم مصر مدة تزيد عن أربعين عاماً. عقد العزم خلالها على إشاعة الهدوء والطمينة في البلاد، من خلال نهج سياسة اقتصادية وسياسية واسعة جعلته يتمتع بثقة شعبه وحبه له. وبذلك وصف عصره بأنه أكبر الفراعنة الذين قبضوا على ناصية الدال بحزم ونشاط. (سليم حسن: مصر القديمة، ج ١ ص ٣٦٥).

(١٠) مرنوع (عنتي أم زاف): أي الإله عنتي هو حامي، وعنتي إله محارب على هيئة النصف كان بعد قديماً، وهو ثالث ملوك الأسرة السادسة، ورث الحكم عن أبيه (يببي الأول)، وحين اعتلى عرش مصر كان حياً لم يتجاوز عقده الثاني، ولم يتجاوز حكمه ثمانية عشر سنة. نهج خلالها سياسة والده السياسية والاقتصادية، كما يبرز في عصره اهتماماً واضحاً بالتوسع ناحية الجنوب وإخضاعه، مما عكست سنوات حكمه عظمة وقوة الأسرة السادسة. (سليم حسن: مصر القديمة، ج ١ ص ٣٧٧).

الحال في مكة وبكة^(١). غير أن اسم البجة ورد صريحاً ومن غير تحريف، خلال القرون الأولى للميلاد وذلك في النقوش الأكسومية التي خلفها ملوك أكسوم، وأن هذه أول مرة في التاريخ التي يذكر فيها اسم البجة بشكله الذي عرف به اليوم^(٢). ومن هذه النقوش: نقش خلفه الملك (عيزانا) تخليداً لانتصاره على ממكة مروي سنة ٣٥٦ م، وقد ورد اسم لبجة ضمن الشعوب التي أحرز عليها هذا الملك نصراً، وقبض على ملوكهم السنة^(٣). ويتضمن نقش آخر لهذا الملك أيضاً ذكر الألقاب التي يحملها، ومن بينها لقب ملك البجة^(٤). وفي الوقت الذي كان يطلق على القبائل البدوية التي تسكن الإقليم الواقع بين النيل والبحر الأحمر جنوبي مصر اسم _ بجة _ نرى الكتاب القدماء من البطالمة والرومان كانوا يطلقون على هؤلاء اسم (بليميين Blemmyes)^(٥). والراجع أن البليميين هؤلاء طبقة أرسقراطية، استطاعت بما لديها من خبرات آلية جديدة، وصفات حربية ممتازة، أن تسيطر على مجموعة كبيرة من البجة الشماليين، مدة ثمانية قرون على الأقل؛ وأن تستعين بهم على تحقيق مصالحها الاقتصادية والحربية لتوسعية زمن البطالمة والرومان. أما بقية البجة ولا سيما الجنوبيين منهم، قد احتفظوا باسمهم القديم الذي عرفوا به في نقوش أكسوم. وحينما تدخل سلطان هذه المنطقة الحاكمة، خلال القرن السادس الميلادي، عاد الاسم القديم (البجة) إلى هذه القبائل، ليعم جميعها وبه عرفوا فيما بعد^(٦).

وظل اسم بجة يطلق على هذه القبائل حتى فتح العرب لمصر في القرن السابع الميلادي، ومنذ ذلك الحين لم يتغير اسم البجة، وظل يداوله العرب ومؤلفيهم عبر العصور الإسلامية في مصر، حتى المتأخر منها.

(١) محمد عوض: السودان الشمالي، ص ٢٢. ٢١٣٢٤٣

(٢) محمد عوض السودان الشمالي، ص ٣٣.

(٣) Paul, A.: A History of the Beja Tribes of the Sudan, Camel, ilge 1954, pp, 44,45.

_ عيزانا أو عزانا: هو من أقوى الملوك الذين حكموا دولة أكسوم، وهو ابن الملك (الاعميدا)، ذلك الملك الذي خضع العرب الجنوبيين تحت سلطته خلال القرن الثالث الميلادي. أما عيزانا هو أول ملك أكسومي تنصر بعد أن كان وثنياً، وقد دخل هذا الملك النصرانية بتأثير المبشر (فرومنتيوس)، الذي أرسله إليه الملك (قسطنطين) ملك البيزنطيين عام (٣٥٠ م) أو (٣٥٦ م). وقد فرض هذا الملك النصرانية على شعبه وأعلنها ديناً رسمياً لملكته كما جعلها إيانة الرسمية للعرب الجنوبيين الذين ظفوا خاضعين لحكمه بعد أبيه. واستطاع هذا الملك خلال حكمه أن يجرده عده من الحملات الحربية الشاجدة، والتي استطاع من خلالها أن يمد سلطته على جميع الشعوب والقبائل التي كدت تغطي المنطقة الواسعة ما بين اقيل التوبي والبحر الأحمر، وامتدت سلطته إلى اليمن لسيطر على حمير وريدان وسبأ. وقد شهد عهده من ازدهار الحياة الاقتصادية وخاصة التجارة والحياة المعمارية مما جعله يلقب (بملك الملوك). (جواد العلي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٤٥٦).

_ دولة مروي: وهي الدولة التي قامت على يد ملوك الأسرة الخامسة والعشرون (٧٤٧ - ٦٥٦ ق.م) والتي سيطرت على الشاطئ الشرقي لنهر النيل، على خط عرض 15 شمالاً وخط طول 30 شرقاً، وعلى مسافة ٢١٣ كيلو متر من المسكة الحديدة شمال الخرطوم. وقد سبق قبل هذه الدولة أن أصبح حكم مصر في صورة دويلات صغيرة، وما لبث أن قويت شوكة دولة مروي في بلاد كوش (السودان) لسيطر بعدها على حكم مصر في الشمال، وبذلك خضع حكم مصر والسودان خلال هذه الدولة تحت حكم موحدة اشتهر بثقافة مزدهرة عرفت باسم الثقافة المروية. (سليم حسن: مصر القديمة، ج ١٠، ص ٦٠، ص ٤٥٣ وما بعدها).

(٤) ARKELI., A.J: History of The Soudan form The earliest Times to 1821, London 1961, p 172.

(٥) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٣٣.

(٦) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ٧.

وإذا نظرنا في الصحراء الشرقية في عصرنا الحالي؛ فإنه لم يبقَ فيها من يتسمى باسم البجة، إلا طائفة صغيرة من قبيلة بني عامر، وهم طائفة محتقرة، إذ يقول مثل سوداني: "البجة الخاس أرخص الناس". والخاس هي طائفة منتمة أيضاً إلى بني عامر على حدود الحبشة^(١).

وهذا القول لا يعني أن قبائل البجة اندثرت اليوم؛ فعلى الرغم من قلة من يحمل اسم البجة الآن، إلا أن أعدادهم اليوم تفوق الأعداد القديمة آلاف المرات ولكن ذهبوا بأسمائهم إلى الانتساب إلى أسماء عربية؛ وهذا أثر الإسلام الذي انتشر بينهم، فانتسبوا له وخاصة إلى العرب الذين قاموا بنشره.

ومما لا شك فيه أن الإسلام رفع من شأن هذه النسبة ودعمها، وبذلك طغى الإسلام والتسبب العربي الجديد على النسب الحامي القديم^(٢).

جـ - التعرف بالسكان وأصولهم:

من المقطوع به أن البجة من سلالة السود، وأنهم أقدم العناصر التي استقرت في إفريقيا ولم ينشأوا فيها بل هاجروا إليها من آسيا عن طريق البحر الأحمر من عهد بعيد، وفي الغالب أنهم من سلالة أولاد كوش بن حام الذين هاجروا إلى السودان بعد الطوفان^(٣). إذ قيل نكح كنعان بن كوش بن حام بن نوح، أردب بذت شاويل بن ترس بن يافث فأنجبت أجناس السود ومنهم البجة^(٤)، لما عن هجرتهم فيذكر اليعقوبي^(٥) بأنه عندما تفرق ولد نوح من أرض بابل، قصد ولد حام بن نوح جهة الغرب، حتى جاوزوا نهر الفرات غرباً، وبعدها افترق ولد كوش بن حام وقصدوا مصر، وبعدها عبروا نهر النيل انقسموا فرقتين. فقصدت فرقة منهم التيمن بين المشرق والمغرب ومنهم النوبة، والبجة، والحبشة. وقصدت الأخرى - باقي أجناس آلافارقة السود - جهة الغرب.

وعلى الرغم مما ذهب إليه الرواة من كون البجة سودان^(٦) ذهب آخرون مثل المقرئ^(٧) بأنهم من سلالة البربر، ويرى البعض من الباحثين وهو الدكتور محجوب زيادة^(٨) رأياً آخر وهو أن نسبهم يمتد إلى السلالة السامية وخاصة العرب، وأنهم هاجروا من شبه الجزيرة العربية إلى شواطئ البحر الأحمر قبل الإسلام. وعلى أي حال؛ ومهما تردد من قول حول أجناس البجة، فقد اتفقت آراء على أن أسلاف أولئك البجة من الحاميين، وأن سلالتهم الحالية عاشت منذ عَمَّرَ المصريون القدماء (الفراعنة) وادي النيل في مصر والسودان^(٩).

(١) نوح شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، القاهرة ١٩٠٣م ص ٩٠.

(٢) Paul, A. :OP. Cit. pp. 79

(٣) صلاح الدّيب: تاريخ القبائل المصرية ص ٣٣٥.

(٤) المقرئ: المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧.

(٥) تاريخه ج ١ ص ١٩١.

(٦) اليعقوبي: تاريخه ج ١ ص ١٩١، ابن جبير: رحلته ص ٤٢، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٣، الفلكسندري: صبح الأعشى

ج ٥ ص ٢٦٣، ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٠.

(٧) المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

(٨) الإسلام في السودان: دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠م ص ٢٦.

(٩) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ٢.

بيد أن رأياً آخر ذهب إلى أبعد من ذلك وهو ما قدمه العالم سيلجمان^(١) وهو الذي يرى أن أسلاف البجة والمصريين القدماء في عصر ما قبل الاسرات من سلالة واحدة، وقد اعتمد في رأيه من خلال إجراء مقارنة بين جماجم من الأفريقيين، فوجد تشابهاً تاماً بين أشكال المصريين القدماء وخاصة ملوكهم، وبين أشكال البجة الذين يعيشون في أوطانهم الحالية. وبذلك استنتج أن الشعبان من أصل واحد، وأن اختلاف طبيعة البيئة في كل من أوطان البجة ومصر، سلكت بكل منهما أسلوباً في الحياة فصلت بينهما فترة من الزمن، إلى أن نشأت بينهم الصلة بحكم التجاور.

وبناءً على هذه النتيجة رأى العالم بول^(٢) أن البجة شعب حامي سامي ينقسم إلى مجموعتين رئيسيتين، أحدهما جنوبية حامية؛ حافظت على صفاء جوهرها الحامي لقلة اختلاطها بالساميين، ولكن أخذت عنهم لغتهم. والأخرى شمالية أقل صفاء؛ لاختلاطها بالعرب الساميين ولكنها أكثر تماسكاً بالعادات والتقاليد واللغة الحامية. ورغم تعدد الآراء السابقة حول أجناس البجة وتعارضها؛ لا بد ومن الضروري أن نشير إلى حقيقة هامة وهي أن البجة من سكان شرق السودان القديمين، والذي لا مرأى فيه أنهم عاشوا زمناً طويلاً على شواطئ البحر الأحمر. وبما أن هذه البيئة قاسية، وعاشوا فيها منذ أقدم العصور، فقد طبعتهم بطبيعة خاصة، كانت أكثر ظهوراً في صفاتهم الجسدية والخلقية.

فقد امتازت صفاتهم الجسدية بدحول القامة ورشاققتها، موسطة الارتفاع أو فوق المتوسط بقليل، والبشرة سمراء تضرب إلى الحمرة، تشدد سمرتها في بعض الأحيان. والرأس مستطيل باطراد قليلاً، والشعر مموج أو مجعد قليلاً، وإن بدا غير ذلك، بسبب طريقتهم في ترجيل الشعر وربطه على صورة خاصة؛ كأنه حزمة من الحطب أو الدريس وإذا كان الشعر مجعداً جداً كان ذلك دليلاً على الاختلاط ببعض العناصر الزنجية. وهذا قليل بينهم دائماً، نظراً لعزلة الطويلة التي حالت دون ذلك من الاختلاط أو الأمتزاج، والنسبة الأنثوية معدلة أو متوسطة دائماً، وليس هناك بروز في الفك أو أي مظهر آخر للصفات الزنجية المعروفة^(٣).

ولعل صفة اللون المميزة هي الأكثر وضوحاً في روايات المؤرخين العرب خلال زيارتهم للبجة، فقد ذكر المقرئزي^(٤): "بأن أيدانهم صحاح، وبطنهم خماص، وألوانهم مشرقة لصفرة، ولهم سرعة في الجري يبانون بها الناس". بينما يذكر ابن حوقل^(٥): "أن ألوانهم أشد سواداً من الحبشة". ويتفق على هذا القول ابن بطوطة^(٦)، إلا أن التلغشندي^(٧): "يذكر أنهم من أقصى السودان لونا". أما صفاتهم الخلقية فأنها اتسمت بجفاف

(1) Seligman: "some Aspects of The Hametic problem in the Anglo Egyptian Sudan" J. R. A. S. No 43, 1913, pp 606 – 607.

(2) Paul, A.: A History of the Beja Tribes of The Sudan, pp 23 – 25.

(3) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٤٠.

(4) الأمواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

(5) صورة الأرض ص ٥٠.

(6) رحلته ص ٥٣.

(7) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٦٣.

الطباع، وشدة الذفور من الناس، فاذبحواي يحب العزلة، قذيل الكلام، ليس كذير التساهل في اتخاذ أصدقاء من الأجانب. والتشكيل بكل بيئة جديدة. وهذا لا يرجع إلى طبع وحشي، أو وليد الخوف، أو لإحساسه أنه غريب عن الناس. بل هو خلق يرجع إلى طبيعة البيئة الجبلية، التي لا تساعد على التجمع والأختلاط، فهو ليس مبعوضاً للغرباء والأجانب، بل ألف العيش بنفسه، فلا يجد لهم مكاناً في دائرة حياته. (١)

وهكذا كان للبيئة القاسية لبلاد البجة أن تصبغهم بصبغتها القاسية، وتمرسوا بها، حتى أصبحوا جزءاً منها، بعد أن عاشوا فيها آلاف السنين. فأصبحوا ولهم جذد كثير على تحمل الشدائد وشظف العيش، يتجرعون بالقليل من الزاد إذا تسر، ويصبرون على حرمان إذا جاءت سنوات الجهد والمشقة. وبذلك أصبح مظهرهم الطبيعي يتفق مع هذه الظروف القاسية.

د - العقائد والأديان قبل دخول الإسلام

على الرغم من دخول العرب المسلمين أرض البجة مبكراً، أي في خلال القرن الأول الهجري، إلا أن البجة ظلت على وديعتها القديمة فترة من الزمن، امتدت آثارها إلى عهد ابن سعيد المغربي خلال القرن السابع الهجري، والذي ذكر بأن فيهم مسلمين ونصارى وأصحاب أوثنان^(٢). ويجب علينا إلا نخطئ الظن من قول ابن سعيد بأن من البجة نصارى، بأن المسيحية انتشرت بينهم حين انتشرت في الأقاليم المجاورة، من البلاد المصرية والنوبة والحبشة؛ لأن المسيحية حين أخذت بالظهور في الأقاليم المجاورة، عانت صداً شرساً من البليبيين الذين لم يعتنقوا المسيحية، وظلوا شوكة في ظهر الأباطورية الرومانية، وهم الذين كانوا يسيطرون على البجة ويحكمونهم، وبذلك عانت القيادة الدينية في مصر هجوماً عنيفاً ومتكرراً من البجة، مثل قذاً مزماً قوبل بالحروب والغزوات المتبادنة^(٣).

لكن مع مرور الزمن وتباين الأحوال، فقد تحول البليبيين إلى النصرانية بفضل عدد من القساوسة المصريين، بعدما قاموا بنشر المذهب الملكاني خلال تنصير مملكتي نوباتيا وعلوة النوبيتين، وذلك حين اضطر هؤلاء القساوسة - في رحلتهم من نوباتيا إلى علوة - أن يتجنبوا طريق مملكة مقرة، لعدم مكها لملك نوباتيا، فسلخوا طريق الصحراء الشرقية حيث يقطن البليبيون^(٤) وليس بعيد أن يكون هؤلاء القساوسة أن عمدوا بعض زعماء البليبيين أثناء مرورهم ببلادهم، وبذلك اعتنق البليبيون المسيحية^(٥). وربما كان تعيين أسقف لميناء عذاب في القرن السابع الميلادي، كان يقصد به - فضلاً عن رعاية المسيحيين الأجانب في هذا الميناء - الأشراف على الطقوس الدينية المسيحية عن البليبيين كذلك. (٦) ومنذ القرن السابع الميلادي ضعف نفوذ الطبقة الحاكمة من البليبيين، وتدهور نفوذها، وبذلك عاد إلى السكان الأصليين اسمهم القديم (البجة).

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٢٨.

(٢) ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض، ص ٥٠.

(3) Kirwan, Lp: studies in the later History of Nubia. Liverpool Annals of Archaeology and poplogy, vol, XXIV 1937, p 92.

(4) John of Ephesus: Ecclesiastical History. Book IV., part III, ed. by Payn smith, p 325.

(٥) مصطفى سعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٦٩.

(6) Trimmingham, J.s: Islam in the sudan, london, 1949. p. 49.

باستثناء المجموعة الشمالية في البليبيين الذين أطلق عليهم الإدريسي^(١) وابن الوردي^(٢) اسم (بليين)، ووصفهم بأنهم "نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية".

والواضح من قول الإدريسي وابن الوردي أن البليبيين ظلوا متمسكين بالانصرانية رغم زوال نفوذهم وعودة الاسم القديم إلى الإقليم، ويعني ذلك أيضاً بأن الغالبية العظمى من سكان الصحراء الشرقية الأصليين - البجة - ظلوا على وثنيهم وذلك لاقتصار لفظ نصارى على البليبيين دون البجة، وبذلك ظلوا يمارسون طقوسهم الوثنية حتى بعد ظهور الإسلام وانتشاره بنحو قرنين من الزمان.

ومن أبرز الأمثلة الدالة على أن قبائل البجة كانت تدين بالوثنية خلال القرن الثاني الهجري، ما ورد في القرن الثالث من قول اليعقوبي^(٣) والذي جاء فيه، أن نيس للبجة شريعة غير عبادة صنم كانوا يسمونه (ححاخو). ووضح في موضع آخر الطقوس المتبعة في عبادته بأنها تشبه المجوسية (عقيدة تقديس الكواكب والنار) والذنوبية (عقيدة تؤمن بأن للعالم إلهين أحدهما للخير وآخر للشر)^(٤).

والواضح من قول اليعقوبي أن البجة كانت تدين بعبادة الأصنام خلال القرن الثالث الهجري، ولكن لا يعني هذا القول بأن عبادات البجة كانت قاصرة على عبادة الأصنام فحسب؛ لأن ما ورد عن المقرئ^(٥) من قول - نقلاً عن ابن سليم - خلال القرن الرابع الهجري، يدل على أن للبجة عقائد أخرى غير عبادة الأصنام وهي عبادة الشيطان. وفي ذلك يقول ابن سليم: "إن البجة كافرة لعبادتها للشيطان وإفئدائها بكهنتهم، فكان لكل بطن منهم كاهن يقيم له خيمة من جلد يتعبد فيها، ويقولون: أن الشيطان بداخلها، فإذا أراد القوم استخبار الكاهن عن شيء، تعرى ودخل الخيمة، ثم يخرج إليهم وبه أثر جنون وصداع، ويقول: الشيطان يقرنكم السلام ويقول لكم: ابدعوا عن كذا، واغزوا بذا كذا فإنكم تظفرون وتغنمون كذا وكذا، وما تغنموه في الموضع الفلاني فهو لي". فيزعمون أنه يصدقهم القول، فإذا غنموا أخرجوا من الغنيمة ما ذكر الكاهن ودفعوه إليه. وإذا أراد القوم الرحيل حمل الكاهن هذه الخيمة على جمل منفرد تمارس هذه الطقوس أدما حلوا ورحلوا. ثم أضاف ابن سليم في نهاية قوله: "أن هناك من البجة من يتمسك بهذا المذهب مع إسلامه".

والملاحظ في القول السابق أن الإسلام أخذ ينتشر بين البجة، وبما أن ذلك القول منذ القرن الرابع الهجري فإنه يعد بداية التوقيات لاعتناق البجة للإسلام، وإن لم يكن انتشاره بين جميعهم. وأما ما انتشر بينهم فلم يكن له عظيم الأثر في نفوسهم وتغير عقائدهم، فقد ظل الإسلام منذ تلك التوقيات حتى زمن ابن جبير - أي في القرن السادس الهجري - يعتنق ولا يمارس، ويبدو ذلك واضحاً من وصفه عن بعض أولئك البجة حين يقول: "بأنهم فرقة أضل من الأنعام سبيلاً، وأقل عقولاً؛ لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها، إظهاراً للإسلام".

(١) نزهة المشتاق: ج ١، ص ٤٧.

(٢) خريدة العجائب: ص ٤٨.

(٣) البلدان: ص ٣٣٦.

(٤) تاريخه: ج ١، ص ١٩٢.

(٥) المواعظ والاعتبار: ج ١، ص ١٩٨.

وراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى ولا يحل^(١). وإذا كان هذا القول يعني حال بعض جماعات البجة التي اعتنق أفرادها الإسلام حتى عصر ابن جبير في القرن السادس الهجري، فإن أحوال جميع قبائل البجة تغيرت تماماً في القرنين الثامن والتاسع الهجريين. فاعتنق الجميع الإسلام، وتأثروا بالثقافة العربية، وإن بقيت فيهم بعض العادات والتقاليد القديمة التي لم يذخروا عنها حتى الوقت الحاضر، وهي ظاهرة يشاركون فيها كثير من الشعوب التي تدين بالإسلام أو المسيحية في أقطار أخرى^(٢).

وفي نهاية هذا القول نذكر أن البجة دانت جميعها بالإسلام وتبذت الثقافة العربية في القرنين الثامن والتاسع، وكان مرجعه اثنيال الهجرات العربية على نطاق واسع إلى السودان عبر أوطانهم، وذلك منذ القرن السابع الهجري. والذي نتج عنه - بعدما استقرت العناصر العربية بأوطانهم - أن جعلت من هذه البلاد مركزاً ثقافياً يربط الدين الإسلامي واللغة العربية في المنطقة، والتي نرى آثارها اليوم في القضاء على الوثنية بين البجة والمسيحية في بلاد النوبة.

هـ - لغة الإقليم:

يتكلم أكثر البجة اليوم اللغة العربية، غير أنها ليست لغتهم الأصلية، فبجانب العربية يتكلم البجة لغتهم الأصلية، وهي المسماة التبدائي أو (بداوي)، وهي أحد اللغات الحامية غير المكتوبة، وهي شقيقة للغة الفرعونية، ويتنميان الاثنان لأسرة واحدة هي أسرة اللغات الكوشية^(٣). وعلى الرغم من الحقيقة الثابتة حول التبدائية من كونها غير مكتوبة وجدنا أثناء بحثنا عن لغة البجة. أن ابن النديم ذكر في بداية كتابه المشهور (الفهرست) خلال حديثه عن عدد من اللغات المختلفة قال: "أخبرني من يحول في الأرض أن للبجة قلماً وكتابة ولكن لم تصل إلينا". والواضح من هذا القول أن ابن النديم^(٤) أخطأ في ذكر هذه المعلومة؛ لأن لغة البجة إلى الآن لم يكن لها صورة رمزية تكذب بها. وبما أن لغة البجة اعتمدت على الصيغة الصوتية للتواصل - يمكن لنا أن نستمد بعضاً من صورها لعدد من الاسماء من خلال قول المؤلفين العرب، فيذكر اليعقوبي^(٥): أن لبجة تسمى الله عز وجل (الزنجير) والشيطان (صحي حراقة). ويقول ابن حوقل^(٦): اسم الله عند لبجة (أننة). ويقدم الهمداني^(٧) عدد أكثر من هذه الصيغ الصوتية بقوله: "البجة تسمى الله (زبحير)، والزنجية (لمكوجلو)، والقبطية (أبنوذة)، والبربرية (مديكش).

وعلى الرغم من كون التبدائية لغة البجة الأصلية، فهذا لا يعني أنها اللغة الوحيدة بجانب العربية في الإقليم. فقد اتسع هذا الإقليم ليشمل لغة أخرى كانت أكثر استعمالاً في الجزء الجنوبي، وهي المسماة بلغة تجرة أو (الخاصة) وهي خليط من الحامية والتجرينية. والتجرينية هي لغة منشقة من لغة الجعر القديمة، وهي

(١) رحمة: ص ٤٢.

(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٣٥، ٣٦.

(٣) محمد عوض: الشعوب والسلالات الإفريقية ص ٢٥٠.

(٤) الفهرست: ج ١ ص ٢١.

(٥) تاريخه: ج ١ ص ١٩٢.

(٦) صورة الأرض: ص ٥٢.

(٧) البلدان: ص ٧٨.

تشبه الحميرية اليمانية القديمة، والآن هي من اللهجات السائدة في شمال أديوبا^(١)، ولعل الأرجح أن لغة (تجرة) قد امتدت إلى الشمال حتى جاوزت الحدود الحالية للسودان في عصر متقدم، وحذت محل اللغة الأصلية للسكان في أنحاء مختلفة. فالتشواهد كلها تدل على أن لغة تجرة دخيلة على البجة، لأن اشتقاقها من لغة الجعر، وهي لغة سامية نقلها المهاجرون من اليمن بعدما نزلوا الهضبة الحبشية، وتقدموا شمالاً حتى نزلوا الأودية التي تؤدي إلى السودان. فنشروا لغتهم في وادي بركة، حتى وصلت إلى إقليم طوكر وسواكن شمالاً.^(٢) وهكذا كان إقليم البجة بمثابة محطة، اتسعت لتستقبل عدداً متنوعاً من العناصر المختلفة، والذي نتج عنه نتائجه اليوم من تعدد اللغات فيه، ما بين حامية وسامية وما هي وليدة الإثنيين. وبهذا التعدد اللغوي نلاحظ كيف استطاع شعب البجة أن يدمج ويندمج في العناصر الأخرى المهاجرة إليه ليؤثر فيها ويتأثر بها. وصفوة القول أن البجة عريقون في القدم، في أوطانهم الحالية؛ ومن الجائز أنهم أول من سكن هذا الإقليم الذي يحتلونه اليوم، ممارسين فيه كل مظاهر الحياة الإنسانية بجوانبها المختلفة، منتجين بذلك طابعاً وخصائص مميزة جعلتهم ينفردون بها عن جيرانهم. وعلى الرغم من التشابه الملحوظ في صفاتهم، إلا أن أفراد أشكالهم الطبيعية لا يدع مجالاً للظن بأنهم قد دخلتهم عناصر أخرى - اللهم إلا القليل جداً - ربما الذي جاء عن طريق الاتصال التجاري في الأطراف الشمالية، أو عن طريق الاتصال بالحبشة في الأطراف الجنوبية. وقد مرت بهذا الإقليم وسكانه أدوار إنسانية نستطيع أن نسردها ونحللها على سبيل البحث للوقوف على نتائج حقيقية لاحقاً؛ وإن كانت تعوزنا بعض التفاصيل، لأن الدراسات الأثرية لم تتسع بعد لكي تشمل هذه الأقطار النائية المنعزلة.

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٢٨.

(٢) محمد عوض السودان الشمالي ص ١٣٥.

الفصل الثاني:

الحياة السياسية عند البجة:

أولاً: مظاهر السياسة الخارجية للبجة.

- أ- البجة في بداية الفتح الإسلامي (في الفترة من ١٩ - ٣١هـ / ٦٤٠ - ٦٥٢م).
- ب- البجة في عصر الولاة (في الفترة من ٢٠هـ - ٢٥٤هـ / ٦٥٢ - ٨٦٨م).
- ج- البجة من بداية عهد الدولة الطولونية إلى سقوط الدولة الفاطمية (في الفترة من ٢٥٤هـ - ٥٧٠هـ / ٨٦٨ - ١١٩٠م).

ثانياً: النظم الإدارية والسياسة الداخلية للبجة:

- أ- نظام الحكم والإدارة.
- ب- وراثية الحكم.
- ج- الخلافات والمنازعات الداخلية.

أولاً: مظاهر السياسة الخارجية للبجة.

أ- البجة في بداية الفتح الإسلامي (في الفترة من ١٩ - ٣١ هـ / ٦٤٠ - ٦٥٢ م).

خلال الفترة التي شهدت أحداث فتح مصر، وما تلاها من سنوات، لم يهتم العرب بإرسال حملات إلى بلاد البجة، لأنهم آمنوا بالحدود الجنوبية الشرقية مثلما فعلوا مع النوبة^(١)، وربما يرجع السبب في ذلك إلى عدم وجود صلة عداوية مبكرة مع العرب الفاتحين والبجة في السنوات الأولى التي تلت الفتح^(٢)، وتؤكد ذلك المصادر العربية التي ذكرت أحداث الفتح، فلم تشير أي منها إلى اشتراك البجة في أي عمل حربي ضد العرب، رغم طلب النجدة من البجة، ويؤكد ذلك القول الواقدي في كتابه في أكثر من موضع، فيذكر أنه: "لما حاصر عمرو بن العاص مدينة بديس، وكانت بها أرمانيوس ابنه المقوقس - الحاكم البيزنطي في مصر - فأشار ذو الرأي على المقوقس إرسال نجدة بيزنطية إلى بديس لإنقاذ ابنه، ثم يطلب مساعدة ملوك البجاوة (البجة) والنوبة والبربر لحرب العرب وطردهم من مصر"^(٣). ويذكر الواقدي في موضع آخر من كتابه أن أرسطوليس - ابن المقوقس وولي عهده - حذر العرب من الطمع في مصر وقال: "ما قصدنا أحد إلا ورجع بالخير وأن قد كاذبنا النوبة والبجاوة وكأنهم بكم قد وصلوا إلينا"^(٤) ويضيف الواقدي في موقع آخر من إحياء لروم في طلب النجدة والمساعدة من البجة إذ يقول: أن أرسطوليس فتح خزائن أبيه وأفق على الجند وأعطاهم السلاح وطلب شباب مصر، وأمرهم للخروج لملاقاة العرب، وبعث يستجد بملوك النوبة والبجاوة وأقام مدة ينتظر قدمهم^(٥) ويذكر في موضع آخر أن أرسطوليس استنصرهم رجاله لقتال العرب، وأخذ يطمئنهم عن قرب وصول النجدة من ملك النوبة وملك البجاوة، غير أن الأخبار وردت من الجنوب بوقوع الحرب بين ملك النوبة

(١) اتجهت سياسة المسلمين، منذ أن تم لهم فتح مصر، إلى بسط نفوذهم مما يلي على البلاد جنوباً، وبالأخص بلاد النوبة، للمحافظة على حدود مصر الجنوبية، وبالإضافة لضمان سير اتجاه بين مصر والسودان، بعد شن الغارات المتكررة على صعيد مصر، مما ترتب على ذلك أن جرد العرب الحملات نحو الأخرى إلى بلاد النوبة في بداية الفتح. فكلت الحملة الأولى: في بداية الفتح العربي لمصر وقال الطبري: في حوادث سنة ٢٠ هـ في كتابه (تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٠٥) أن المسلمين لما فتحوا مصر غزوا النوبة، ففكك المسلمون بالجرحات وهاب العدو من جوده الرمي فدمروا ما أهدق. ويذكر البلاغي في (فتوح البلدان ج ١، ص ٢٣٨) أن قلده هذه الحملة هو عقبة بن نافع الفهري وهو أخا للعاص من أمه. واختلف ابن عبد الحكم في كتابه (فتوح مصر وأخبارها ص ١٦٩، ١٧٠) عن البلاغي في ذكر القائد فذكر أن قائد هذه الحملة هو نافع بن عبد القيس الفهري، وهو أخ للعاص من أمه. واختلف المقريزي عنهم في كتابه (المواعظ والاعتبار ج ١، ص ١٩٩) أن قلده هذه الحملة هو عبد الله بن سعد بن أبي السرح. وثمنا بصدد مناقشة هذا الموضوع، ولكن الذي يمكن القول به من آراء الباحثين أن ما ذكره المقريزي هو تقريبا الحملة الثانية التي وجهها المسلمون إلى بلاد النوبة، ومن المهم ذكره هو أن هذه الحملة التي كادت بقيادة عبد الله بن سعد لم تكن أولى الحملات على بلاد النوبة. وكلت الحملة الثالثة بقيادة عبد الله بن سعد للمرة الثانية في سنة ٣١ هـ / ٦٥٢ م وكانت هذه الحملة تتكون من خمسة آلاف فارس، وهي التي أجبر فيها ملك النوبة على الاستسلام بعد أن ضربت دفتة بالمجنيق، واستسلم ملكهم قتيروث على الاستسلام وتم توقيع معاهدة البقط فيها بين المسلمين والنوبة وهذا كما ذكر (المقريزي) "المواعظ والاعتبار" ج ١ ص ١٩٩) و (ابن عبد الحكم "فتوح مصر" ص ١٨٨، ١٨٩)

(٢) محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى ص ٦١.

(٣) الواقدي: فتوح الشام ج ٢ ص ٢٧.

(٤) الواقدي: نفسه ص ٥٥.

(٥) الواقدي: نفسه ص ٥٨٠.

وملك البجاوة وأنهم ما يجيبهم منهم أحد^(١).

ويبدو لنا من قول الواقدي أن ثمة علاقة كانت قائمة بين الروم والبنجة أثناء الفتح العربي لمصر^(٢) ويؤكد ذلك ما أورده لنا المقريزي نقلاً عن ابن سليم الأسواني^(٣) على البنجة فيقول: "كانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحياناً لحاجتهم إلى المعدن، وكذلك الروم لما أن ملكوا مصر ونهزم في المعدن آثار مشهورة، وكانت أصحابهم بها وقد فتحت مصر".

ويضيف ابن حوقل^(٤) مؤكداً هذه العلاقة فيقول عن العرب لما دخلوا أرض البنجة: عاينوا التبر وآثار العمل فيه للروم. ورغم العلاقة التي كانت قائمة بينهم، والإلحاح الشديد من الروم في طلب النجدة والمساعدة من البنجة والنوبة للبيزنطيين ضد العرب وقت فتح مصر.

إلا أن ذكر اسم النوبة في عقد الصلح الذي عقد بين المقوقس وعمرو بن العاص وهو العقد المعروف باسم عين شمس، يدل على اشتراك النوبيين بصورة من الصور في القتال ضد العرب^(٥) وقد ورد في هذا الصلح: أن على النوبيين الذين يدخلون في الصلح مع المسلمين أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً، وعلى ألا يغزوا أو يمنعوا من تجارة صادرة أو واردة^(٦).

لما عدم الإشارة إلى البنجة في عقد الصلح هذا فهو يدل على أمران: أحدهما: أن البنجة لم يستجيبوا لنداء البيزنطيين وعدم اشتراكهم في أي عمل حربي ضد العرب أثناء فتح مصر^(٧). وثانيهما: أن البنجة اشتركت في عمل حربي ما، ولكن دون معرفة العرب بعنصرهم، إذ أنه يقال أن هناك وثائق وجدت في البهنسة ذكر بها أن جيش كبير كان من البنجة والنوبة بقيادة (ماكسوح) ملك البنجة و(غاليق) ملك النوبة شارك في القتال ضد العرب^(٨) ويضاف أيضاً أن هؤلاء الجنود كانوا من مملكة صغيرة للبنجة كانت قائمة في شرق العظيرة، وكانت تعرف باسم مملكة الشيوخ أو السويح، وكانت عاصمتها على نهر العظيرة، وقد ساعد جنود هذه المملكة ملك النوبة في التعزيزات العسكرية التي أرسلها ملك النوبة لمساندة جيش الروم الذي حاصرها العرب في البهنسة، غير أن هذه القوات قد هزمها العرب كما نكر، بالرغم من أنها كانت تضم حوالي خمسين ألف من الجنود ومعهم أكثر من ألف من الأقبال^(٩).

ولو اتفقنا على أن هذا القول يحمل الصواب، إلا أننا لا نختلف على أن العرب لم يعرفوا البنجة وقت ذلك، وقد ظنوا أن العنصر الوحيد الذي ساعد الروم ضد العرب وقت الفتح هم النوبة فقط؛ وذلك يرجع إلى ذكر

(١) الواقدي: نفسه ص ٦٠.

(٢) وذكر أن اتصال الرومان بالبنجة كان مقصوراً على الشماليين منهم الذين يعيشون في مصر، أو على حدود مصر في شمال السودان، وكان يطلقون على هؤلاء اسم البليما أو البليمين (محمد عوض: السودان الشمالي ص ٣).

(٣) المواقظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٥.

(٤) صورة الأرض: ص ٥٣.

(٥) مصطفى مسعد: البنجة والعرب ص ٢٢.

(٦) بكثر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٣٣ م، ص ٢٣٨.

(٧) كرم الصاوي بل: مصر والنوبة في عصر الفولا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٢٧١.

(٨) التشاطر بصيلى: تاريخ وحضارات السودان ص ١٥٧٠.

(٩) مصطفى مسعد: البنجة والعرب ص ٢٢٠.

اسم الذنوبة فى عقد الصلح دون البجة. أو ربما يرجع ذلك إلى عدم معرفة العرب بعنصر البجة، بالإضافة إلى التشابه بين عناصر البجة والذنوبة فى الأشكال والأجساد والألوان، لذلك جرد العرب لحملات تلو الأخرى إلى بلاد الذنوبة دون البجة فى بداية الفتح. وظل العرب غير عارفين بعناصر البجة حوالى عشر سنوات منذ فتح مصر والذى يؤكد ذلك قول ابن عبد الحكم^(١) أثناء حديثه عن عبدالله بن سعد بن السرح بعد انصرافه من غزو الذنوبة عام ٣١ هـ - ٦٥٢م وتوقيع معاهدة البقط، حينها شاهد العرب الفاتحين لأول مرة عناصر البجة، وهم قد تجمعوا له على شاطئ النيل، وسأل عنهم فأخبر بمكانهم، فهان عليه أمرهم، فذفض فتركهم. ويضيف المقرئى^(٢) فى رواية نقلها عن ابن سليم الأسوانى نقلا عن ابن عبد الحكم: عندما سأل عبدالله بن سعد عن شأنهم؛ فأخبر أن ليس لهم ملك يرجعون إليه.

ويمكن من خلال الروايتان نستنتج أن: العرب عندما سألوا عن البجة أخبروا إما بمكانهم. أو نظام حكمهم، وعندما عرفوا حقيقة أمرهم هان عليهم أمرهم بما عرفوه من حقائق - أي استخفوا بهم واحتقروهم - لذلك تركوهم ولم يفكروا حتى فى إرسال الحملات لهم بعد ذلك، طيلة السنوات التى تلت الفتح ولو أن ابن حوقل^(٣) جاء بقول مخالف لرواية ابن الحكم، ورواية المقرئى عنهم من عدم محاربة عبدالله بن سعد البجة فإنه يذكر: كانت البجة أمة

تعبد الأصنام بهذه الناحية وما استحسنوه، إلى سنة أحدى وثلاثين فإن عبدالله بن أبى سرح - لما فتح أسوان وكانت مدينة أزلية قديمة، وعبر إليها من الحجاز، وقهر من كان بالصعيد وكان بالصعيد من فراعنة البجة وغيرهم، وأسلم أكثر البجة لإسلام تكليف، وضبطوا بعض شرائط الإسلام، وظاهرنا بالشهادتين ودانوا ببعض الفرائض، وفيهم كرم وسماحة فى إطعام الطعام، فسامحهم فى الأخذ عليه.

ويتضح لنا من كلام ابن حوقل أن عبدالله بن سعد حارب البجة فى عام ٣١ هـ / ٦٥٢م، وعقد معهم صلح وشرط عليهم شروطه، ثم سامحهم فى بعض الشروط لما أظهروه من إحسان، وهذا القول لا نسلم بصحته، لأن هذه الأحداث التى تحدث عنها ابن حوقل ربما تكون أحداث صلح الذنوبة الذى عقد فى ذلك الوقت، فلم نعثر فى المصادر التى تحدثت عن غزو الذنوبة وعقد الصلح معهم على قول ذكره أحدهما عن محاربة عبدالله بن سعد، للبجة بعد غزو الذنوبة أمثال ابن عبد الحكم^(٤)، والبلذرى^(٥)، والمقرئى^(٦).

وإضافة إلى هذا القول نستنتج من كلام ابن حوقل أيضا أن البجة تحولت إلى الإسلام فى عام ٣١ هـ - من خلال قوله: "البجة كانت أمة تعبد الأصنام وما استحسنوه إلى سنة ٣١ هـ / ٦٥٢م" مضيفا قوله: "فأسلم أكثر البجة" وما كتبه المؤرخين عن هذه القبائل، فى نصف القرن الثالث الهجرى أمثال قول اليعقوبى^(٧)

(١) فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٩.

(٢) الموعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٥.

(٣) صورة الأرض ص ٥٠، ٥١.

(٤) فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٨.

(٥) فتوح البلدان ص ٢٣٨٠.

(٦) الموعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٩٠.

(٧) وذكر أن ليس لهم شريعة إنما كانوا يعبدون صنما يسمون ححا خواه (البلدان ص ٣٣٧).

يذكرون: بأنهم يعددون الأوثان فكيف يكونوا أسلموا في بداية الفتح، ثم عادوا إلى الوثنية بعد قرنان ونصف من إسلامهم.

وصفوة القول أن تاريخ قبائل البجة في العصر الإسلامي، يكتنفه الغموض، بسبب عدم اهتمام هذه القبائل البدوية بدوين تاريخها من ناحية، وعدم تعرض المؤرخين العرب لذكر تاريخها من ناحية أخرى. وقد يكون عدم اهتمام المؤرخين العرب بهذه القبائل راجع إلى قول ابن حوقل: " أنه لم يذكر بلدان السودان في المغرب والبة والزنج ومن في أغراضهم من الأمم، لأن انتظام الممالك بالديانات وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء مهمزون في هذه الخصال ولا حظ لهم في شيء من ذلك، فيستحقوا به أفراض ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك"^(١).

بالإضافة إلى ما استقر في نفوس العرب، في المرحلة الأولى من مراحل التوسع الإسلامي، من أن أرض البجة وأهلها أهل سلم، شأنها في ذلك شأن بلاد الحبشة المجاورة لبلادهم من ناحية الجنوب، لأن الحبشة أوت الطليعة الأولى من المسلمين الذين هاجروا إليها زمن نرسول صلى الله عليه وسلم^(٢) ويوضح لنا ذلك من قول ابن حوقل على ما ذكره على أهل الحبشة فيقول عنهم: "هم نصارى وتقرب ثوانهم من ألوان العرب، والجميع أهل سلم وليست دارهم بدار حرب"^(٣) ويضيف أيضا المقرئ^(٤) في رواية نقلها عن ابن سليم الأسواني يقول: "إنه قرأ في خطبة الأجناس لأمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه ذكر البجة، ويقول عنهم: شديد كأبهم قليل سلبهم". كل هذه الأسباب كانت نتيجة حتمية أدت في السنوات الأولى التي تلت الفتح إلى عدم وجود صلة عدائية مبكرة بين العرب الفاتحين والبجة.

ب- البجة في عصر الولاة (في الفترة من ٢٠هـ - ٢٥٤هـ / ٦٥٢ - ٨٦٨م).

مضت الفترة الأولى والتي شهدت على فتح مصر، ومحاولات العرب في توطيد أقدامهم في جواذبها. والتزمت المصادر الإسلامية الصمت عن ذكر الأحداث السياسية للبيعة ضد العرب في لفترة الأولى من عصر الولاة؛ وربما يرجع ذلك إلى عدم تركز القبائل العربية بصورة مباشرة في منطقة مصر العليا في هذه الفترة، فلم يكن هناك اتصال بين تلك القبائل وهذه المنطقة، إلا مرابطة الجنود في ثغر أسوان، ومن ثم لم يكن لمصر العليا دور في الأحداث السياسية التي حدثت في مصر بصفة عامة وقبائل البجة بصفة خاصة خلال الفترة الأولى لحكم العرب.

واستمر ولاية مصر تنعم بالهدوء من جانب البجة فترة من الزمن لم تتجاوز ثلاثة وسبعين عام، وذلك حين وجد هؤلاء القوم في أنفسهم الكفاءة الحربية، ما دفعهم إلى القيام بشن لغارات على صعيد مصر^(٥)، ذلك كانت

(١) صورة الأرض ص ٥٦.

(٢) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ٢٤.

(٣) صورة الأرض ص ٥٦.

(٤) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧.

(٥) كرم الصاوي بل: مصر والقوبة في عصر الولاة ص ٢٩٧.

علاقة البجة بولاية مصر الإسلامية بعد المدة المذكورة تتسم بالعداء، ذلك لأن البجة بطبيعتها لصحراوية الجافة كانت عنصرا من عناصر التمرد ضد مصر، فكثيرا ما كانت تغير على جنوب البلاد وتقوم بالتهب والإفساد، الأمر الذى أدى إلى أن يجرد إليهم ولاية مصر الحملات تردعهم^(١).

فأول غارة شنها البجة على حدود مصر الجنوبية عند أسوان فى عام ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م زمن خلافة هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٣ - ٧٤٣ م ومن المحتمل أن المسلمين صدوا تلك الغارة لدليل الاتفاقية التى عقدها معهم عبد الله بن الحبحاب السلولى^(٢) والتى ذكر فيها: أن له من البجة ثلاثمائة بكر (إبل صغيرة) فى كل عام، وحين ينزلون لريف مجتازين غير مقيمين، وألا يقتلوا مسلما ولا ذميا فإن قتلوه فلا عهد لهم، وألا يؤوا عبيد المسلمين، وأن يردوا آيديهم إذا وقعوا فى أيديهم، ويقال أنهم كانوا يأخذون بهذا، وبكل شاه أخذها البجاوى فعليه أربعة دنانير وللبقرة عشرة، وكان وكيلهم مقيما بالتريف رهينة بيد المسلمين^(٣).

ولم تذكر الدوافع التى كانت سببها هذه الغارة وربما كانت الهدف منها السلب والتهب، أو ربما يرجع سبب هذه الغارة إلى الاختلاف فى المعاملات التجارية بين البجة وأهالى أسوان لقربهم منهم ، وعلى أى حال فإن هذه الاتفاقية ضمنت للمسلمين تأمين حدودهم الجنوبية المطلقة على الحدود الشرقية، وفى الوقت نفسه تركت العلاقات التجارية حرة كما كانت من قبل^(٤).

وتقد استمرت هذه العلاقات والمعاملات بين البجة والعرب المسلمين بقرابة قرن حيث كانت تتردد بعض الجماعات البجاوية لقضاء كثير من المصالح التى تتطلبها قرب بيئة حضارية راقية زاخرة بالحياة والحيوية من بيئة أخرى بدوية فقيرة، فيذكر عن ذلك ابن حوقل^(٥) "أن المسلمين فى إقليم أسوان كانوا مستظهريين على من جاورهم من لثوبيين والبجة"، ورغم هذه العلاقات التى تظهر الصفاء فى المعاملة الحسنة، إلا أن البجة كان يتخلل فى نفوسهم العداء ضد العرب ويتضح لنا هذا فى رواية ابن حوقل^(٦) والتى جاء فيها: أن البجة كانوا يترددون على مدينة قفط^(٧) ليمتاروا البرة - القمح - والتمر، وإذا حصر رئيسهم (محا) إلى قفط لهذا الغرض، فإنه كان يكرم ويعظم.

وكان لأهل قفط رئيس منهم يعرف بإبراهيم القفطى، وفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م عزم هذا الزعيم القفطى على أن يحج إلى بيت الله الحرام فى جماعة من أهل قفط عن طريق وادى العلاقى وعذاب. فوصلوا إلى بلدة

(١) عطية القوصى: دولة التتوز الإسلامية ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) عبدالله بن الحبحاب السلولي: هو عامل الخراج فى مصر فى ذلك الوقت من قبل هشام بن عبد الملك، وكان من موالي قبيلة سلول القيسية (المقرئى: البيان والإعراب ص ٢٢).

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٩ .

(٤) ممدوح الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى ص ٦٢ .

(٥) صورة الأرض: ص ٥١ .

(٦) صورة الأرض ص ٥١ ، ٥٢ .

(٧) قفط: من مدن الصعيد، ويرجع اسمها إلى قفط بن مصر بن بصر، وهى ليست على ضفة النيل بل بينها وبين النيل نحو ميل، وبينها وبين قوص نحو فرسخ، ومعيشة أهلها التجارة والسفر إلى الهند وتشتهر بأسواق وأصحاب الثروات وحوثها لزراع والبساتين الكثيرة . (ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٨٣).

عينونه، قرب جزائر بنى حدان، وتطرقوا بمحا البجوى وجماعته الذين صحبوهم فى الصحراء ليدلوهم على الطريق إلى عيذاب، لخبرتهم بطرقها ومسالكها، غير أن البجة اجتمعوا إلى رئيسهم محا وقالوا له: "لابد من قتل هذا المسلم لمعرفة بديارنا ومقارنا ومظان مياهنا، ولسنا نأمنه". فلم يوافقهم محا على ما طلبوه، ولكنهم غلبوه على رأيه، واتفقوا على إتهام إبراهيم القفطى وجماعته، فمات الجميع عطشا، ماعدا طفل صغير لإبراهيم القفطى، رقى له بعض البجة، واحتال على إتياده وأوصله إلى ناحية اتقوا^(١) من الصعيد فأوصلوه أهلها إلى قفط. ثم أخبر هذا الطفل أهل مدينة قفط لما حدث إلى أبيه وصديه، فكتبوا غيظهم، ولم يبدوه، وعزموا على الأخذ بالثأر من البجة.

ثم جاء محا على عادته إلى مدينة قفط وكان معه هذه المرة نحو ثلاثين رجلا من وجوه قومه، فأنزلهم أهل قفط فى معبد للبجة، ثم قتلوهم جميعا. ولما علم البجة بما حل لرئيسهم محا وجماعته، هاجموا مدينة قفط، واحتلوها، وأسروا من أهلها نحو سبعمائة نسمة، وقتلوا منهم عددا كبيرا، ومن نجا من أهل قفط فر ناحية الغرب، وكان يعيش بمدينة قفط وقت ذلك (حسنى)^(٢) له محل فقصد البجة فرد عليهم بعض السبى، أما أهل قفط فإنهم ذهبوا إلى (الفسطاط)، لرفع شكواهم من البجة إلى والى مصر^(٣) وإرسال حملة لتأديبهم. غير أن والى لم يستجيب لندائهم لأنه كان ببعض شأنه مشغولا. فاتجه أهل قفط إلى الحوف الشرقى - محافظة الشرقية الآن وكانت مركز تجمع القبائل العربية آنذاك - للاستجداد برجل من قبيلة قيس عيلان يدعى (حكم النابغى)، وكان ذا يسار وخير وجهان. وشكا أهل قفط إلى حكم ما حل بهم، وطلبوا إليه أن يكفهم شر أولئك البجة، واستطاع أهل قفط أن يحصلوا على فتوى قاضى البلد وشيوخها، لتقضى بشريعة الحرب ضد أولئك البجة، وسار معهم فى سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م فى ألف رجل بين فارس وراجل حتى ورد قفط، ثم غزا البجة وظل يحاربهم حتى استرجع السبية بعد أن أقام فى بلدهم ثلاثة سنين، وكان مقره بالمكان المعروف بماء حكم^(٤) وهو على مرحلة من عذاب وعلى أربع مراحل من العلاقى، حتى استرجع جميع ما سباه البجة، ثم قفل حكم معاودا إلى أسوان ومنها انحدر إلى بلدة طود قرب قوص، فملكها ومات بها.

ومن الملحوظ هنا أنه بالرغم من انتصار حكم النابغى على البجة، إلا أنه لم يقم بعد معاهدة يلتزم بها لبجة من عدم التعرض للمسلمين، تضمن لهم عدم شن الغارات عليهم من البجة، ولكنه اكتفى بأن يقيم فى بلدهم حتى لا يعاود البجة هجومهم ويسترد باقى ما سباه البجة من المسلمين. وربما يرجع ذلك إلى أن حكم النابغى ليس من ولاية الأمور فى الدولة، ولكن ما هو إلا رجل ذو خير وجهاد.

(١) اتقوا: هى مدينة إدفو الحالية، حيث تم تغيير حرف التاء إلى حرف الال، وهى مركز من مراكز محافظة أسوان (الشاطر بصيلى: تاريخ وحضارة السودان ص ١٥٢).

(٢) الحسنى: هو أحد العلويين فى ذلك الوقت وكان يتمتع باحترام البجة وتقديرهم له (مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ١٨٢).

(٣) الوالى فى هذا الوقت هو الشري بن الحكم فى الفترة من ٢٠١ - ٢٠٥هـ / ٨١٧ - ٨٢٠م وكانت هذه الفترة هى فترة إلولية الثانية من قبل الأمون بعدما ثار عليه الجند فى وليته الوثقى وعزل، والى ذلك فى الفترة من ١٩٩ - ٢٠٠هـ / ٨١٥ - ٨١٦م. (بن تغري بردي: التجوم الزاهرة، ج ١ ص ٢٧١).

(٤) ماء حكم: هو المكان الذى اتخذ حكم النابغى مركزا لعملياته الحربية ضد البجة ولا يزال يعرف باسمه هذا إلى زمن ابن حوقل. (مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ٢٩).

غير أنه لم يكد تمضى سنة على إنهاء حرب حكم النابغى على البجة، حتى عادت إلى شن الغارات من جديد على جهة أسوان، وكثر إيدائهم للمسلمين، فرفع ولاية الأمور فى أسوان خبرهم إلى الخليفة المأمون سنة ٢١٦هـ / ٨٤١م، فجرد إليهم حملة بقيادة (عبدالله بن الجهم) وكانت له معهم وقائع، انتهت بموادعتهم وعقد صلح جديد بينه وبين ملكهم (كنون بن عبد العزيز)، كانت شروطه: (١)

- أن يكون سهل بلاد البجة وجبلها من مذهبى حد أسوان من أرض مصر، إلى حد ما بين دهلك (ماسوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا للأمير المؤمنين.

- أن يكون كذون وأهل بلده من البجة عبيدا للأمير المؤمنين، على أن يبقى كنون ملكا عليهم.

- أن يؤدى ملك البجة الخراج فى كل عام، على ما كان عليه سلف البجة، وذلك مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار لبيت المال.

- ألا يذكر أحد من البجة محمد صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغى أن تذكره.

- إن قتل البجة أحد من المسلمين حرا أو عبدا، برأت منه ذمة المسلمين وحل دمه.

- إن عاون أحد من البجة المحاربين على الإسلام، بمال أو دله على عورة من عورات المسلمين، أو أسر لعزتهم، فقد نقض ذمة عهده وحل دمه.

- إن قتل أحد من البجة مسلما، عمدا أو سهوا أو خطأ، حرا أو عبدا، أو واحد من أهل ذمة المسلمين، فى بلاد البجة أو بلاد الإسلام أو بلاد الذوبة، أو فى أى شىء من البلدان برا أو بحرا، فعليه فى قتل المسلم عشر ديات، والعبد المسلم عشر قيم، وفى قتل الذمى عشر ديات من دياتهم.

- أن فى كل مال أصابه البجة للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه.

- إذا دخل أحد من المسلمين بلاد البجة، تاجرا أو مقيما أو مجتازا أو حاجا فهو آمن حتى يخرج.

- على البجة ألا يؤوا أبقى المسلمين، وأن يردوهم إذا وقعوا فى أيديهم.

- على البجة أن ترد أموال المسلمين إذا صارت بلا مؤنة فى بلادهم.

- على البجة إذا نزلوا ريف صعيد مصر تجارا أو مجتازين، لا يظهرون سلاحا، ولا يدخلون القرى أو المدن.

- على البجة ألا يمنعوا المسلمين وأهل ذمتهم من الدخول فى بلادهم للتجارة فيها برا وبحرا، ولا يقطعوا عليهم الطريق، ولا يخفوا السبيل، ولا يسرقوهم.

- على البجة ألا يهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمين بصنجة (٢) وهجر (٣).

(١) المقرئى: ج ١ ص ١٩٥.

(٢) صنجة: وهى سنجة وهى سنكات الحائبة التى تقع حاليا على خط السكة الحديد بين بور سودان ونهر العظيرة، وكانت فيما مضى محطة لها أهميتها على مفرق طرق القوافل، تقع هذه البلدة فى قلب القطر الذى شرط الأمير متعبه للخليفة، بمقتضى عقد الأمان. ويحتمل أن يكون هذا صحيحا، وهناك من خالف ذلك وذكر أن هذا الاسم (صنجة) هى ميناء على البحر الأحمر بالقرب من ميناء عذاب - ويبدو أن هذا الاسم قد استعمل لأكثر من مكان حيث ذكر أيضا أنه استعمل فى منطقة كسلا، وعلى حوض وادى النيل الأزرق، وتغير حرف الصاء وصارت حرف سين (الشاطر بصيلى: تاريخ وحضارات السودان ص ١٥٨).

(٣) هجر: وهى الواقعة فى إقليم نتم، على رافد (نكارى) نهر سلتيت، الذى يلتقى بالنيل ونعرف الآن ببثدة أم حجر، أو أم هجر، حيث اكتسبت هذه البلدة موقعا مهما ومرقرا تجاريا للقوافل فى بلاد البجة، و تميز موقعها الأقيمي بقيامه على المدخل بين حوض النيل والنوبيا-

- أن يقيم كنون بن عبد العزيز بريف مصر، وكيلا يفي للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج، ورد ما أصابه البجة للمسلمين من دم ومال.

- على البجة ألا يعترضوا حد القصر^(١) إلى قرية يقال لها قبان من بلد الذوبة حد الأعمدة.

- على كنون أن يدخل صال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم منهم.

وجاء في نهاية هذا العقد أن على كنون الوفاء بما شرط عليه وإن أخل أحد بهذه الشروط نقض هذا العهد وذكر أن ترجم جميع ما في هذا العقد من شروط حرفا حرفا زكريا ابن صالح المخزومي من سكان جدة، وعبدالله بن إسماعيل القرشي.

ومن الملحوظ هنا في هذا العقد أن الحد الجنوبي الذي ورد فيه لا يمثل الواقع، لأن ميناء باضع تقع جنوب سواكن، ودهلك مجموعة من الجزائر في البحر الأحمر أمام ميناء مصوع^(٢)، كما يتضح لنا أيضا من نص هذا العقد أن بلاد البجة، لأول مرة أصبحت جزءا من الدولة الإسلامية، بدليل فرض الخراج عليها. كما أنه ورد نص أيضا يلزم البجة بعدم التعرض للمسلمين، الذين يجتازون بلادهم للحج والتجارة أو الإقامة بأذى فضلا عن حفظ المساجد القائمة فعلا ببلاد البجة، وجمع صدقات من أسلم من البجة، وفي ذلك دليل على أن الإسلام أخذ ينتشر في تلك الأقاليم وأن بعض المسلمين يقومون بها كذلك^(٣) ومما لا شك فيه أن هذه الجماعات العربية المسلمة تركت لهم نوع من التأثير في من اختلطت بهم من البجة، بل إن بعضهم تعلم اللغة البداوية (لغة البجة) ليسهل عليه التعامل مع البجة، والتأثير فيهم، والدليل على ذلك أن زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة، وعبدالله بن إسماعيل القرشي، قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة البداوية^(٤).

وعلى الرغم من توقيع المعاهدة بين البجة وعبدالله بن الجهم، ما لبثت البجة خمسة عشر عام حتى عاودوا شن الغارات من جديد على مدن الصعيد فتوجه إليهم ابن الجهم للمرة الثانية في عام ٢٣٢ هـ - / ٨٤٧ م، زمن خلافة المتوكل ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٧٤ - ٨٦١ م لردهم على إيذاء المسلمين، حيث أن البجة هجمت على مدينة أنبو^(٥) مدينة من الصعيد كان بينها وبين أسوان مرحلة، وكان عبدالله بن الجهم يتولى أسوان، وعينونا، والخوراء، وكانت أنبو مضافة إليه، فركب من عينونا والخوراء في جلاب (سفن صغيرة) فارسي بأقصى جزيرة مصر بمعسكره فغزا البجة وقتلهم قتلا شديدا وسباهم، واسترد ما سباه البجة من أنبو وعاد إلى أسوان وعبر إلى عينونا^(٦).

- وهذا الأمر الذي جعل القوفل تتخذه منفذا لها بين تلك البلاد، وساحل البحر الإرتري في مختلف مواليه من مصوع وباضع وسواكن وغيرها (التشاطر بصيلى: معالم تاريخ السودان وادى النيل، ط القاهرة، ١٩٥٥، ص ٢٣-٢٤).

(١) القصر : هي أول بلد الذوبة وبينها وبين أسوان خمسة أميال من الجنوب، وبينها وبين آخر حصن المسلمين جزيرة بلاق ميلا واحدا. (المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٨٩).

(٢) التشاطر البصليلى: تاريخ وحضارات السودان ص ١٤٥ .

(٣) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ٢٦٠.

(٤) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ٢٩٠.

(٥) أنبو: وهي مدينة كوم ابو الحافية، وهي من مراكز محافظة أسوان، وتغير حرف القون وصار حرف ميم، وأضيف إليها تفظ كوم (التشاطر بصيلى: تاريخ وحضارات السودان ص ١٥٣).

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

ويبدو لنا من هجوم البجة على مدن الصعيد، ونقض البجة للمعاهدات من وقت إلى آخر، وإن دل هذا فبدل على أن البجة بطبيعتها الصحراوية الجافة كانت عدوساً من عناصر التمرد لذلك كثيراً ما كانت تقوم بالذهاب والإفساد على جنوب البلاد، بالإضافة إلى بيوتها لقاحلة التي لم تكن تلبى لهم وسائل الإعاشة.

وكيفما كان الأمر، حتى عاودت البجة الإغارة على الصعيد في زمن خلافة المتوكل، في عهد ولاية عنبسة بن إسحاق الضبي^(١) حيث أنفذ إليهم المتوكل حملة بقيادة (محمد بن عبدالله القمي)^(٢) في عام ٢٤١هـ/٨٥٤م ويذكر السبب في هذه الحملة: أن في عام ٢٣٨هـ/٨٥٢م وقعت شحنة بين بجاي ورجل عربي في أرض المعدن فسب البجاي النبي صلى الله عليه وسلم^(٣) ومن هنا بدا الخلاف بين العرب والبجة في أرض المعدن - وادي العلاقي، فتعرضوا للمسلمين الذين يعملون بأرضهم، وقتلوا عدة ممن كان يعمل بأرض المعدن، ويستخرج الذهب والجوهر، وسبوا عدة من أبنائهم ونسائهم فانصرفوا عن أرض المعدن خوفاً على أنفسهم وأولادهم^(٤) كما تعرضوا لمن يعمل في معادن الزمرد من العمال والفعلة والحفارين، فاجتاحوا الجميع^(٥) واستنعموا من أداء ما كان يؤدونه من معادن الذهب التي بأرضهم^(٦) فانقطع بذلك ما كان يأخذه المتوكل بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر الذي يستخرج مكان المعدن^(٧) وكان يقدر بأربعمائة مثقال تبر قبل أن يطبخ أو يصفى كل سنة^(٨) بالإضافة إلى ما كان يؤديه البجة للمسلمين كل سنة من خمسمائة نفر من العبيد والجواري، مع غير ذلك من الذجب البجاوية، وزرافتين، وفيلين، وأشياء أخرى^(٩).

وبعد ذلك قامت البجة بالإغارة على أرض الصعيد^(١٠) وبلغ بهم الأمر في عام ٢٤١هـ/٨٥٤م حتى اتصلت غاراتهم بأعالي الصعيد، ونهبوا بعض القرى المتطرفة مثل:

(١) عنبسة بن إسحاق الضبي: هو عنبسة بن إسحاق بن شمر بن عيسى بن عنبسة الأمير أبو حاتم وكيل: أبو جابر، وهو من أهل قرية (وهي مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان) وولى مصر من قبل المنتصر محمد بن الخليفة المتوكل على الله جعفر في سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م وهو آخر من ولى مصر من العرب وعزل عنها سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م فتذت ولينته على مصر أربعة سنين وأربعة شهور، ثم خرج من مصر وتوجه إلى العراق وكان هذا في عام ٢٤٤هـ/٨٥٨م (ابن تغري بردي: الجوامع الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٢٩٥).

(١) القمي: هو أبي أحمد محمد بن عبدالله القمي، وهو قائد شرطة وإلى مصر (عنبسة الضبي) في ذلك الوقت، وسمى بالقمي نسبة إلى (قَم) بده بين ساوة وأصبيهان (ابن تغري بردي: الجوامع الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٢٩٤) وقيل: أنه من ولد أبي موسى الأشعري، وكان مطالباً بدم لا ولى له (ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣).

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٠.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ حوادث ٢٤١هـ ص ٢٠٤.

(٤) ابن تغري بردي: الجوامع الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٥.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٠.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٧ حوادث ٢٤١ ص ٧٧.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٣٠.

(٨) ابن تغري بردي: الجوامع الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٥.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٠٠.

إسنا^(١)، واتفوا، وظواهرهما، ففر أهل الصعيد عن أوطانهم خوفا منهم^(٢).

فكذب صاحب البريد بمصر^(٣) ما فعلته البجة، فشاور المتوكل في أمرهم، فذكر له أنهم أصحاب إبل وماشية، وأن الوصول إلى بلادهم صعب، لأنها مغاور، وبينها وبين بلاد الإسلام مسيرة شهر^(٤) في أرض قفر وجبال وعرة وأن من يدخلها من الجيوش يحتاج إلى أن يذود لمدة شهر حتى يخرج منهم، فإن جاوز تلك لمدة هلك، وأخذتهم البجة باليد، وإن أرضهم لا ترد على السلطان بشيئا^(٥) كما أخبر أيضا أن هؤلاء الطائفة متى طرقتهم طارق من جهة البلاد الإسلامية، طلبوا النجدة ممن يجاورهم من طريق النوبة، وكذلك النوبة طلبوا النجدة من ملوك الحبش، وهي ممالك متصلة بشاطئ نهر النيل حتى تنتهي بمن قصد السير إلى بلاد الزنج، وانتهى إلى جبل القمر الذي يذيع منه النيل وهي آخر العمران من كرة الأرض^(٦).

فلما وقف المتوكل على ما ذكره أرباب الخبرة لأحوال تلك البلاد، فترت عزمته عما كان قد عزم إليه من تجهيز العساكر، فأمسك المتوكل عن التوجيه إليهم بحملة إليهم، وجعل أمره يتزايد وجرأتهم على المسلمين تشدد، حتى خاف أهل الصعيد على أنفسهم وأولادهم منهم^(٧).

وبلغ ذلك محمد بن عبد الله القمي وذهب إلى (الفتح بن خاقان) وزير المتوكل، وذكر له ما فعلته البجة، وأنه متى رسم له المتوكل إلى عمال مصر بتجهيزه، عبر إلى بلاد البجة وتعدى منها إلى أرض النوبة وغزا سائر تلك الممالك، فلما عرض لفتح حديثه على المتوكل، أمر المتوكل بتجهيزه وسائر ما يحتاج إليه، وكذب إلى عنبسة بن إسحاق، أن يمدّه بالخيول والرجال والجمال وما يحتاج إليه من الأسلحة والأموال، وأن يوليّه الصعيد الأعلى ليتصرف فيه كيف ما شاء، وسار القمي حتى وصل إلى مصر، وعندما وصل قسام له عنبسة بتجهيز سائر ما اقترحه عليه، وأنزل له عدة ولايات من أعمال الصعيد^(٨) فولاه فقط والأقصر^(٩).

(١) إسنا: بالكسر ثم الشكون، ونون، وألف مكسورة: مدينة بأقصى الصعيد، وليس ورثها إلا إدفو وأسوان ثم بلاد النوبة، وهي على شاطئ النيل من الجانب الغربي في الإقليم الثاني، وهي مدينة عامرة طيبة كثيرة الخيل والبساتين والتجارة (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ١٨٩).

(٢) ابن تغري بردي: الهجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٦.

(٣) كان يلى بريد مصر في ذلك الوقت، رجل من خدم المتوكل يقال له: يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي مولى الهادي وهو المعروف (بقوصرة) وجعل إليه بريد مصر والسكندرية وبرقة ونواحي المغرب (الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٣).

(٤) ابن تغري بردي: الهجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٦.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٠.

(٦) ابن تغري بردي: الهجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٦.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٤.

(٨) ابن تغري بردي: الهجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٧.

(٩) فترات الأقصر بالانقصار في بعض الروايات (ابن تغري بردي: الهجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٧).

- الأقصر: كُتبه جمع قصر، جمع قلعة، اسم مدينة على الشاطئ الشرقي للنيل، بالصعيد الأعلى فوق قوص، وهي أرض قديمة ذات قصور، لذلك سميت الأقصر وكان يضام إليها كورة (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٢٣٧).

- أما انقصور: موضع قرب عذاب، بينه وبين قوص خمسة أميال، وبين عذاب ثمينة أميال، وفيه مرأى سفن اليمن. (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤ ص ٣٦٧).

وإسنا وأرمينت^(١) وأسوان^(٢) كما سأل القمى أن يختار من الرجال من أحب، ولم يرغب فى الكثير لصعوبة المسالك^(٣) وجهاز بما طلب من الرجال والسلاح^(٤) فلما فرغ من استخدام الرجال وبذل الأموال، حمل ما قدر عليه من الأزواج والأثقال.

وبعد أن جهز من ساحل السويس سبع مراكب موقرة بجميع ما تحتاج إليه عساكره^(٥) من الدقيق والزيت والتمر والسويق والشعير، وأمر أصحابه أن يوافوه بها فى ساحل البحر مما يلى بلاد البجة^(٦) بعد أن عينت لهم الأدلاء مكان من ساحل البحر الأحمر نحو عذاب، يكون اجتماعهم فيه بعد مدة معلومة^(٧) فخرج إليهم من مصر فى عدة قليلة من الرجال المنتخبة، وسارت المراكب^(٨) وكان عددهم فى البداية ألف رجل ما بين فارس وراجل، كما كان معه خزانة بعشرة آلاف دينار وسار بهم إلى أسوان ثم أتى للعلاقى، وأخذ منها رجال من قبيلة ربيعة ومضر واليمن، وكان عددهم ثلاثة آلاف رجل من كل بطن ألف رجل^(٩) كما انضم إليه أيضا جميع ما كان يعمل فى المعدن فأصبح معه قوم كثير من المتطوعة^(١٠) حتى بلغت عدته نحو سبعة آلاف مقاتل^(١١) ما بين وفارس وراجل^(١٢) وسار بهم حتى تعدى حقائق الزمرد، وأوغل بهم فى بلاد البجة حتى قارب مدينة دنقلة وشاع خبر قدومه إلى أقصى بلاد السودان^(١٣) فذهض ملكهم وكان يقال له (على بابا) فى جيش كبير، أضعاف من مع القمى، وهم على إبل فرهة تشبه المهارى^(١٤) وبلغ عددهم مائتى ألف مقاتل، منهم ثمانون ألف يركبون الذئب^(١٥) كما يحاربون بغير ثياب، وأكثر سلاحهم الحراب والمزاريق - الرماح القصيرة - كما أن نجوبهم غاية من الزغاوة (الشراسة) والنفور^(١٦).

(١) أرادت: بالفتح، واسكون، وفتح الميم، وتاء: كورة بصعيد مصر بينها وبين قوص فى سمت الجنوب مرحلتان، ومنها إلى مدينة أسوان مرحلتان (ياقوت الحموي: معجم البلدان: ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩).

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٠.

(٣) المقرئى: الأمواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٦.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(٥) ابن تغري بردي: التجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٧.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٠.

(٧) ابن تغري بردي: التجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٧.

(٨) المقرئى: الأمواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٦.

(٩) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(١٠) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٥.

(١١) تقول بعض الروايات أن الجيش كان مكونا من عشرين ألف مقاتل (ابن خلدون: المعبر ط بولاق ١٢٨٤ هـ - ج ٣ ص ٢٢٧) و(البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٣٩) و(الطبرى ج ٩ ص ٢٠٥) و(ابن الأثير: الكامل ج ٧ ص ٧٨). ويقول البعض: أن الجيش كان مكون من سبعة آلاف (ابن تغري بردي: التجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٧)، ويبدو أن هذا الرقم الصغير أقرب إلى الحساب بسبب المصاعب التى كانت على الجيش أن يقابلها خلال اختراقه الصحراء، وكانت حاجته ماسة إلى الماء.

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٠.

(١٣) ابن تغري بردي: التجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٧.

(١٤) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤١.

(١٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(١٦) ابن تغري بردي: التجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٨.

فلما التقى الجمعان وعان ذلك المسلمين هال لهم وعظم عليهم، فقال لهم القمى: مائنا من محيص، فقاتلوا عن دمائكم، وأحسابكم، فإنكم حاصلون^(١) فتقاتلوا أياماً ولم يصدقوهم القتال^(٢) وأخذ البجة يناوشوهم ويدطاردهم حتى تطول الأيام طمعا في نفاذ الزاد والعنوفة التى معهم، ولا يكون لهم قوة، ويموتون هزلاً فيأخذهم البجة بالأردى، فلما توهن عظيم البجة أن الأزواد قد نفذت، أقبلت السبع مراكب التى حملها القمى، حتى خرجت إلى ساحل من سواحل البحر الأحمر فى موضع يعرف بصنجة فوجه القمى إلى هناك جماعة من أصحابه يحمون المراكب من البجة، وفرق ما فيها على أصحابه، فانسعوا فى الزاد والعنوفة^(٣). فقويت قلوب العساكر الإسلامية بذلك، فعندما تيقنت البجة أن المدد لا ينقطع عنهم من جهة الساحل، فهموا على محاربتهم. ودنوا إليهم فى أمم لا تحصى^(٤) وصادقوهم القتال، وكانت إبلهم ذعرة، تدفر من كل شىء، فلما رأى ذلك القمى، جمع كل الجرس الذى فى عسكره وجعلها فى أعناق خيله^(٥) وأمر أصحابه. بتحريك الطبول، وذفير الأبواق ساعة الحملة^(٦) وهم على بابا بالهجوم على المسلمين، ولكن حال بينه وبين ما أراد الليل، فرمى القمى حسك الحديد - سورا - على عسكره. وأنشأ القمى كتاباً فى طوامير كتاب بالذهب، وجعلها بخط جليل، ووضعها على أسنة الرماح، ونادى عند طلوع الشمس: هذا كتاب أمير المؤمنين إليكم يا معشر البجة، وهم صافون، ولما رأت البجة ذلك لم تنطرق، وتحللت من المصاف وقصدته والتفت البجة بالطوامير^(٧) فعند ذلك أمر أصحابه بالتكبير. ثم حمل بعساكره على البجة حملة رجل واحد، وحركت نقاراته وخفقت طبوله، وعلا حس تلك الأجراس، حتى خيل للبجة أن السماء قد انطبقت على الأرض. فرجعت جمال البجة عن ذلك جافلة على أعقابها، وقد تساقط عن ظهورها أكثر ركايبها، واقتحم عساكر الإسلام البجة فقتلوا ما ظفروا به منهم، حتى كلت أيديهم، ولم تلتك تلك الشعب بالقتلى، حتى حال بينهم الليل^(٨) وكان ذلك فى أول سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م ثم رجع إلى معسكره ولم يقدر على إحصاء القتلى لكثرتهم، فلما أصبح القمى وجددهم قد جمعوا جمعا من الرجالة. ثم صاروا إلى موضع أمذوا فيه من القمى، فتوجه إليهم القمى فى الليل، فوجددهم قد هربوا وهرب ملكهم، فأخذ تاجه ومناعه^(٩) وبعد ذلك طلب على بابا الأمان من القمى. فأمنه على أن يؤدى ما عليه، فحمل إليه الخراج للمدة التى منعها وهى أربع سنين^(١٠) لكل سنة أربعمائة مثقال^(١١) ثم وطأ على بابا بساط القمى فخلع عليه خلعة من ملابسه، وعلى ولده، وعلى جماعة من أكابر أصحابه، ثم شرط عليه أن يتوجه معه إلى بين

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٤١.

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٥.

(٤) ابن تغرى بردى: التجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٨.

(٥) ابن الأثير: الشامل ج ٧ ص ٧٨.

(٦) ابن تغرى بردى: التجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٨.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣، ٥٤.

(٨) ابن تغرى بردى: التجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٨.

(٩) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٦.

(١٠) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٤١.

(١١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٦.

يدى الخليفة المتوكل على الله، ليظاً بساطه. فامتثل على بابا لذلك^(١) واستخلف ابنه على مملكته^(٢) وأخذ القمى على بابا أسيراً، بعد أن كان على ربوة، وحذف ألا يزول أو تنقلع الربوة، فلما أسره القمى عاد به وبمن معه من الغزيمة إلى أسوان، فباع ذلك فكان مبلغة خمسين ألف وقيّة تبراً^(٣) ثم ذهب القمى بعسكره وبصحبه على بابا حتى وصل إلى مصر. فأكرمه عنبسة وبعد ذلك انصرف القمى على بابا إلى المتوكل، فوصل إليه في آخر السنة، فكسا على بابا ذراعه دباج، وعمامة سوداء، وكسا جمته رحلا مدبجا وجلال دباج، ووقف بباب العامة مع قوم من البجة نحو من سبعين غلاما على الإبل بالرحال، ومعهم الحراب في رؤوسها رؤوس البجة الذى قتلهم القمى^(٤) فلما دخل على المتوكل خلع عليه المتوكل وعلى أصحابه الدباج^(٥) وأمره الحاجب بتقيد الأرض فامتنع، فعزم المتوكل أن يأمر بقتله، وخاطبه على لسان الترجمان: أنه بلغنى أن معك صنما^(٦) معمولا من حجر أسود، تسجد له في كل يوم مرتين، فكيف تأبى عن تقيد الأرض بين يدى، وبعض غلمانى قد قدر عليك وعفا عنك: فلما سمع على بابا كلامه قبل الأرض ثلاث مرات، فعفا عنه المتوكل وأفاض عليه الخلع وأعادته إلى بلاده^(٧) بعد أن شرط عليه دفع الجزية وهى سبعة دنانير في كل يوم وهى قيمة ثمنه بعد أن عرض بالمناداة بالمزاد هو ومالك لأنوبة، فبلغ ملك النوبة تسع دنانير وعلى بابا سبع، فأجرى لكل واحد منهما في كل يوم مثل ثمنه مقابل إقامته فى بده ورؤيسا على قومه^(٨) وشرط عليه أداء الإتاوة واليقط، واشترط عليه أن

(١) ابن تغري بردى: الجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٨.

(٢) ذكرت بعض الروايات اسم ابنه بأشكال مختلفة فذكره الطبرى (تاريخ الرسل ج ٢ ص ٢٠٥) باسم عيس، وذكره ابن الأثير (الكامل ج ٧ ص ٧٩) باسم بغش، وذكر عند ابن تغري (الجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٩٩) باسم عيس، واختلف معهم المقرئى (المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٦) إذ يقول: قل كبيرهم وقام من بعده ابن أخته وبعث يطلب الهشة.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٤.

(٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٦.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤١.

(٦) ذكر أنه على هيئة الحصى (الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٦).

(٧) ابن تغري بردى: الجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٩.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٤.

- ويتضح لنا من رواية ابن حوقل هذه - أي فيما يختص بالمناداة بالمزاد على ملك النوبة بعد ذهبه إلى بغداد، وهذه مسألة لا يمكن التمسك بها، وذلك نظرا لعدم ذكر ابن حوقل الأسباب التى جعلت القمى يطلب ملك النوبة إلى الذهاب إلى بغداد. ويبدو فى ذلك أن ابن حوقل قد اختلط عليه الحدث وفى ذكر تاريخه وشخصياته، ويمكن تحييد ذلك الخط من خلال رواية المقرئى (الخط ج ١ ص ٢٠١) فيذكر: عندما تعرض التوبىين فى عهد المعتصم للضغط الممرك، من قبل ولاية المسلمين، فى صعود مصر الأعلى، على عجزهم من دفع اليقط، فاستنكر ابن ملك النوبة (قيرقى) طاعة أبيه (زكريا بن بنس) المسلمين وعدم حربه لهم، وأشار إليه والده: أن يرسله رسولا إلى بلاد المسلمين فى بغداد، لكي يتعرف على قوة المسلمين الحربية، ويقارن بينهم وبين قوته، وكيف يستعد تصدهم، فتوجه إلى بغداد وتقدم بانحداره رئيس البجة، وثقبا المعتصم "

وبعد أن أشرنا إلى رواية المقرئى يمكن لنا أن يتضح أن ابن حوقل قد اختلطت عليه الأحداث ويحتمل ذلك أن يكون جعبده عن وقوع الأحداث تقريبا قرن من الزمن، وهذا يفسر بخل الأحداث وتغيير الأسماء فجده ذكر (بركى) وهذا يقرب (قيرقى) فى الحروف والصوت.

وهذا نجد أيضا عند يعقوبى (البلدان ص ٣٣٦) وهو السابق فى ذكر الأحداث عن ابن حوقل فقد ذكر اسم قيرقى باسم (قيرقى) - علوة على ذلك من تشابه الأحداث فى الذهاب إلى بغداد، فقد حدث أن حضر رئيس البجة مرة مع القمى إلى بغداد فى عهد المتوكل، وقد تدير مرة سابقة رئيس البجة مع ملك النوبة إلى بغداد فى عهد المعتصم -

لا يمنع المسلمين من العمل في المعدن^(١) وولى المتوكل (سعد الخادم الإيتاخي) البجّة، والطريق ما بين مصر ومكة^(٢)، فولى سعد القمى، فخرج

القمى بعلى بابا وهو على دينه^(٣) وعاد القمى إلى أسوان ثم ذهب إلى العلاقى، وكان قد خلف عليها رجلا من بنى حذيفة يعرف (باشهب) ربيعة من بنى عبيد بن ثعلبة^(٤) وقد مس الناس بالجور، فرفعوا عمله عند القمى فقبض عليه، ثم حبسه مدة طويلة على ما فعله، ثم أطلق سراحه وقد حفظ أشهب فعل القمى به، فقتله وكان هذا في عام ٢٤٥ هـ / ٨٦٨ م^(٥) مستندا في ذلك إلى قوة قبيلته ازدياد نفوذها في المنطقة.

ويبدو لنا من قتل القمى على أيدي العناصر العربية في العلاقى، كانوا الغرض منه رغبة هذه العناصر العربية في التخلص من سيادة الدولة الإسلامية على هذا الإقليم، ولا سيما بعد أن كشفت هذه العناصر العربية عما يحويه إقليم العلاقى من مناجم للذهب والزمرد، ومحاولتها الأفراد باستغلال هذه المناجم دون تدخل من جانب الدولة الإسلامية، وذلك بعد أن زاد نفوذ الأتراك على حساب العرب^(٦) إذ عاينوا التبر وآثار العمل فيه للروم عند أول دخولهم أرض البجّة مع عبدالله بن الجهم وأصروا القيام في العلاقى ورفضوا العودة منه^(٧) وأنهم من ذلك الوقت أي من سنة ٢٤٥ هـ / ٨٦٨ م زاد نفوذ الخليفة في إقليم العلاقى على حين أن الإسلام في بعضها مريض^(٨) ويعنى هذا أن رقابة الدول الإسلامية في أرض البجّة على نشر الإسلام، وتنظيم جباية الجزية والخراج والزكاة لم تعد قائمة في هذا الإقليم منذ ذلك الوقت^(٩).

أما عن البجّة فإن الصلح الذي عقده معه القمى كفل وقف غاراتهم على الصعيد فترة من الوقت استطاع العرب خلالها مواصلة العمل في مناجم الذهب، ومعاين الزمرد دون خوف من تعرض البجّة لهم. واجتذب هذا السلام جماعات عربية أخرى جاءت للبحث عن الثروة، الأمر الذي انتهى بمخاطبتهم للبجّة، وإسلام عدد كبير من رجالهم والنزوح منهم.

- إضافة إلى أن سلفيه من المؤلفين أمثال البلاذري ت ٢٧٩ هـ (فتوح البلدان ص ٢٣٩) الذين تحدثوا عن حرب القمى ثم يذكر في رولته شيء عن ذهاب القمى بملك القوية إلى بغداد.

وإضافة إلى تأكيد هذا القول من أن ابن حوقل قد كتب عليه الأحداث والتواريخ، أنه عندما ذكر ذهاب القمى و معه رئيس البجّة بعد حربهم إليهم إلى بغداد كان في عام ٢٣٨ هـ، وأن سلفيه ولاحقيه من المؤلفين اتفقوا على أن هذا كان في عام ٢٤١ هـ.

(١) المقرئى: الأمواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٦.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤١.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٦.

(٤) وهو أشهب بن ربيعة بن حنيفة بن لجيم بن صعوب، وظل رئيسا لربيعة حتى فاته عبد الرحمن النعماني عنى تشيعه (المقرئى: الأمواظ ج ١ ص ١١٤).

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٤.

(٦) مصطفى مسعد: البجّة والعرب ص ٣١.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٤.

(٩) مصطفى مسعد: البجّة والعرب ص ٣١.

ج - البجة من بداية عهد الدولة الطولونية إلى سقوط الدولة الفاطمية

(في الفترة من ٢٥٤هـ - ٥٧٠هـ / ٨٦٨ - ١١٩٠م).

عقب تأسيس الدولة الطولونية في مصر، عام ٢٥٤هـ / ٨٦٨م، على يد أحمد بن طولون، ظهر رجل بالصعيد، يقال له عبد الحميد أب عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن لخطاب ويكنى بأبي عبد الرحمن الغمري^(١) كان مقيماً بقاصية منه^(٢) ولكنه ولد بالمدينة، ونشأ بها. وقدم إلى مصر، وسمع منه الناس الحديث. ثم غادرها إلى القيروان ومضى بها وقتاً من حياته. ثم عاد إلى مصر عام ٢٤١هـ / ٨٥٥م، وكانت فيه أدوات من فقه وأدب وشعر ومعرفة بالانجوم والفلسفة، وما أن بلغه خبر المعين وإشارة الناس للتبر، فاشترى عبيداً للعمل بالمعين، واتجه بعد ذلك إلى أسوان على سبيل التجارة، ونزل بها وجالس شيوخها وجارهم العلم^(٣)، بعدما كثر المسلمون في المعين، واختلطوا بالبجة وكَلَّ شَرهم، وظهر التبر لكثرة طلابه^(٤). ورغم هذا القول راح بعض الكتاب. يشير إلى أن الغمري وحملته إلى بلاد البجة والذوبة - كانت بتكليف من أحمد بن طولون، وأوكل قيادتها إليه. وهذه الإشارة ثم تكن صادبة، لأنها لا تطابق ما أشار إليها التاريخ ويتضح ذلك في الآتي:

- إن تاريخ أحمد بن طولون، يؤكد وصوله إلى مصر في ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤هـ (١٥ سبتمبر سنة ٨٦٨م) في وظيفة نائب لوالدها باكباك^(٥) و يؤكد تاريخ الغمري وصوله إلى مصر، كان للمرة الثانية في عام ٢٤١هـ / ٨٥٥-٨٥٦م. ثم دخل إلى أرض المعين بعد ذلك بزمان قصير^(٦) ونستنتج من التاريخان : أن الغمري دخل أرض المعين، قبل دخول أحمد بن طولون مصر.

- إن العلوي^(٧) عندما التقى بالغمري عام ٢٦٠هـ / ٨٧٤م، وكانت بينهما واقعة، انهزم فيها العلوي.

(١) الثبوتى: سيرة أحمد بن طولون ص ٦٤.

- ذكر اسمه بأشكال مختلفة عند المؤلفين العرب فورد اسمه عند ابن خلدون (العبر، المجده ٤ القسم ٣، ط بيروت ١٩٨٣: ج ٤، ص ٦٤٦) عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، وورد عند المقرئى (القطط ج ١ ص ١٩٦) أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد الغمري، وورد فى (المقفى الكبير ج ٤ ص ٤٠٣) عبد الله بن عبد الحميد بن عبد الله التاسك بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٢) ابن خلدون: العبر، المجده ٤ القسم ٣ ج ٤، ص ٦٤٦.

(٣) المقرئى: المقفى الكبير ج ٤، ص ٤٠٤.

(٤) المقرئى: المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٦.

(٥) الثبوتى: سيرة أحمد بن طولون ص ٦.

(٦) المقرئى: المقفى الكبير ج ٤، ص ٤٠٤.

(٧) العلوي: نكر أنه إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب، وكان يعرف بالصوفى، حيث خرج على ابن طولون عام ٢٥٣هـ فى أقصى الصعيد، واستطاع الاستيلاء على أسنا عام ٢٥٥هـ وفتحها وعاث وأفسد فى نواحيها، فجره إليه أحمد بن طولون جيشاً بقيادة بن يزداد، ولكن ابن الصوفى تغلب عليه وهزمه، ثم قطع يده ورجله وصلبه، فبار ابن طولون بإرسال جيش له بقيادة بهم بن الحسين، حدث التقى بابن الصوفى فى أخميم عام ٢٥٦هـ، واستطاع بهم التغلب عليه وهزمه، مما أدى إلى فراره إلى نواحي الواحات، وبقي بها مدة حتى حوالى عام ٢٥٩هـ، واستطاع خلائها أن يجمع حوله أنصاراً جدد، ثم خرج إلى الأشمونين، فأرسل إليه ابن طولون جيش بقيادة أبى المغيرة، فوجده متوجه إلى الصعيد لقتال الغمري، فالتقى بالغمري سنة ٢٦٠هـ -

وسار إلى ناحية أسوان فعاث بها وأفسد، وكذب بخبره إلى أحمد بن طولون. فكذب إلى قاضيه بهم بن الحسين، بأمره بأن يصعد في طلبه حيث قصد^(١) فلو كان الغمري من قادة ابن طولون. ما كان عليه أن يترك العلوي، بل كان لاحقه أينما قصد، حتى يتم له القضاء عليه، ولكن الغمري كان يدافع عن منطقته المستقلة فقط.

بالإضافة إلى أن ابن طولون عندما كذب بخبر العلوي إليه، أرسل إليه القائد بهم بن الحسين من القاهرة يلاحقه أينما ذهب، ولم يرسل إلى الغمري بالرغم من قربيه إليه، وقد انتصر عليه بعد ذلك - فبدلاً من إرسال حملة من القاهرة إلى جنوب الصعيد كان أسهل عليه إرسال قاضيه الأقرب منه.

— إن ابن طولون عندما وقف على خبر الغمري، واشتدّت شوكته على البجة وغيرهم. أرسل إليه أحد قادته وهو شعبة بن خركام^(٢) وعند ملاقاته بالغمري، خاطبه الغمري قبل حربه فقال له: إن الأمير لم يبلغه خبري على حقيقة، وقد قنموا عليه في أمري، فإني لم أخرج أبغى فساداً^(٣) والدليل على ذلك لم أؤذى مسلماً ولا ذمياً، إنما خرجت في طلب أعداء المسلمين حتى كفانا الله أمرهم^(٤) وفي خطاب الغمري لشعبة، يوضح فيه الغمري لابن طولون خروجه إلى أرض البجة والنوبة. وهذا القول يؤكد عدم معرفة ابن طولون بالغمري وخبره من البداية، وينفي العلاقة بينهما تماماً - فكيف يكون من قادته وأرسله إلى هذا الغرض وهو لا يعلم أمره.

وكيف ما كان الأمر، اتجه الغمري بعد ذلك إلى أرض المعدن، ونزل على حي من مضر، وقد حدث خلاف بين بني مضر وبني ربيعة. بسبب مقتل رجل من مضر، فاجتمع الفريقان دون دعوة الغمري، فغضب من ذلك ورحل عن موطنهم، فحقق به جماعة من القوم، فرفض الرجوع معهم ولم يقبل العودة إلا بعد أن أعطوه عهداً ألا يفعلوا عملاً إلا بأمره، واستغل ذلك الغمري، وجعلها بيعاً له فاندحاز بالجميع بعد ذلك إلى أرض المعدن مما يلى الجنوب من بلاد البجة^(٥) ثم اوغل في بلاد البجة حتى التقى بهم، وقتل فيهم مقتل عظيم، وضيق عليهم بلادهم، وصار شجاً في حلقهم، حتى أدوا إليه الجزية استكفافاً له، وما أدوها إلى أحد قبله^(٦) وكان السبب في خروجه وحربه على البجة.

— ونهى هذا التلقاء بهزيمة العلوي، فارتد على آثارها إلى أسوان وهناك عاث فساداً، وقطع ثلاثمائة ألف نخعة. وما أن سمع ذلك ابن طولون حتى أرسل له بهم بن الحسين، غير أنه غادر أسوان إثر الخلاف بينه وبين أصحابه، ثم دخل بلاد البجة إلى أن وصل إلى ميناء عذاب ومنها إلى مكة، وقبضه صاحب مكة وأرسله إلى ابن طولون فحبسه بعدما شهر به للناس، وبعدها أظهر توبته، فأطلق سراحه وأحسن إليه وخرج إلى المدينة ومات فيها. (الكدي: أولاد القضاة ص ٢١٢-٢١٤ / ابن خلدون: العبر المجدد ٤، القسم ٣ ص ٦٤٧ / ابن الأثير: الكامل حوادث عام ٦٥٩ / البليوي: سيرة ابن طولون ص ٦٢ - ٦٤).

(١) ابن خلدون: العبر المجدد ٤، القسم ٣ ص ٦٤٧.

(٢) انظر فيما بعد عن ملاقات شعبة بالغمري.

(٣) البليوي: سيرة ابن طولون ص ٦٦.

(٤) ابن خلدون: العبر المجدد ٤، القسم ٣ ص ٦٤٧.

(٥) ويبدو أنه استقر في بلاد البجة في المنطقة المعروفة باسم أم نبارى وهي الواقعة شمال شرق محطة السكة الحديد رقم ٦ الحاقبة الواقعة غرب طريق القوافل بين عرسكو وأبو حمد (الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان ص ١٦٣).

(٦) البليوي: سيرة ابن طولون ص ٦٥.

أنهم أقبلوا فى يوم عيد يقودهم رجل أعور مارد^(١) يعرف (بكلّاز شديد مقدام) وله جمل أعور كذلك، ما سمع بمثله فى السرعة، وقد أشرف على مصلى مصر يوم العيد فى جبل المقطم^(٢) من ناحية جبل الزمرد وهو من جبال البجة الذى يتصل بجبل المقطم^(٣) وكلهم ركبان على الذئب - إبل البجة - حتى كبسوا الناس فى مصلاهم، وقتلوا فيهم ونهبوا ورجعوا من حيث جاءوا سالمين، وكان لهم قبل هذا مقدمات كذلك، فكمّن لهم العمريّ فى طريقهم حتى أقبلوا كعادتهم، فهجم عليهم وقتل رئيسهم الأعور ومن معه^(٤) ولهذا السبب كان الطولونية وغيرهم من أمراء مصر، يقفون على سفح جبل المقطم، بالموضع المعروف بالبدش، جيشا كثيفا مراعيًا للناس حتى ينصرفوا من عيدهم فى كل عيد^(٥).

وبعد أن ثبت العمريّ أقدامه فى بلاد البجة وأرض المعدن، واجهته مشكلة كبرى - ألا وهى مشكلة ندرة المياه وقلة فى هذه البلاد، ولكنه نظر ذات يوم إلى طير فقال: هذا من طيور الشبوط، فأحسب أن الذئب قريب. فأرسل من رجاله للبحث عن الماء، وعاد إليه رجاله من يومه بقرب الماء، وأخبروه ما شاهدوه من بلد مقرة، وأنهم فى ظهره، فسر بذلك العمريّ وأمر الناس بالورود على النيل، ولكن الذئبة رفضوا السماح لهم بذلك، وقبضوا على بعض جماعته، فسار إليهم يطلب خلاصهم، بعد أن راسلهم وتلف منهم. وكان العمريّ ورجاله يحصلون على الماء مقابل التبر حتى بلغت الشنكة - قرية الماء - بدراهمين تبرة، حتى عرفت منطقة المعدن هذه باسم الشنكة. وفى هذه المنطقة كان النيل يتجه شرقا حتى يصبح بينه وبين منطقة الشنكة بضع نهار، ثم يتجه النيل غربا، فسأل العمريّ التوبة أن يجعلوا له ولأصحابه طريقا للماء، وعليهم ألا يتعدوها، ولكن الذئبة امتنعوا عن ذلك وقتلوا من أسروا من أصحابه، فشقّ عليهم ذلك وعاد إلى المعدن وجمع أصحابه وسار بهم إلى الذئبة ووقع عليهم بغلة فى موضع يعرف بشنقى^(٦) وقتل فيهم مقتلا عظيما حتى كثر السبى فى يد أصحابه، حتى أن أحدهم إذا حلق أعطى الحلاق رأسا^(٧) وإذا اشترى أحدهم حاجة من البائع أو البقال أعطاه نوبى أو نوبية لكثرتهم فى أيديهم^(٨) وبعد ذلك الانتصار الذى حققه العمريّ على البجة والذئبة، كذب إلى أسوان يسأل التجار الخروج إليه بالجهاز من طريق المعدن، فخرج إليه رجل يعرف بعثمان بن حجلة التميمي فى ألف راحلة محملة بالجهاز والبر، فسر بذلك العمريّ وتلقاه، وكثر رقيقهم بأسوان والمعدن حتى صار أكثر سرارى أهل البلد من سبى الذئبة وعرفوا باسم الهكيات لرخصتهم^(٩).

(١) البلى: سيرة ابن طولون ص ٦٤.

(٢) المقرئ: المواظ ج ١ ص ١٩٤.

(٣) الهمداني: مختصر البلدان ص ٥٩.

(٤) البلى: سيرة ابن طولون ص ٦٤.

(٥) المقرئ: المواظ ج ١ ص ١٩٤.

(٦) شنقى: أطلق هذا الاسم على الإقليم الذى يضم المنطقة ما بين جنوب شرق بده أبو حمدة إلى شمال وادى حلفا تقريبا، وبعد أن بده أبو حمدة الواقعة على نهر النيل على لواءاته نحو الغرب هى تقريبا فى حوالى منتصف إقليم شنقى - ولفظ شنقى يرجع إلى اللفظ النوبى الأصل (شنقى) وينطق بضم حرف الشين وسكون حرف القون وضم حرف القاف، ومعناه القود أو المعدن (الشاطر بصيلى: تاريخ وحضارات السودان ص ١٦١).

(٧) المقرئ: المسمى ج ٤ ص ٤٠٥.

(٨) المقرئ ج ٤ ص ٤٠٦.

(٩) البلى: سيرة ابن طولون ص ٦٥.

وما لبث العمري حتى دخل في حرب طويلة مع النوبيين أدت إلى هزيمته وتشتت عنه أصحابه^(١) ولكن سرعان ما تجمع إليه حلفاؤه من القبائل العربية حتى أهبطته الذوبة، وطلبوا منه الصلح. ولكن بعد ذلك وقع خلاف بين حلفائه العرب - إذ وقع شر بين الشاميين ثم انتهز العمري فرصة النزاع الذي نشب بين البديت الملكي النوبي، وحصل من الأمير (ديوتى بن قشمة) الأثر على خاله (قيرقى بن زكريا) ملك الذوبة - على حق الإقامة على جاذب النيل من بلاد الذوبة^(٢).

وهم من سعد العشيرة وقبيلة قيس عيلان - فاتهم الشاميون العمري ظلما أنه انحاز إلى قيس، وانتهز قائد الذوبة^(٣) فرصة ذلك الخلاف فراسل الشاميين، يدعوهم إليه ويعطيهم ما يريدوا، فاستجابوا له واتجهوا إليه، فحصلوا من النوبيين على حق الإقامة الدائمة في منطقة المريس^(٤) من ناحية يقال لها ديدان وأدوى وما ينديها^(٥) وخاف العمري من تحالف الشاميين مع ملك الذوبة، فسار إلى معين على ثلاثة مراحل من النيل، وأرسل للشاميين يدعوهم للصلح. فأتوا إليه فأنقض عذبهم جميعا وهم في طريقهم إليه فقتلهم جميعا^(٦) واحتل بعد ذلك منطقة المريس، مما أثار قائد الذوبة، فسار إليه على رأس جيش ضخم، ولكن العمري تمكن من الفرار من أمامهم حتى قرب من أسوان، ونزل على قرية يقال لها أرطلما^(٧).

وعلى الرغم من هذه النتائج الطيبة التي حققها العمري. على أثر نجاح حملاته في بلاد البجة والذوبة، فإن ابن طولون بدأت تساوره المخاوف والشكوك من جهة العمري، بعد أن زاع صيته في الصعيد وبلاد الذوبة، وخاف أن يدفع به طموحه إلى الاستقلال عن الدولة وخاصة إنه يمتلك أدوات التمرد وهى المال والرجال، فهو صاحب مناجم الذهب، وقائد عناصر عربية ساخطة، وعناصر بجاوية تهوى القتال^(٨). فخاف ابن طولون من سوء العاقبة فى أمره أن أغفله، فقلق منه بصا وقف على خبره، واشتدت شوكته على البجة

(١) الملقى ج ٤ ص ١٠٦.

(٢) الملقى ج ٤ ص ١٠٩.

(٣) هو زكريا ابن ملك القوبة (قيرقى)، حيث تولى قيادة الجيش والحرب على العمري بعد هزيمة أخوه الأكبر على يد العمري (الملقى ج ٤ ص ١٠٦).

(٤) المريس: ذكر المسعودى فى (مروج الذهب ج ١ ص ١٨) عن المريس فقال: هى البلد المتصل بأرض أسوان وتضرب إليها الرياح المريسية، وعم هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان. ويذكر عنها ابن حوقل (صورة الأرض ص ٥٨) هى البلد التى من حد أسوان إلى آخر بلد المقر. ويفكر عنها الهدهدى (مختصر البلدان ص ٧٤ - ٧٥) وهى تسمى الجنوب فى القبطية، وينسب إليها الرياح المريسية وهى الرياح الجنوبية الباردة التى تهب على مصر فى فصل الشتاء. ويذكر عنها المقرئى (الخطوط ج ١ ص ١٩٠ - ١٩١) نقلا عن ابن سليم الأسوانى فيقول عنها: لها تضم لمنطقة المسدة من قرية تعرف بالأصغر أول بلد القوبة على بعد خمسة أميال جنوبى أسوان، ويمتد الحد الجنوبى إلى أقصى الأعلى (عكاشة حاليا)، وآخر قرأه من قرية تعرف بستو من ناحية مقر، وعاصمة المريس مدينة بجرش (فرس الحالية) وبها قلعة بريم، وميناء تعرف بأدواء، وثها والى من قبل عظيم القوبة يعرف بصاحب الجبل، وهو من أجل ولايتهم تقربه من أرض الإسلام، ولا يمكن لأحد أن يصعد إلى بلاد القوبة إلا بإذن منه.

(٥) ديدان (هى أمدان الحالية) أما أدوى (فهى على مقربة من بلدة بالية)، (محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى ص ٧٠).

(٦) الملقى ج ٤ ص ١١٠.

(٧) الملقى ج ٤ ص ١١١.

(٨) عطية القوصى: دولة الفروز ص ٣٣ - ٣٤.

وغيرهم فأرسل إليه جيش بقيادة (شعبة بن خركان الباكى) ^(١) فقدم على الغمري، وعند قدومه عليه خرج عليه، وخاطبه قبل وقوع الحرب بينهما وأخبره: إن ثن ابن طولون به غير صحيح، إنما هي مجرد شكوك، وإن خروجه في هذه البلاد وحربه عليها، ثم يكن الغرض منه الفساد، إنما الغرض منه هو محاربة أعداء الإسلام. ودلل له على صدق نيته أنه لم يأذى مسلم ولا نسي.... ^(٢)، فطلب الغمري من شعبة، أن يتمهل في حربه، حتى يرسل حقيقة أمره إلى ابن طولون. فإن قيل عذره وأرسل إلى شعبة بعدم حربه وتركه حراً. لكن شعبة رفض ذلك بشدة ودخل في حرب عنيفة مع الغمري انتهت في آخرها بهزيمة شعبة وجيشه ^(٣) وكان الغمري قد قسم جيشه إلى جزئين جزء لمواجهة شعبة وجيشه، وجزء في ناحية النوبة حتى لا ينقضوا عليه، وبعد هزيمة شعبة توجه شعبة إلى الإسكناط، فأخبر ابن طولون ما قاله الغمري له قبل حربه، فدم ابن طولون تصرف شعبة وأخبره أنه لذلك هزم، وبعد ذلك أهمل ابن طولون الغمري وأمره ^(٤).

وبعد انتصار الغمري على شعبة سار إلى قرية إدفو بحرى أسوان، وعبر منها إلى الشرق، وكان له وقعة مع واليها بعد شعبة، ثم دخل أرض المعدن (العلاقي) وجرت له حروب أعظم من الأولى مع ربيعة، ثم عاود أرض المعدن (أم نبارى) في سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م ^(٥) وعدد دخوله أرض المعدن بسط سيطرته، وزاعت شهرته، وبلغت قواته ما يزيد على مائة ألف رجل، من رجال القبائل المختلفة، حيث كان يرأس قوات ربيعة رجلان، هما أشهب بن ربيعة، والآخر نباس بن روح. وكان على بنى قيس بن ثعلبة بن بكر بن وائل وحلفائهم رجل يعرف محمد بن صريح. وكان على الجيهنيين رجل يعرف بعثمان بن سعد. وعلى الشاميين رجل من سعد العشيرة ورؤوساء آخرون دون هؤلاء ^(٦). فكثر بهم العسكرة في أرض البجة، حتى صارت الرواحل التي تحمل إليهم الميرة من أسوان، ستون ألف راحلة، غير الجلاب التي كانت تحمل في البحر الأحمر إلى عذاب لهم ^(٧). عندما علم بذلك ابن طولون، اعترض ذلك الأمر وأمر بمنعه، ولكن الغمري كتب له أنه في مائة ألف مقاتل أو يزيدون على ذلك، فترك ابن طولون اعتراضه. ولكن لسوء حظ الغمري وقعت المناقسة والمنازعة في أرض البجة بين العرب، وبدأت تشتت أحلافه، ومالت البجة إلى ربيعة وانفقت معه، وتزوجوا إليهم. ويذكر

(١) البلي: سيرة ابن طولون ص ٦٦.

- وذكر اسمه في كتاب المقرئى شعبة بن خركان الباكى (المقفي ج، ص ٤١١)

(٢) ابن خلدون: العبر ج ٤، ص ٦٤٧.

(٣) البلي: سيرة ابن طولون ص ٦٦-٦٧.

(٤) المقفي ج ٤، ص ٤١٢.

(٥) ويتضح لنا من هذا التاريخ الذي أورده المقرئى عن دخول الغمري أرض المعدن عام ٢٥٥ هـ بعد ملاقاته لشعبة. أنه لم يطبق ما فكره الآخرون من ابن خلدون (في تاريخه المجلد، القسم ٣ ص ٦٤٧) والبلي (سيرة ابن طولون ص ٦٢ - ٦٥) والقاضي (السلافة والقضاة ص ٢١٢ - ٢١٣) وابن الأثير (الكامل حوادث عام ٢٥٩ هـ) حيث أنهم فكروا جميعاً: أن العلوي عندما انهزم وفر إلى الواحات بعدما التقى بجيش ابن طولون، وانهزم عنه نهزم سنة ٢٥٦ هـ عاد إلى الصعيد سنة ٢٥٩ هـ ثم صار إلى الأشمونين، ثم صار إلى لقاء الغمري، وهزمه الغمري وكان هذا في عام ٢٦٠ هـ، ثم كان بعد ذلك لقاء الغمري مع شعبة - فكيف ما يكون أن الغمري التقى بشعبة بعد ملاقاته للعلوي سنة ٢٦٠ هـ، ثم سار إلى أرض المعدن بعد ثقله بشعبة عام ٢٥٥ هـ.

(٦) المقفي ج ٤، ص ٤١٢ - ٤١٣.

(٧) المقرئى: المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٦.

السبب في تشتت أحلاف الغمري. أن للعمري أخ من أمه يعرف بإبراهيم المخزوني. خرج إلى عذاب ذيتمار فاعترضته البجة فقتله هو ومن معه، فغضب لذلك الغمري فكتب إلى ربيعة حليفة البجة، يسألها الإنصاف من البجة، أو التخلي بينه وبينهم، ولكنهم ردوه في الحاليتين. وتبع ذلك أن تخذت عنه قبائل مضر بنى هلال وبنى تميم وجهينة، فلم يبق معه إلا القليل من الأنصار، واستطاع الغمري بأتباعه وأتباعه أن تغلب على الجميع، فحاربهم جميعا وهزمهم، في موضعين يقال لهم ميزح وبكيا^(١).

ونتيجة لذلك رسم ابن طولون بمقتل الغمري، ذلك المغامر العربي الذي حاول أن يقيم أول إمارة عربية مستقلة في بلاد البجة، ولكن العمر لم يمتد به لتحقيق ذلك^(٢). إذ أنه قتل غيلة على يد رئيس من مضر، يعرف بمحمد بن هارون، وذلك بسبب مقتل الغمري لرئيس ربيعة على تشييعه وهو أشهب، مما أدى إلى غضب الرئيس المضرى وأصر على قتل الغمري^(٣) وبعد مقتله حملت رأسه إلى أحمد بن طولون، مع غلامين من غلمانه، زعم أنهما قتلاه، فدعا ابن طولون بجماعة من أهل الصعيد ممن يعرف الغمري، فشهدوا على أنها رأس الغمري. فحزن ابن طولون على مقتله وسأل الغلامين في قتلهم له فأجابوه: أنهم أرادوا منه منزلة وقرب، فذم ابن طولون هذا الفعل، وأمر بضرب أعناقهم فضربا وصلبا، ثم أمر بغسل الرأس وتطويبه وكفنه ودفنه^(٤).

وهكذا انتهت حياة تلك السائر المغامر، الذي هدّد دولة ابن طولون، وكاد أن يززع أركانها، فقد أدى دورا ناجحا في منطقة الحدود المضطربة بين مصر والنوبة من ناحية، وبين مصر وبلاد البجة من ناحية أخرى، فقد حقّق هذا الدور في كثير من الأحيان ما لم تستطع أن تحقّقه الحملات العسكرية، التي كانت ترسلها السلطة المركزية في مصر، لصد غارات النوبة والبجة^(٥) في منطقة شغلت المساحة من شرق أبو حمد إلى شمال وادي حلفا تقريبا، وكان مركز رئاسته في المنطقة المعروفة بأبّ زباري، والتي عرفت هذه المنطقة بإقليم شنقيبر^(٦).

ولولا تدخل ابن طولون من ناحية، وانقسام القبائل التي صحبت الغمري، وخروج بعضها عنده من ناحية أخرى، لتمكن الغمري من تكوين إمارة عربية في بلاد البجة تحت زعامته، ولعلها كانت تكون أول إمارة عربية في السودان وادي النيل.

وبالرغم من هذا، فلا أحد ينكر النتائج التي حقّقها الغمري في بلاد البجة والنوبة، من وقف هجومهم على المسلمين. فلا أحد ينكر النتائج التي تروّبت على نجاح حملاته وسيطرته على بلاد البجة، أن البجة مالّت إلى ربيعة وتزوجوا إليه، وقيل أن كهان البجة قبل إسلام من أسلم منهم، ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة

(١) المقرئى: المفقى ج، ص ٤١٣ - ٤١٤.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، تحقيق زكي حسن وسيدة الكشاف، القاهرة ١٩٥٣ م ص ٩٤.

(٣) المقرئى: المفقى ج، ص ٤١٤.

(٤) البليوى: سيرة ابن طولون ص ٦٧.

(٥) ممدوح الحويرى: أسوان في العصور الوسطى ص ٧١.

(٦) الشافطى بصيني: تاريخ وحضارات السودان ص ١٦١.

ولكانون معا^(١) وتصاهرت ربيعة إلى رؤساء البجة كذلك^(٢). ويبدو لنا أن عرب ربيعة لجأوا إلى وسائل مختلفة للتقرب من الحدارية، ومنها ما ذكرناه: فأذهم تحايّلوا على كهانهم للدعوة بالطاعة لربيعة، والانطواء تحت لوائها، لتتخذهم عوناً لها ضد منافسيها من العرب، والاندفاع بحكم هذه البلاد^(٣) وبذلك اشتدت شوكة ربيعة، وقويت ربيعة بمن صاهرها من البجة، من الجنس المعروف بالحدارب على من نواها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار، وقويت البجة من الجنس المعروف بالحدارب على سائر أجناس البجة^(٤).

وكانت نتيجة هذه المصاهرة هي أن: أدت إلى وقف هجمات البجة وكف ضررهم عن المسلمين^(٥) كما أدت إلى استيلاء ربيعة على معدن الذهب بالعلاقي فأصبحوا أهل خاصته في بداية القرن الرابع الهجري^(٦) وادى هذا إلى اتساع نفوذهم وكثرة أموالهم، فسارت لهم مرافق ببلاد البجة، واحتلّطوا لهم بها قرية تعرف بالانماس وحفروا بها أباراً^(٧).

ولعل أهم نتائج هذه المصاهرة هو إقبال البجة على اعتناق الإسلام، وعلى التزود بالثقافة العربية، ومن ذلك يقول المسعودي^(٨) "الحداربة وهم المسلمون ممن بين سائر البجة وباقي البجة كفار يعبدون صنم لهم". بل ترتب على هذه النتيجة نتيجة أخرى سياسية أهم، ألا وهي سيطرة من أسلم من البجة وهم لحدارب، على غيرهم ممن لم يسلم من سائر البجة وهم الزنافع^(٩) فأصبح الحدارب شوكة القوم وجوهم، وبات الزنافع تبعاً لهم وغفرائهم يحمونهم ويجبونهم المواشي، وأصبح لكل رئيس من الحدارب قوم من الزنافع في حملته، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كان الزنافع قديماً أظهر عليهم^(١٠).

ومن الواضح أن اختلاط عرب ربيعة بالبجة ولا سيما الحدارية، قد أمّته عوامل سياسية وأخرى اقتصادية. فأما من ناحية البجة فيبدو أن هؤلاء الحدارية، وهم الطبقة الحاكمة الذي خضع لها معظم البجة، كانوا في نزاع مستمر مع جيرانهم النوبة في الغرب حول مواطن المياه والرعى وكانت دائماً الغلبة للنوبة، وهذا من ناحية البجة. أما من ناحية ربيعة فقد ظهر التنافس بين القبائل العربية حول امتلاك معادن الذهب والزمرد، وازدياد العصبية القبلية بينهم، لذلك جمعت بين ربيعة والحداربة مصالح مشتركة اقتضت تعاونهما معا للتغلب على منافسيهما^(١١).

(١) المقرئ: المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٦ (نحون هو رئيس البجة المقيم بقرية هجر، وهو الذي عقد معه عبدالله بن الجهم عقد الأمان، انظر فيما سبق البجة في عصر الولاة)

(٢) المقرئ: المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧.

(٣) مصطفى مسعود: البجة والعرب ص ٣٩.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ج ١ ص ١٨.

(٥) المقرئ: المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥١.

(٧) المقرئ: البيان والإعراب ص ٤٤.

(٨) المسعودي: مروج الذهب ج ١ ص ١٨.

(٩) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٧٣.

(١٠) المقرئ: المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٥.

(١١) مصطفى مسعود: البجة والعرب ص ٣٨.

لذلك سعى كلا منهم إلى مصاهرة رؤساء الآخر والتزوج من بناته، ونجد ذلك في قول ابن حوقل^(١) الذي يذكر في زمنه أي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي تقريبا في عام ٣٣٢هـ / ٩٤٣م : كان يرأس الددارب أجمع رئيسان هما عبدك وكوك، ويعرف عبدك بأنه خال ولد أبي بكر إسحاق بن بشر صاحب العلاقي، ويعرف كوك بأنه خال أبي القاسم صدين بن علي بن بشر".

ويبدو لنا من قول ابن حوقل^(٢) أن ربيعة أدركت قيمة نظام الوراثة عدد البجة، الذي يعتمد على وراثة ابن لبنت أو ابن الأخت دون ولد الصلب لذلك استغادوا منهم وكانت النتيجة: أن أنجبت ربيعة أبناء ورثوا الإمارة عن أخوالهم، كما يوضح لنا أن إمارة العلاقي قد انتقلت إلى أبو مروان إسحاق بن بشر دون غيره عن طريق وراثته لها من خاله عبدك^(٣).

فبعد موت العُمري مباشرة نشب النزاع بين القبائل النازحة في المنطقة، لفرض السيادة عذبيها، ودخلت ربيعة في حرب مع غيرها من القبائل النازحة هناك، لكن في النهاية انتصرت ربيعة في هذه الحرب لاعتمادها على البجة، وأحلافهم من العرب، ويذكر ذلك المسعودي^(٤): كان صاحب المعدن بشر بن مروان بن إسحاق وهو من ربيعة يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن، وثلاثين ألف حراب على الذئب من البجة بالحجف البجاوية". وهذا يؤكد أن الصلة قد توثقت إلى حد كبير بين ربيعة والبجة كما يذكر ابن فضل الله العُمري^(٥) فيقول: صارت هي والبجة كائشء الواحد. وبعد أن تحقق لربيعة الانتصار على من خالفها من القبائل العربية قامت بطردهم من هذه المنطقة حتى تكون صاحبة السلطة لمطقة على أرض المعدن^(٦) وما لبث أن دار النزاع بين بنى ربيعة أنفسهم، فنشب النزاع بين بنى بشر وبنى يونس (طائفة أخرى من ربيعة) وكانوا أهد بطونها بعيداب فطردتهم منها، فساروا إلى الحجاز^(٧).

وبعد أن تحقق لربيعة كل هذه النتائج، من السيطرة على أرض المعدن، ورجال البجة، وطرد من خالفها من القبائل. تحققت لهم السيادة في المنطقة، وانغردوا بالأمر في وادي العلاقي، وأقاموا لهم هناك إمارة عربية كانت رعاياها قبائل البجة، الذين ارتضوا عن ذلك عن طيب خاطر^(٨).

فاستمرت ربيعة في حكم البجة واستمر أبو مروان إسحاق بن بشر حاكم إمارة ربيعة في العلاقي مدة، إلى أن

(١) صورة الأرض ص ٥٦.

(٢) المقرئى: المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

(٣) المقرئى: البيان والإعراب ص ٤٥.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ج ١ ص ١٨.

- وعلى الرغم من كون المسعودي معاصرا لشخصية صاحب المعدن، وزيارته لمصر في ذلك الوقت إلا أنه لخصت عليه الأمر، وتكر أن صاحب المعدن في وقت أي في سنة ٢٣٢هـ هو بشر بن مروان بن إسحاق، وهذا جاء مخالفا لما أورده ابن حوقل (في صورة الأرض ص ٥٥) والمقرئى في (البيان والإعراب ص ٤٥) من أن شخصية المعدن في ذلك الوقت هو أبو مروان إسحاق بن بشر.

(٥) مسالك الإبل في ممالك الأمصار ج ١٥ القسم ٢ ص ٤١٩.

(٦) المقرئى: المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧.

(٧) المقرئى: البيان والإعراب ص ٤٤.

(٨) Mac Michael, op . I, p. vol. cit. 149

قَتَلَ نَتِيجَةَ النِّزَاعِ الَّذِي نَشَبَ بَيْنَ رَجَالِهِ، إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِهِ وَوَقَعَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ بَنِي بَشَرَ قَتَلَ فِيهَا إِسْحَاقَ^(١).

وَلَمْ نَحْدِثْنَا الْمَصَادِرَ عَنْ أَسْبَابِ هَذَا الْخِلَافِ، الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ رَجَالِ رِبْعَةٍ فِي وَادِي الْعِلَاقِي، وَادِي إِلَى مَقْتَلِ مَرْوَانَ بْنِ بَشَرَ. وَلَا نَسْتَطِيعُ التَّكْهِنَ بِطَبِيعَةِ ذَلِكَ النِّزَاعِ الَّذِي نَشَبَ بَيْنَ بَنِي بَشَرَ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ: صُورَةُ مِنْ صُورِ النِّزَاعِ الْقَبْلِيِّ الَّذِي انْصَفَتْ بِهِ حَيَاتُهُ الْقَبَائِلُ الْعَرَبِيَّةُ، وَوَقُوعُ الْخِلَافِ وَالْحَرْبِ عَلَى أَقْلِ الْأَسْبَابِ. وَمِنْ الْعَجِيبِ أَنَّ فِرْعَ رِبْعَةٍ فِي الْعِلَاقِي لَمْ يَتَّفَقْ عَلَى اخْتِيَارِ زَعِيمٍ لَهُمْ فِي تِلْكَ الْمَنْطَقَةِ خَلْفًا لِإِسْحَاقَ: وَرَبَّمَا يَرْجِعُ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ إِلَى خُلُوِّ الْمَنْطَقَةِ مِنْ شَخْصِيَّةٍ مَنَاسِبَةٍ تَصْلُحُ لِقَوْلَى الزَّعَامَةِ^(٢).

وَكَانَ لِحَسَنِ حِظِّ رِبْعَةٍ فُرُوعٍ أُخْرَى انْتَشَرَتْ فِي أَرْجَاءِ مِصْرَ، فَكَانَ الْفِرْعُ الْأَوَّلُ مِنْ رِبْعَةٍ قَدْ نَزَلَ بِالْحَوَافِ الشَّرْقِيَّ عَدَدَ بَلَدِيْسٍ وَأَقَامَ بِهَا^(٣) وَأَقَامَ الْفِرْعُ الثَّانِي حَوْلَ أَسْوَانَ فِي قَرْيَةٍ مُحَاضِيَةٍ لَهَا وَتَسْمَى الْمَحْدَثَةِ^(٤) أَمَّا الْفِرْعُ الثَّالِثُ وَهُمْ الَّذِينَ نَذَرْتُ عَنْهُمْ الَّذِي أَقَامُوا فِي بِلَادِ الْبَجَّةِ وَفِي الصَّحَرَاءِ الشَّرْقِيَّةِ بَيْنَ الذَّنْبِلِ وَبَحْرِ الْقَلْزَمِ فِي مَنَظِقَةِ وَادِي الْعِلَاقِي^(٥).

وَيَبْدُو أَنَّ ثَمَّةَ رَابِطَةٍ كَانَتْ تَرْبِطُ بَيْنَ فُرُوعِ قَبِيلَةِ رِبْعَةٍ الثَّلَاثِ كَمَا أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِقَّةٍ وَصَلَ بِمَا يَدُورُ مَعَهُمْ فِي كُلِّ مَنَظِقَةٍ، فَبَعْدَ مَقْتَلِ إِسْحَاقَ اخْتَارَتِ الْقَبِيلَةُ ابْنَ عَمِّ الشَّيْخِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ يَوْسُفَ، الْمَعْرُوفَ بِأَبِي يَزِيدَ بْنِ إِسْحَاقَ لِقَوْلَى زَعَامَةِ فِرْعَ رِبْعَةٍ فِي بِلَادِ الْبَجَّةِ، وَأَبُو يَزِيدَ بْنِ إِسْحَاقَ هَذَا مِنْ فِرْعِ رِبْعَةٍ الْأَوَّلِ: أَيِ الَّذِي نَزَلَ بِالْحَوَافِ الشَّرْقِيَّ عَدَدَ بَلَدِيْسٍ، وَيَرْجِعُ نَسَبُهُ إِلَى مَسْرُوقَ بْنِ مَعْدَى كَرْبَ بْنِ رِبْعَةٍ^(٦). وَبِهَذَا الْإِجْرَاءِ لَمْ تَعْطِ قَبِيلَةُ رِبْعَةٍ فُرْصَةَ الْأَحْدَاثِ أَنْ تَوْسِعَ الْخِلَافَ بَيْنَ أَبْنَائِهَا مِمَّا يَقْضَى عَلَى نَفُوذِ الْقَبِيلَةِ، وَيَطْمَعُ فِيهَا أَعْدَائُهَا، وَهَذَا يَثْبُتُ لَنَا مَدَى تَرَابُطِ الْقَبِيلَةِ بِرِغْمِ عَوَارِضِ النِّزَاعِ بَيْنَهَا، وَمَدَى حِرْصِهَا عَلَى الْاسْتِمْسَاكِ بِحُكْمِ قَبَائِلِ الْبَجَّةِ وَمَنْطَقَةِ الْمَعْدَنِ^(٧) فَبِذَلِكَ تَوَلَّى أَبِي يَزِيدَ بْنِ إِسْحَاقَ رِئَاسَةَ الْإِمَارَةِ فِي الْعِلَاقِي، وَيَبْدُو أَنَّ مَنَظِقَةَ الْعِلَاقِي فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ تَنْلِ إِعْجَابَهُ، لِذَلِكَ أَصَرَ إِلَى نَقْلِ مَقَرِّ رِئَاسَةِ رِبْعَةٍ عَلَى ضِفَافِ الذَّنْبِلِ عَدَدَ أَسْوَانَ، فِي مَكَانٍ كَانَ مَعْرُوفًا بِسَاقِيَةِ شَعْبَانَ^(٨) وَمِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنَّ أَسْوَانَ حَازَتْ إِعْجَابَهُمْ عِنْدَمَا وَقَفَ بِهَا فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْعِلَاقِي وَتَوَلَّى الزَّعَامَةَ هُنَاكَ^(٩).

وَلَعَلَّ الدَّافِعَ إِلَى ذَلِكَ إِنَّهُ أُدْرِكَ بَعْدَ نَظَرَةٍ أَهْمِيَّةٍ مَوْقِعَ أَسْوَانَ فِي الْأَشْرَافِ عَلَى الْإِمَارَةِ الْمَتَّحِدَةِ بَيْنَ فِرْعَى رِبْعَةٍ، الْمُنَوَاجِدِينَ فِي الْعِلَاقِي وَأَسْوَانَ، فَضِلًا عَنْ أَهْمِيَّةِ أَسْوَانَ التَّجَارِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، لِتَحْكُمِهَا فِي

(١) الْمَقْرِيزِيُّ: الْبَيَانُ وَالْإِعْرَابُ ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) مَدْمُودُ الْحَوِيرِيِّ: أَسْوَانَ فِي الْعَصُورِ الْوَسْطَى ص ٣٢.

(٣) الْمَقْرِيزِيُّ: الْبَيَانُ وَالْإِعْرَابُ ص ٤٥.

(٤) ابْنُ حَوْقَلٍ: صُورَةُ الْأَرْضِ ص ٥٤.

(٥) الْمَقْرِيزِيُّ: الْبَيَانُ وَالْإِعْرَابُ ص ٤٤.

(٦) مِصْطَفَى مَسْعُودٍ: الْبَجَّةُ وَالْعَرَبُ ص ٤٠.

(٧) عَطِيَّةُ الْقَوَاصِي: دَوْلَةُ الْكُتُوزِ ص ٣٧.

(٨) الْمَقْرِيزِيُّ: الْبَيَانُ وَالْإِعْرَابُ ص ٤٥.

طرق التجارة بين مصر والسودان. كما أن أبى يزيد لابد أن يكون قد أدرك أن الإمارة فى إمكانها أن تتوسع رقعتها على حساب بلاد النوبة الشمالية، وذلك خيرا لها من التوسع فى الصحراء^(١) بعدما أُنيج لبنى ربيعة فى أسوان أن اختلطوا بالنوبيين، وأن يتزوجوا من بنات رؤسائهم. وبهذا أصبحت لهم مصانع مادية فى بلادهم، واندفاعهم بنظام الوراثة عند النوبيين، وهو نظام وراثة الأم، ونجاح هذا الفرع من ربيعة كذلك فى أن يقيم طبقة حاكمة خضع لها النوبيين من أهل المريس (النوبة الشمالية) ولا سيما بعد أن تحول معظمهم إلى الإسلام^(٢) وعلاوة على ذلك أن موارد الذهب فى هذه الصحراء، وفى وادى العلاقى بالذات، كانت قد بدأت فى الانضب، بالإضافة إلى ما كان يوجد فيها من قبائل البجة الشكيمة، وقبائل العرب التى كانت تتنازع فيما بينها أحيانا كثيرة، وقد راح فى هذا النزاع ابن عمه حاكم ربيعة السابق إسحاق بن بشر^(٣).

فينكر المقرئى^(٤) أنه نقل أبى يزيد بن إسحاق مقر إقامته إلى أسوان، وظل رئيسا لإمارة ربيعة حتى مات، فخلفه ولده هبة الله بن أبى عبد الله محمد بن على الذى عرف بالإهواج المطاع، وهو الذى ظفر بأبى ركووة^(٥) الخارج على الحاكم بأمر الله^(٦)، وقبض عليه فأكرمه الحاكم إكراما عظيما، ولقبه كنز الدولة^(٧)، وهو أول من لقب بذلك الاسم منهم، ولم تزل الإمارة فيهم وكلهم يعرفون بكنز الدولة.

(١) عطية القوصى: دولة الكفور ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) مصطفى مسعد: الإسلام والتوبة فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٣٤.

(٣) رمضان عبد العظيم: الحدود المصرية السودانية ص ٢٥٥.

(٤) المقرئى: البيان والإعراب ص ٤٤-٤٦.

(٥) أبو ركووة: كان ظهوره فى سنة ٣٩٥هـ، وادعى أنه الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموى، وتلقب بالثغر بأمر الله، والمنتقم من أعداء الله، حيث وده بالقدس ونشأ بها وخرج منها إلى القروان، فبعث الصبيان القرآن، ثم توجه إلى الاستذرية، ثم إلى مصر فأقام بها، ثم توجه إلى القوم، ثم عاد إلى مصر وانتقل إلى إحدى قرى المنوفية، ثم ذهب إلى قرى قلوب، وسار منها إلى البحيرة حتى نزل على بنى قرة (فخذ من جذام) وكان الحاكم بأمر الله قبل ذلك فى عام ٣٩٥هـ قد أرسل إليه أبو الفتيان التركى، وقد قتل منهم مقلدا عظيما وحرقتهم، وقد وجدهم أبو ركووة مجتمعين لمحاربة الحاكم بأمر الله، ولكن دون قائد، فأخبرهم أنهم من بيت الخلافة، فلقادوا إليه، وانضم إليه قبائل لواتة ومذلة وزنلة من المغرب، وجاءوا فى مكان قريب من بركة، فلما سمع الحاكم بأمر الله هذا أرسل إليه جيش بقيادة إسماعيل الطويل التركى فى نصف شعبان عام ٣٩٥هـ، وتكده هزم على يد أبى ركووة، ثم صر أبو ركووة إلى بركة وحاصرها واستولى عليها، ثم أرسل إليه الحاكم جيش فى ربيع الأول سنة ٣٩٦هـ بقيادة (ابن الأرمينية)، لكنه هزم أيضا غرب الاستذرية. وبعد ذلك اضطر الحاكم بأمر الله إلى عقد مجلس عسكرى جمع فيه كل قواده لمواجهة أبى ركووة، وأشاروا عليه أن يسحب قواته التى بالثمام، فأرسل إليه قوات ثائرة ولكنها هزمت أيضا على يد أبى ركووة، ثم أرسل إليه جيش ثائرة فالتقى الجمعان على نصف مرحلة من القوم، تكن فى هذه المرة هزم فيها أبى ركووة، وتوجه بعد ذلك إلى بلاد التوبة. وتكده قبض عليه بمساعدة الشيخ أبو المكارم هبة الله - شيخ بنى ربيعة فى ربيع الآخر سنة ٣٩٧هـ، وفى ١٧ من جمادى الآخر لهذه السنة صلب أبو ركووة بعد أن شرب به للتلذذ، وقطعت رأسه وانتهى أمره (التويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب القاهرة ١٩٩٢ ج ٢٨ ص ١٨٠-١٨٣).

(٦) الحاكم بأمر الله: ولى الحاكم بأمر الله الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٣٨٦هـ، وله من العمر إحدى عشر سنة ونصف (الافكندى: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٩) أما نهاية حكمه فقد اكتنفها الغموض فذكر أنه ركب فى ليلة الاثنين - السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١هـ - قصده جبل المقطم ومدة ذلك لم يعرف مصيره بعد (ابن تغرى بردى: التجوم القاهرة ج ٤ ص ١٨١-١٨٢).

(٧) كنز الدولة: هو لقب منحه الحاكم بأمر الله لشيخ ربيعة أبو المكارم هبة الله، وذلك تكريما له على مساعدته فى القبض على أبى ركووة الثغر، وهذا اللقب ذا نفوذ سياسى، لقب به رؤساء ربيعة، ونقطة كنز هذه هى نقطة قديمة كنت تطلق على منطقة من بلاد التوبة، وتسمى بالمصرية القديمة أرض القوس. واكتسبت ربيعة لفظ كنز نتيجة لتساورها واختلاطها التشديد مع التوبة فى هذه المنطقة. كما أن إضافة لقب كنز الدولة هو نوع من الألقاب المستخدمة عند الفاطميين، وهذا تفصيلا منهم للتخلفاء العباسيين، وذلك من باب الامتداف والاعتراف به -

ومهما كانت الأسباب التي دفعت إلى نقل مركز رئاسة الإمارة من العلاقي إلى أسوان. فلم يكن ذلك يعني أن بنى ربيعة قد تخلوا هن منطقة العلاقي وتركوها نهائيا، فإن أعداد كبيرة منهم ظلت تقيم في الصحراء الشرقية تشرف على المناجم وتنوب عنهم في حكم البجة، وتحمي ثغر عيذاب^(١).

ومنذ تلك الوقت أي في حوالي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) لم نعد نعرف شيء عن بنى ربيعة في العلاقي منذ انتقال مقر ربيعة إلى أسوان، والواضح أنه تم اختلاط هؤلاء بالبجة، وأنهم أخذوا عندهم اللغة البداوية، بعد أن طعموها بكثير من الألفاظ العربية، وأنهم أعطوهم الدين الإسلامي الذي يربطهم بالنسب العربي^(٢).

وأیضا لم نعد نسمع منذ ذلك الوقت ولا حتى في المصادر المعاصرة لتلك الأحداث، عن أي غارة شنها البجة على حدود مصر الجنوبية، أو مدن الصعيد، وخاصة أسوان، ومما يؤيد ذلك القول أنه عندما عبر ناصر خسرو^(٣) لاصحراء الشرقية من أسوان إلى عيذاب في ربيع الأول عام ٤٤٢هـ (يوليو ١٠٥٠م) قال عن البجة: "هم ليسوا أشرار، فهم لا يسرقون ولا يغيرون، بل يشتغلون بتربية ماشيتهم".

وصفوة القول أن السياسة الخارجية التي قام بها البجة من بداية الفتح الإسلامي حتى نهاية الدولة الفاطمية كانت بمثابة الفرصة الحقيقية من جهة العرب للدخول في هذا الإقليم، ومحاولة نشر الرسالة الإسلامية والثقافة العربية في هذه المنطقة لتتحول بعد ذلك إلى مركز ثقافي عربي إسلامي أترفي الإقليم عامة، كما كانت الفرصة للبجة لتتعلم من الشعوب المتحضرة مبادئ وضروب النشاط الإنساني لتتحول من قبائل همجية إلى محدثين لإمارة عربية ساعدت على تحويل السودان إلى دولة إسلامية عربية.

- بدهماتهم الجيلة للثولة. فرفوا بنى ربيعة من خلال هذا الثقب فيما بعد بإمارة بنى الكز أو إمارة الكنوز (عطية القوصي: دولة الكنوز الإسلامية ص ٥٥- ٥٦).

(١) عطية القوصي: دولة الكنوز ص ٤٨.

(٢) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ٤٦.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه ص ١٣٤.

ثانياً: النظم الإدارية والسياسة الداخلية للبيعة:

أ- نظام الحكم والإدارة

لم يتفق المؤرخون العرب في وصف نظام الحكم عن البيعة، فراح بعضهم يصفه بالنظام الملكي، وأطلق عليهم ممالك البيعة. وراح البعض الآخر يصفه بالنظام القبلي، وأطلق عليهم قبائل البيعة. ولا يمكن لنا نقف على حقيقة ذلك إلا بعد أن نرد ما ذكره عنهم هؤلاء المؤرخون.

فحدث عنهم اليعقوبي^(١) واصفا نظام حكمهم بالنظام الملكي، فيذكر عنهم فيما أسماه ممالك البيعة وعددها خمس: "في كل مملكة ملك منفرد، فالمملكة الأولى: من حد أسوان شمالاً إلى حد بركات (خور بركة) جنوباً، وهم الجنس الذي يقال له نقيس، ومدينة المملكة يقال لها حجر ولهم بطون وقبائل كما تكون للعرب فمنهم: الحدرات، وحجاب، والعماعر، وكوبر، ومناسة، ورسفة، وغريبعة، والزنافج^(٢) وفي بلادهم المعادن من التبر والجوهر والزمرد، وهم مسالمون للمسلمين، ويعملون في بلادهم في المعادن.

والمملكة الثانية: مملكة بقلين، وتحوي هذه المملكة على مدن كبيرة واسعة، وديانتهم الماجوسية والوثنية، ويسمون الله عز وجل الزنجير الأعلى، ويسمون الشيطان صحن حراقة، ومن عاداتهم ينتفون لحاهم، ويقلعون ثيابهم، ويختنون، وبلادهم بلاد مطر.

المملكة الثالثة: مملكة بازين يحدها شرقاً مملكة بقلين، وغرباً مملكة علوة من النوبة، وهم يحاربون، وينزعون الذخن - الذرة - ويعتمدون عليه وعلى اللبن في طعامهم.

المملكة الرابعة: مملكة جارين، ولهم ملك خطير، وملكه يمتد من مرياء باضع على ساحل البحر الأحمر، إلى حد بركات من مملكة بقلين عند موضع يقال له: حل الدجاج، وسكانها يقلعون ثيابهم من فوق ومن أسفل.

المملكة الخامسة: مملكة قطعة، وهي آخر ممالك البيعة، ومملكتهم واسعة تمتد من مرياء باضع إلى مكان يقال له فيكون، ولهم حد شديد، وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة يقال لها دار السوا، وفيها أحداث شباب جلد مستعدون للحرب والقتال".

ويذكر اليعقوبي في موضع آخر^(٣) مؤكداً قوله السابق من أن بلاد البيعة اعتمدت في نظام حكمها على النظام الملكي فيقول: "ومن العلاقي الذين يسمون الحدارية، خمسة وعشرون مرحلة، ومدينة ملك البيعة الحدارية يقال لها حجر ويأتي إليها الناس للتجارة، والبيعة ينزلون خيام جلود، وينتفون لحاهم، وينزعون فلك ثدي الغلمان، ويأكلون الذرة ويركبون الإبل والخيل ويحاربون عليه وسلاحهم الحراب وهم بارعون في الرمي، ومن العلاقي إلى أرض البيعة الذين يسمون الزنافجة خمسة وعشرون مرحلة والمدينة التي يسكنها ملك

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ١ ص ١٩٢-١٩٣.

(٢) الحدرات وهي المعروفة (الحدارب)، حجاب وهي المعروفة (بحباب)، العماعر وهي المعروفة الآن (بالأمرا). ومناسة ما زالت تعرف باسمها هذا في إريتريا، أما كوبر، ورسفة، وغريبعة، فغير معروفة (التساخر بصيلى: تاريخ و حضرات السودان ص ١٤٧).

(٣) البلدان ص ٣٣٦-٣٣٧.

الزنافة يقال لها بقلين، وقد سيروا إليها المسلمون للتجارة، ومذهبهم مثل مذهب الحدارية، وليس لهم شريعة إنما كانوا يعبدون صنما حخاخوا^(١).

وبعد هذا العرض لما ورد في مؤلفات اليعقوبي، نأتي بما ذكره ابن حوقل^(٢) عنهم لكنه لا يشير في وصفهم عن نظام الحكم المتبع عند البجة كما أشار اليعقوبي. فقد أشار إلى أن البجة ينقسمون إلى قبائل وبطون كثيرة واتبعو في نظام حكمهم لنظام القبلي، فمنها ما هو بدواحي بركة من البطون كدبم المعروفة بعجات، ويذهب شرقاً إلى ساحل البحر الأحمر، قبائل الجاسا (الخاسة). وبين وادي بركة، ووادي دكن (خور القاش) قبائل بازن وبارية، ومن عادة بارية قلع ثنائيم، وبحر أدانهم. وبين وادي بركة وحدود مصر الجنوبية، يعيش قبائل بوانيك من البجة، وتقتن بطون تعرف بقصعة بين وادي بركة وميناء باضع، وهم أغنى بطون البجة الداخلية، وأكثرها مالا. وبين وادي بركة وجبل مسمار، يعيش قبائل الماتين، وسيتراب، وغركاي، ودحذت. وتعيش بالقرب من سواكن، بطون تعرف برقابات، وحنديبيا، وهم خفراء على الحدرية - الحدارية.

أما هؤلاء الحدارية فهم من البدو الغير مستقرين، وينتقلون في طول البلاد وعرضها، وتكون بلادهم التي تمطر وتزرع، وينتجعونها بمواشيهم طولا نحو شهرين مسيرة، وتمتد من النيل إلى البحر الأحمر، ويقضون شتاءهم بالقرب من ساحل البحر الأحمر، والصيف في بطون الأودية، والخريف فيما قارب النيل مغربين عن ديارهم. ويخضع الحدارب لرئيسين من شيوخهم، رئيس لكل بيت زمام، ورئيس يسوسهم، وينقسم الحدارية إلى بطون منها: المعريكة، والسوتباروا، والحوكمة، والعكنايرة، والبحريروا والحديكة والواخكة، والجربب. وتنقسم كل بطن من هذه البطون إلى نحو مائة فخذ، لكل فخذ منها رئيس أو رئيسان. وتقرب ألوأنهم من ألوان العرب، بين السواد والبياض، وتكمل بلادهم ببلاد النوبة والدبشة، وهم مفترقون مجتمعون إلى أن يحازوا عدن، وغذاء الحدارية من اللبن واللحم، يأكل فقراءهم صيد الوحش كالغزال والنعام والحمار، أما أغنيائهم فلا يرون أكل الصيد، ولا مخالطة أكثهم، ولا يستعملون أذية من استجاز ذلك واستحلها، ولا يحذون فيها، ولا يشربون. ويتكلم الحدارية لغة البجة، وبعضهم لغة خاصة ينفردون بها، أما دينهم مسلمون بالاسم^(٣).

وفي موضع آخر يذكر أن في وسط وادي دجن يقع إقليم تفلين قرى للبادية، يندمجها البجة للزعرى في فصل المطر، وعليهم ملك مسلم يتكلم العربية من قبل صاحب علوة، ويختص أهل تفلين بالإبل والبقر ولا زرع لهم، ومنهم مسلمون كثيرون، ومنهم تجار يسافرون إلى مكة وغيرها، ويجاور تفلين بازين أمم مقيمة في أخصاص كالقري، ولهم ماشية من البقر والزرع، ورؤاستهم بأيدي شيوخهم، وليس فيهم إلا راجل ولا فارس فيهم، وسلاحهم الحراب والنمران، وليس لأحد عليهم طاعة، ولا دين لهم ولا هم متصلون بشريعة غير الإقرار بالله وحده والتسليم له وكان اسمه عندهم "أذه"^(٤).

أما المقريري^(٥) فيأتي بما نقله عن بن سليم الأسواني وإن كان ينقصه التوضيح، لكنه متفقا في وصفه لما أشار إليه ابن حوقل، ذاهبا بقوله من البجة اتبعت النظام القبلي في حكمهم، فيذكر عنهم قائلا: "إنهم بادية

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٥-٥٦.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٧.

(٣) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

يَدْبَعُونَ الْكَلأَ حَيْثَمَا كَانَ الرَّاعِي بِأَخْبِيهِ مِنْ جُلُودٍ، وَأَنْسَابِهِمْ مِنْ جِهَةِ النِّسَاءِ وَلِكُلِّ بَطْنٍ مِنْهُمْ رَئِيسٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ مَمْتَلَكٌ، وَلَا لَهُمْ دِينٌ، وَهُمْ يَوْرَثُونَ ابْنَ الْبَذْتِ وَابْنَ الْأَخْتِ دُونَ وَلَدِ الصُّلْبِ...، وَكَانَ لَهُمْ رَئِيسٌ يَرْجِعُ جَمِيعَ رُؤَسَائِهِمْ إِلَى حُكْمِهِ يَسْكُنُ قَرْيَةً تَعْرِفُ بِهَجْرٍ وَهِيَ أَقْصَى جَزِيرَةِ الْبَجَّةِ" وَأَضَافَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ "أَنْ فِي آخِرِ بِلَادِ الْبَجَّةِ جَنْسٌ يُقَالُ لَهُ الْبَازَرَةُ"^(١)، كَمَا أَضَافَ أَنَّ هُنَاكَ جَنْسٌ آخَرَ يُسَمَّى بِالْحِدَارِبِ وَوَصَفَهُمْ بِأَنْ إِسْلَامَهُمْ ضَعِيفٌ، وَهُمْ شَوْكَةُ الْقَوْمِ وَوُجُوهُهُمْ، وَهُمْ مِمَّا يَلِي مِصْرَ مِنْ أَوَّلِ حُدُودِ الْعِلَاقِي وَعِيدَابٍ وَالْمَعْبَرِ مِنْهُ إِلَى جَدَّةَ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ. وَمِنْهُمْ جَنْسٌ آخَرَ يَعْرِفُونَ بِالزَّنَافِجِ، وَهُمْ أَكْثَرُ عِدَدًا مِنَ الْحِدَارِبِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ تَبِعَ لَهُمْ، وَخَفَرَاتُهُمْ يَحْمُونَهُمْ وَيَجْبُونَهُمُ الْمَوَاشِي، وَلِكُلِّ رَئِيسٍ مِنَ الْحِدَارِبِ قَوْمٌ مِنَ الزَّنَافِجِ فِي حِمْلَتِهِ، وَهُمْ كَالْعَبِيدِ يَتَوَارَثُونَهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانَ الزَّنَافِجُ قَدِيمًا أَظْهَرَ عَلَيْهِمْ^(٢).

كَمَا يَذْكُرُ أَنَّ هُنَاكَ أَجْنَاسَ أُخْرَى، وَهُمْ الْبَجَّةُ الْدَاخِلَةُ، وَهُمْ الَّذِينَ يَقْطَنُونَ صَحْرَاءَ عَنُوةَ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ الْأَحْمَرَ إِلَى حُدُودِ الْحَبَشَةِ، وَهُمْ كُفَّارٌ يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ، وَلِكُلِّ بَطْنٍ مِنْ أُولَئِكَ الْبَجَّةِ الْدَاخِلَةِ كَاهِنٌ يَقْدُدُونَ بِهِ^(٣). وَبَعْدَ أَنْ تَعَرَّضْنَا إِلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْمُؤَلِّفِينَ. وَاخْتِلَافِ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ وَصْفِ نِظَامِ الْحُكْمِ عِنْدَ الْبَجَّةِ. إِلَّا أَنَّنَا نَقِفُ عَلَى أَنَّ نِظَامَ الْحُكْمِ الْمَذْبُوعِ عِنْدَ الْبَجَّةِ، اعْتَمَدَ عَلَى النِّظَامِ الْقَبْلِيِّ سِوَاءَ كَانَ ذَلِكَ فِي شُؤْنِ الْحُكْمِ، أَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي شُؤْنِ الْإِدَارَةِ.

وَرَبِمَا يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى طَبِيعَةِ الْبَجَّةِ الْبَدْوِيَّةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى الذَّنْقِ وَالتَّرْحَالِ وَعَدَمِ الْاسْتَقْرَارِ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّنَا نَرْفُضُ مَا قَالَهُ الْيَعْقُوبِيُّ^(٤) مِنْ وَصْفِ نِظَامِ الْحُكْمِ عِنْدَ الْبَجَّةِ، وَذَلِكَ لِكُونِ الْبَجَّةِ بَدْوٍ رَحِلٌ غَيْرٌ مُسْتَقَرِّينَ. وَإِنْ مِنْ بَعْضِ قَوْلِ الْيَعْقُوبِيِّ مَا هُوَ مُؤَيَّدٌ لِمَا نَقُولُهُ: فَقَدْ نَكَرَ فِي مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ: أَنَّ الْحِدَارِبَ وَالزَّنَافِجَ يَقْمُونَ فِي الْمَمْلَكَةِ الَّتِي يُقَالُ لِحُجْسِهَا نَقْدِسَ، وَعَاصِمَتُهَا هَجْرٌ^(٥) وَجَاءَ قَوْلُهُ فِي مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابٍ آخَرَ: "أَنَّ مَلِكَ الْحِدَارِبَةِ يَقِيمُ فِي مَمْلَكَةِ عَاصِمَتِهَا هَجْرٍ - يَعْنِي الْمَنْطَقَةَ الَّتِي بِهَا جَنْسُ نَقْدِسَ - وَمَلِكُ الزَّنَافِجَةِ يَقِيمُ فِي مَمْلَكَةِ آخَرٍ وَهِيَ بَقْلِينَ"^(٦).

وَيَسْتَدِلُّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ أَنَّ الْبَجَّةَ الزَّنَافِجَ كَانُوا فِي الْمَنْطَقَةِ الَّتِي يُقَالُ نَقْدِسَ، ثُمَّ أَصْبَحُوا فِيمَا بَعْدَ فِي مَنْطَقَةِ بَقْلِينَ وَقَدْ يَكُونُ الْعَكْسُ. وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الزَّنَافِجَ يَنْقَلُونَ مَا بَيْنَ مَنْطَقَةٍ وَأُخْرَى إِذَا فَهِمَ رَحِلٌ غَيْرٌ مُسْتَقَرِّينَ. وَإِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ الْبَجَّةَ الْحِدَارِبَةَ كَانُوا أَيْضًا غَيْرَ مُسْتَقَرِّينَ وَذَلِكَ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: "أَنَّهُمْ يَنْزِلُونَ خِيَامَ جُلُودٍ"^(٧) وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ مَا أَكَّدَهُ لَنَا بَنُ حَوَّلَ^(٨) بِقَوْلِهِ عَنِ الْحِدَارِبَةِ: "وَجَمِيعُهُمْ مَتَّجِعُونَ لَا حَاضِرَةٌ لَهُ". وَقَدْ يَكُونُ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ هُوَ الْبَحْثُ عَنِ وَسَائِلِ الْعِيشِ. وَهَذَا مَا أَكَّدَهُ لَنَا الْمُقْرِيزِيُّ^(٩) بِقَوْلِهِ: "وَهُمْ

(١) الْمُقْرِيزِيُّ: الْمَوَاطِظُ وَالْإِعْتِبَارُ ج ١ ص ١٩٥.

(٢) الْمُقْرِيزِيُّ: الْمَوَاطِظُ وَالْإِعْتِبَارُ ج ١ ص ١٩٥.

(٣) الْمُقْرِيزِيُّ: الْمَوَاطِظُ وَالْإِعْتِبَارُ ج ٢ ص ١٩٧.

(٤) تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ ج ١ ص ١٩٢.

(٥) الْبُلْدَانُ ص ٣٣٦.

(٦) الْبُلْدَانُ ص ٣٣٦.

(٧) صُورَةُ الْأَرْضِ ص ٥٤.

(٨) صُورَةُ الْأَرْضِ ٩-١٠.

(٩) الْمُقْرِيزِيُّ: الْمَوَاطِظُ وَالْإِعْتِبَارُ ج ١ ص ١٩٤.

يَدْعُونَ الْكَلًّا حَيْثَمَا كَانَ الرَّاعِي بِأَخْبِيَةِ مِنْ جَنُودٍ.

وبعد أن اتضح لنا أن هؤلاء البجة غير مستقرون. فهل ينطبق هذا التنقل وعدم الاستقرار مع واقع نظام الممالك التي تعتمد على النظام الملكي في شئون الحكم والإدارة ؟
فيجيب عن هذا السؤال ابن حوقل^(١) بقوله: "أن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة". فكيف يكون هناك سياسة مستقيمة ونظام حكم ثابت مع التنقل والترحال وعدم الاستقرار ؟ لذلك استكمل بن حوقل قوله عنهم : "وهؤلاء مهمنون في هذه الخصال".

ومجمل القول أن ما وصفه اليعقوبي بأن منطقة البجة تضم عدة ممالك، في كل بلد ملك منفرد - فيبدو أن قوله ممالك تعريف لا ينطبق عليه المفهوم الحالي الذي يدل عليه اللفظ - فهذه الممالك التي يشير إليها اليعقوبي لم تزد عن كونها زعمات أو مشيخات أو سلطة قبلية، لها أعمالها في مدينة أو بلدة قد تضم رقعة من الأرض للرعي وغيره، وربما كان في بعضها أخصاص للسكن أحيانا^(٢).

وبعد أن اعترضنا قول اليعقوبي، ووقفنا عليه وعلى حقيقته، يأتي قول ابن حوقل والمقريزي موضحا ومؤكدا بما أشرنا إليه سابقا، أن البجة ادبعت النظام القبلي لا الملكي في شئون الحكم والإدارة، ويتضح لنا هذا أكثر إذا ما قارنا قول اليعقوبي بقول بن حوقل والمقريزي.

● فقد أشار اليعقوبي^(٣) في وصفه أن المملكة الأولى: هي التي تقع ما بين حد أسوان شمالا إلى خور بركة جنوبا ويقال لها نقيس، وعاصمتها هجر وسكانها من البجة قبائل وبطون كثيرة ومن بينهم الحدارب. أما ابن حوقل^(٤) فقد اتفق في وصفه مع اليعقوبي في تحديد المكان وما يقيم به من الأجناس فذكر: أن الحدارب وبطونهم، وما خضع لهم من بطون، يقيمون في بلاد تتصل فيها بلادهم ببلاد الحبشة والذوبة ويتضح لنا اتفاق الوصفان عن المكان إذا ما قارنا قول اليعقوبي بقول المقريزي عن هجر. فيذكر اليعقوبي: "هي مدينة ملك البجة"^(٥) ويذكر المقريزي: "هي أقصى جزيرة البجة"^(٦).

ونستنتج من القولان أن الحداربة كانوا يقيمون في آخر بلاد البجة، من أرض الحبشة والنوبة، وهذا ما ذكره بن حوقل عن نهاية بلاد البجة بقوله: وينتهي حدهم ما بين الحبشة وأرض مصر وأرض النوبة^(٧) وبهذا يأتي ما ذكره بن حوقل من أن الحدارب ومن معهم تكون بلادهم المتصلة ببلاد الحبشة والذوبة، متفقا مع ما ذكره اليعقوبي في وصفه من تحديد المكان. ولكنه اختلف مع اليعقوبي في وصفه لنظام الحكم، فذكر: "أن هؤلاء الحدارب ومن معهم يتبعون النظام القبلي في شئون الحكم والإدارة بقوله يخضع الحدارب لرئيسين من شيوخهم، رئيس لكل بيت زمام ورئيس يسوسهم، وينقسمون إلى بطون، لكل بطن منها نحو مائة فخذ، لكل فخذ منها رئيس أو رئيسان"^(٨).

(١) صورة الأرض ص ٩ - ١٠.

(٢) الشاطر بصيني: تاريخ و حضرات السودان ص ١٤٧.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٩٢.

(٤) صورة الأرض ص ٥٦.

(٥) التبدان ص ٣٣٦.

(٦) المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

(٧) صورة الأرض ص ٥٠.

(٨) صورة الأرض ص ٥٦.

ويتضح لنا من هذا القول كيفية تطبيق النظام القبلي عند هذه القبائل وكيفية إدارتها، من جعل رئيس يكون بمثابة الحاكم لهذه القبائل، ورئيس يكون بمثابة القاضي لها، وتصدر منه رؤساء آخرين تنوب عنهم في باقي البدون والأفخاذ، حتى تكون صلة وصل بين هذه الأفخاذ ومشايخها في جميع المناطق.

ويأتي قول المقرري مؤكدا بوصف ابن حوقل، رافضا وصف اليعقوبي بقوله: "وكان لهم قديما رئيس يجتمع جميع رؤسائهم إلى حكمه وكان يسكن قرية تعرف بهجر"^(١) كما ذكر في موضع آخر: "أن لكل رئيس من الحدارية قوم من الزنافج في حملته كالعبيد يتوارثونهم"^(٢)

• وأشار اليعقوبي أن المملكة الثانية هي (بقلين). أما ابن حوقل فقد ذكرها باسم (تقلين)، ويبدو أن الاسم الصحيح هو ما ذكره ابن حوقل، أما ما ذكره اليعقوبي فيحتمل أن يكون خطأ، وقد يرجع هذا إلى النقل في جعل لتاء باء والفاء قافا^(٣) وكيفما كان الأمر فقد ذكر ابن حوقل عن هؤلاء البجة البادية، كان يحكمهم ملك مسلم، يتكلم العربية من قبل صاحب علوة^(٤).

وإن كان في وصف ابن حوقل هذا الاتفاق مع وصف اليعقوبي في نظام الحكم، فلا يكون هذا إلا في ظاهر القول، أما حقيقة القول فهو ليس حاكم عليهم، ولا هو النظام المتبع عندهم، بل هي طاعة عليهم لبلاد الذوبية، فكان نطاق حكم بلاد النوبة يقتصر على فرض نفوذها على هذه المنطقة، التي قد يأتيها البجة، لا حاكم على هذه القبائل ويتضح ذلك من قول ابن حوقل: ووسط هذا الوادي قري للبادية يتجمعونها للرعي حين المطر^(٥) ومعنى هذا أنهم قد يرحلون عن هذا الوادي في غير المطر، وبالتالي يسقط عنهم ولائهم وطاعتهم للنوبة، لكن نظام حكمهم القبلي ظل بينهم يعتمدون عليه في نطاق قبائلهم في شئون الحكم والإدارة.

• كما أشار اليعقوبي^(٦) في وصفه للمملكة الثالثة والتي تسمى (بازين)، وهي التي تجاور علوة من ناحية، وبقلين من ناحية أخرى. أما ابن حوقل فقد اتفق في وصفه مع اليعقوبي في تحديد المكان فذكر: "تجاور تقلين بازين"^(٧) ولكنه اختلف معه في وصف نظام الحكم بقوله: "ورياستهم بأيدي شيوخهم"^(٨) وبهذا يتضح لنا أن النظام المتبع في نظام الحكم هو النظام القبلي، كما يضيف في قوله: "وليس لأحدهم عليهم طاعة"^(٩) ويعني هذا أن حكمهم الداخلي اعتمد على النظام القبلي، في سلطة مطلقة سواء كانت داخلية أو خارجية. فليس عليهم طاعة ولا ولاء لأي سلطة أخرى. وهذا بخلاف ما ذكرناه سابقا عن القبائل التي سكنت وادي تقلين، وتأكيدا لما وقفنا عليه سابقا.

(١) المواعظ والاعتبر ج ١ ص ١٩٤.

(٢) المواعظ والاعتبر ج ١ ص ١٩٥.

(٣) القشاطر بصيلى: تاريخ و حضارات السودان ص ١٩٤.

(٤) صورة الأرض ص ٥٧.

(٥) صورة الأرض ص ٥٧.

(٦) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٩٢.

(٧) صورة الأرض ص ٥٧.

(٨) صورة الأرض ص ٥٧.

(٩) صورة الأرض ص ٥٧.

• وقد أشار اليعقوبي^(١) أن المملكة الرابعة هي جارين، وهي التي تقع ما بين مينا باضع على ساحل البحر الأحمر وبين خور بركة. وأشار أن المملكة الخامسة هي قطعة وهي الأخيرة وتقع ما بين باضع إلى مكان يقال له فيكون. أما ابن حوقل فقد أغفل في وصفه هاتين المملكتين، لكن يبدو لنا إن هذا يغطيه قوله: "وتقيم في شق بركة قبائل كثيرة"^(٢) وذلك لأن من الملاحظ أن هاتين المملكتين كانتا على ساحل البحر الأحمر ما بين سواكن ومصوع، وفي ظهريهما خور بركة^(٣).

أما عن نظام الحكم المتبع عند هذه القبائل، فمن المؤكد أنه النظام السائد عند جميع قبائل البجة، ألا وهو النظام القبلي.

وفي نهاية القول وبعد أن قارنا بين وصف اليعقوبي بوصف ابن حوقل للمقريري عن نظام الحكم المتبع عند هذه القبائل، وإن كان ينقصه بعض الشيء من التوضيح، إلا أنه جاء مؤكدا لما وقفنا عليه من أن نظام الحكم السائد عند البجة سواء كان في شئون الحكم أو في شئون الإدارة هو النظام القبلي. ولا تزال إلى اليوم تنظم شئون قبائل البجة بهذا النظام، فكل قبيلة رئيس ويسمى (الناظر) ويتولى شئونها العامة، ويكون حلقة الاتصال بين الحكومة والقبيلة^(٤).

ب- وراثـة الحكم

حرصت قبائل البجة على اتباع نظام وراثـة الحكم، وهو نظام يسود جميع الأمم والشعوب الأفريقية الحامية، ألا وهو نظام الوراثة المتعلق بالنسب إلا الأم فيذكر ابن حوقل^(٥) عن نظام وراثـة الحكم عن طريق الأم فيقول: "ومن سنة جميع السودان، إذا هلك الملك، أن يقعد ابن أخيه دون كل قريب وحميم من ولد وأهل". فليست قبائل البجة وحدهم الذين ينسبون أنفسهم إلى أمهاتهم، ولكن هذا النظام متبع لدى النوبيين وغيرهم من شعوب الأفارقة، وإن دل هذا فإنما يدل على أنه مظهر من مظاهر أهمية المرأة عند هذه الشعوب، فكان الغنى يعلو شأنه بعلو شأن خاله، ويظهر هذا في أحاديثهم وقصصهم وأغانيهم^(٦). فمن الثابت أن النسبة إلى الأم شيء مألوف عند الشعوب الحامية؛ وذلك لأن الأم كانت عماد الأسرة عند هذه الشعوب، حتى أن بعض العرب كانوا أيضا ينسبون أنفسهم إلى أمهاتهم^(٧). ويؤكد أيضا هذا القول المقريري^(٨) بقوله عن البجة نقلا عن بن سليم الأسواني فيقول: "وأنسابهم من

(١) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٩٢.

(٢) صورة الأرض ص ٥٥.

(٣) الشاطر بصيلى: تاريخ و حضارات السودان ص ١٤٩.

(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٣٨.

(٥) صورة الأرض ص ٥٧.

(٦) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٤٤.

(٧) عبد العظيم رمضان: الحدود المصرية السودانية ص ٣١٣.

(٨) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

جهة النساء.... فهم يورثون ابن البنت دون ولد الصئب" ويقولون: "إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، فإنه إن كان من زوجها أو من غيره، فهو ولدها على كل حال".

فيؤكد لنا هذا القول السبب في اتباع البجة لنظام الوراثة المتعلق بالمرأة بصفة عامة والأم بصفة خاصة.

وإضافة من هذا القول يتضح لنا الأسباب في اتباع البجة نظام الوراثة هذا، وهو أنه لا يكون اختلاف حول صحة النسب إلى الأم، فالأم هي الأم، ولن يحدث التباس في النسب إليها لذلك كان الميراث وتولية الحكم يفضل أن يكون عن طريق النسب إلى الأمهات^(١).

وربما يرجع ذلك إلى ما أشار إليه المقريري في موضع آخر من قوله على نساء البجة على أنه لا يكثرن دائما بالمحافظة على عفافهن، ومن ذلك يقول على النساء الصانعات للحراب: "وصناع هذه الحراب نساء في موضع لا يختلطن بهم رجل، إلا المشتري منهن. فإذا ولدت إحداهن من الطارقين لهن جارية استحيتهن، وإن ولدت غلام قتلته ويقلن: إن الرجال بلاء وحرب"^(٢).

ويأتي قول بن تغري بردي^(٣) مؤكدا هذا المعنى بقوله - نقلا عن ابن فضل الله الغمري فيقول: "إن سكان هذه البلاد لا فرق بينهم وبين الحيوانات الوحشية، لكونهم حفاة عراة، ليس على أحدهم من الكسوة ما يسترهم...." مكملا لقوله: "ولا يعترف أحد منهم بزوجة ولا بولد ولا بأخ ولا بأخت، بل هم على صفة البهائم ينزوا بعضهم على بعض".

وإن كان هذا القول به شيء من المغالاة والمحامة على هذه القبائل، إلا أنه يؤكد لنا بعض الاحتمالات في اتباع البجة نظام الحكم المتعلق بالأم.

ومهما كانت الأسباب التي جعلت البجة يحرصون على اتباع هذا النظام المتعلق بالأم. إلا أنه كان من أهم الوسائل التي جعلت العرب تبسط سلطانها على هذه القبائل عن طريق الزواج، وما يترتب عليه من حقوق تقضي بنظام وراثة الأم.

لذلك صار على العرب في الزواج من البجة، بعد أول لقاء حربي معهم في عام ١٠٧ هـ / ٧٢٥م ويذكر عن ذلك المقريري^(٤) فيقول: "ثم كثر المسلمون في المعين فخالطوهم وتزوجوا فيهم".

فمن المحتمل أن العرب عندما استقروا ببلاد البجة عند أول لقاء حربي معهم، أدركوا قيمة نظام الوراثة المتعلق بالأم عند هذه الشعوب. لذلك سارع العرب في الزواج من بنات البجة، وذلك ليضمنوا حق الإقامة الدائمة في هذه المنطقة بعد أن ضاقت بهم بلادهم.

وهناك من القبائل ما تطلع إلى السيطرة على هذه القبائل وبسط الهيمنة عليهم، وذلك لتحقيق مصالحهم السياسية والاقتصادية في هذه المنطقة.

ومن بين هذه القبائل التي تطلعت لذلك قبيلة ربيعة، فلم تقف هذه القبيلة على الزواج من بنات البجة فقط، بل

(١) عبد العظيم رمضان: الحدود المصرية السودانية ص ٣٠٧.

(٢) الأمواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

(٣) التجوم الزاهرة ص ٢٩٦.

(٤) الأمواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٥ - و عن أول لقاء حربي بين العرب و البجة نُظر فيما بعد معاهدة عبد الله بن الحبحاب.

سعوا إلى التزوج من بنات رؤسائهم وذلك لينجبوا أبناء يرثوا الإمارة عن أخوالهم، وفي ذلك يقول المقرئزي^(١) عن ربيعة: "وتصاهروا إلى رؤساء البجة".

فلا بد أن قبيلة ربيعة أدركت قيمة حق الوراثة عن طريق الأم، أي نظام الأمومة في وراثة الحكم. فتزوجوا رؤساء ربيعة من بنات رؤساء البجة؛ لينال أبناء هؤلاء العرب حقاً مشروعاً في السيطرة على قبائل البجة، حسبما يقتضيه هذا النظام الأموي^(٢). وبعد ما تحقق لربيعة مصاهرة رؤساء البجة، استفادوا من نظام وراثة الحكم عند البجة، فوجدت في السيطرة عليهم، وعلى أرض المعدن، بعدما أُنجبوا أبناء ورثوا الإمارة عن أخوالهم، فيذكر ابن حوقل^(٣) عن هذا في زمنه - أي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري أي في عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م تقريباً: "كان يرأس الحداربة اجمع رئيسان، هما عبدك وهو خال ولد أبي بكر إسحاق بن بشر صاحب العلاقي، وكوك وهو خال أبو القاسم حسين بن بشر".

ويتضح لنا من هذا القول أن إسحاق بن بشر أصبح رئيس الإمارة في العلاقي والتي جمعت بين عرب ربيعة وحداربة البجة، وكان ذلك عن طريق وراثته لها من خاله عبدك، حسبما يقتضيه نظام وراثة الحكم عند البجة. ومن المؤكد أن هذا النظام الوراثي عند البجة قد ساهم بدوره في بث العرب للفكر والتفافة الإسلامية والعربية في هذه المنطقة لتصبح بدورها مركز إشعاع إلى وسط أفريقيا.

ج- المنازعات و الخلافات الداخلية

إن الوضع الداخلي لقبائل البجة اتسم بالعداء و التمرد، و ذلك لطبيعتها الصحراوية لجافة، و هي التي صبغتهم بصبغتها القاسية، بعد أن تمرسوا بها حتى أصبحوا جزءاً منها، بعد أن عاشوا فيها آلاف السنين. فكثيراً ما تحملوا الشدائد و شظف العيش، و يكجزنون بالقليل من الزاد إذا تيسر، و يصبرون على الحرمان في أوقات الجهد و المشقة، و لكن يتغلب عليهم الطابع الحربي الذي اتسم بالعدوانية، فيلجئون إلى الغارات و السلب و النهب و الإفساد، و محاولة الهيمنة على المناطق التي تتوفر فيها وسائل العيش.

و أدى هذا بدوره إلى وجود الغارات و الغزوات بين قبائل البجة في هذه المنطقة، و كان كهنتهم (رجال الدين) تحثهم على هذا و تلجأ إلى الحيل للحصول على ذلك و يذكر عن ذلك المقرئزي^(٤) نقلاً عن بن سليم الأسواني فيقول: "و كان لكل بطن كاهن يضرب له قبة من أدم - خيمة الجدد - معبودهم فيها، فإذا أرادوا استخباره عما يحتاجون إليه، تعرى ودخل إلى القبة مستدبراً، ويخرج إليهم و به أدر جنون وصرع و يقول: الشيطان يقرؤكم السلام و يقول لكم: ارحلوا عن هذه الحلة - منزل القوم - فإن الرهط الفلاني يقع بكم، وسئلتكم عن الغزو إلى بلد كذا فسيروا فإنكم تظفرون، و تغنمون كذا وكذا، والجمال التي تأخذونها من موضع كذا هي لي، و التجارية الفلانية التي تجدونها في الخباء الفلاني، والغنم التي من صفاتها كذا، ونحو هذا القول

(١) المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ١٩٧.

(٢) مصطفى مسعد: البجة و العرب ص ٣٩.

(٣) صورة الأرض ص ٥٥.

(٤) المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ١٩٧.

.... فيزعمون أنه يصمدقهم في أكثر من ذلك فإذا غنموا، أخرجوا من الغنيمة ما ذكره و دفعوه إلى الكاهن".
ومن الملاحظ أن هذا القول ينقصه التوضيح في ذكر موقع الغزوات و الغارات بين أي منها و تحديد البلدان التي يقع عليها هذا الغزو، و ذكر الأحداث، إلا أنه يحمل في مجمله أن هذه الغزوات و الغارات كانت تقع بين قبائل البجة أنفسهم. وذلك لأنه ذكر: ما يطلبه الكاهن من الغنيمة، وهي الجمال و الجارية الموجودة بالخباء والغنم، وهذه الأشياء تتطابق مع بيئتهم ووسائل معيشتهم. لكن على أي حال من الأحوال يوضح الذريعة الحربية التي تتغلغل في نفوس أولئك البجة.

و لكن في قول آخر أكثر إيضاحا يوضح لنا أن المنازعات ربما تكون قد وقعت بين قبيلتين من قبائل البجة، و حاولت كل منها فرض هيمنتها على الأخرى، وكان هذا بين قبائل الحداربة والزنافجة فيذكر المقرئزي^(١): "أن الحدارب هم شوكة القوم ووجوههم ... وما وراء ذلك آخرون يعرفون بالزنافج هم أكثر عددا من الحدارب غير أنهم تبع لهم وخفرائهم يحمونهم و يجبونهم المواشي، و لكل رئيس من الحدارب، قوم من الزنافج في حملته، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الزنافج قديما أظهر عليهم".

فما لا شك فيه أن هذه العناصر البجاوية من الحداربة و الزنافج، حاول كل منها فرض سيطرته و هيمنته على الآخر، و لا يكون هذا إلا من خلال النزاع السياسي و الحربي ووسائله من غزو و غارات. فمن المحتمل أن الزنافج كانوا فيما سبق عنصرا بارزا على الحداربة و غيرهم من قبائل البجة، فحاولت الحداربة أن تقضي على نفوذ هذه القبيلة، فكانتا دائما في نزاع و خلاف مستمر، حتى تمكن الحداربة في النهاية أن ينتزعوا نفوذهم، و يتضح هذا في القول السابق: "لكل رئيس من الحدارب قوم من الزنافج في حملته كالعبيد يتوارثونهم بعدما كانوا أظهر عندهم". فبذلك أصبحوا العنصر البارز بين قبائل البجة، وأقاموا في النهاية طبقة حاكمة، لم يخضع لها الزنافج فقط، بل خضع لها معظم قبائل البجة. و مما يؤكد هذا القول قول ابن حوقل^(٢) فيذكر: "أن هناك بطون في مقابل سواكن، تعرف برقابات وحديبا، و كانوا خفراء للحداربة".

ومن خلال القول السابق يتضح لنا أن الحداربة بعدما تحقق لهم أن ينتزعوا نفوذ الزنافج، اتجهت سياستهم بعدما أتيح لهم ذلك، إلى بسط نفوذهم على باقي القبائل و البطون الأخرى مثل بطون برقابات و حديبا، حتى أصبحوا في النهاية طبقة بارزة خضع لها قبائل البجة.

ويؤكد هذا المقرئزي^(٣) بقوله: "و كان لهم رئيس - أي البجة - يرجع جميع رؤسائهم إلى حكمه، يسكن قرية تعرف بهجر و هي أقصى جزيرة البجة". ويؤكد اليعقوبي^(٤) أن هذه البلدة هي التي يقيم فيها رئيس الحداربة فيذكر: "ومدينة ملك البجة الحداربة يقال لها هجر".

وخلاصة القول أن قبائل البجة قد تعرضت لحروب داخلية و غزوات قبلية و خلافات و منازعات، و ذلك لفرض السيادة والسيطرة على مصادر العيش في هذه البيئة القاسية، وما هذا إلا صورة من صور النزاع

(١) المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ١٩٥.

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٦.

(٣) المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

(٤) البلدان ص ٣٣٦.

القبلى الذى اتصفت به حياة القبائل البدوية سواء كانت بجاوية أو غيرها.

وصفوة القول أن إقليم البجة وقبائلهم يعد من أهم أقاليم الجنوب المصري، والذي ساهم بشكل مباشر في نشر الثقافة العربية والإسلامية في السودان الأوسط والشرقي؛ وذلك بفضل الاحتكاك العسكري الخارجي بين العرب والبجة خلال فترات متعاقبة، لمدة زادت عن أربعة قرون من الزمن، نتج عنها عدد من المعاهدات التي كان بموجبها أن أمن العرب الاستقرار في بلاد البجة. وبالتالي أدى لظهور مظهر آخر للاحتكاك بين العرب والبجة، ألا وهو الاحتكاك الداخلي والذي يتمثل في الارتباط الاجتماعي، والذي نتج عنه ظهور جيل جديد يحمل صفات البجة وأصول العرب ويدين بالإسلام ليعمل بعد ذلك على نشر الإسلام والثقافة العربية في المنطقة الجنوبية من خلال دور حيوي لا ينكر فضله التاريخ في طبيعته.

الفصل الثالث :

مظاهر الحياة الاقتصادية عند البجة

أولاً: الزراعة و الرىّ وتمثل فى:

- أ - موارد الماء و الرى. ب - أنواع المحاصيل. ج - معيشة
الفلاح.

ثانياً: الرعى و الثروة الحيوانية ويتمثل فى:

- أ - حرفة الرعى. ب - الثروة الحيوانية.

ثالثاً: الصناعة وتمثل فى:

- أ - المواد الأولية. ب - أهم الصناعات.

رابعاً: التجارة وتمثل فى:

- أ - التجارة الداخلية وتمثلت فى:

١ - مراكز التجارة وأهم الأسواق

٢ - أهم السلع التجارية

- ب - التجارة الخارجية وتمثلت فى:

١ - أهم الطرق

٢ - الموانئ التجارية

يتوهم الإنسان أن هذه المنطقة الصحراوية القاحلة تخلو من النشاط الاقتصادي ودرويه، ولكن الحقيقة أن هذه المنطقة شهدت نشاطاً بارزاً في مجال الحياة الاقتصادية في العصور الوسطى، وذلك لما حظيت به من مقومات جغرافية طبيعية، وظروف مناخية وموارد مادية، إضافة إلى العناصر البشرية التي أجادت التعامل مع مثل هذه الظروف والاستفادة منها في دروب النشاط الاقتصادي، وفي النهاية تكاثفت عليها هذه العوامل مما جعلتها تدبوا مكانه مرموقة في هذا النشاط لا على المستوى الإقليمي بل على المستوى العالمي، ويمكن لنا معرفة المجالات الاقتصادية عند البجة من خلال الآتي:

أولاً: الزراعة والري

ليس من المنتظر في بيئة تغلب عليها الصفات الصحراوية في معظم جهاتها، أن يكون فيها للزراعة شأن كبير، ومع ذلك هناك جهات متفرقة أمكن أن تنشأ فيها حياة زراعية، ولكن لم تكن تمارس بحساس وإخلاص مثل الشعوب المزارعة، لأن شأن البجة في ذلك شأن جميع الرعاة في جميع الأقطار.^(١)

وقد ذكر ابن حوقل أن في الوقت الذي كان يمارس فيه البجة حرقهم الأساسية الرعي، كان على الجانب الآخر جماعة منهم تمارس حرفه جديدة وهي الزراعة فيقول: "أن أرض دجن (دنيا الجاش) كما تعرف حالياً - كانت قري متصلة ذوات مياه ومشاجر وزرع وضرع، ثم ذكر أن وسط الوادي تفلين - أي في الجانب الذي يقع بين نهر دجن وخور بركة - تقع قري للبادية ينجعونها للرعي حين المطر ويربون الإبل والبقر"^(٢) ويعني هذا أن هذه المنطقة تضم حوض دجن وسكانه من المشتغلين بالزراعة وهذا يدل على استقرار حياتهم وعلاقتهم بالأرض، أما القسم الثاني فكانت تسكنه مجموعات تعيش في البادية على الرعي، وحيواناتهم الإبل والبقر^(٣).

ومن المرجح أن البجة قد عرفوا الزراعة زمناً طويلاً، ولكن دون أن يمارسوا تلك الحرفة أو يقلدوا من يحترفها - ولا شك أنهم منذ زمن طويل جدا عرفوا فائدة الغلات الزراعية، وعلى الأخص الحبوب، وحصلوا عليها واستخدموها في غذائهم، دون أن يفكروا في استنباطها بأنفسهم، وحسبهم أنهم كانوا يحصلون عليها: إما بالإغارة على الزراع وسلبهم إياها، وإما بالمبادلة. وظل البجة وقتاً طويلاً في الحصول على حاجتهم من الغلات الزراعية بأحدى هاتين الوسيلتين، ومن الجائز أن البجة قد مارست الزراعة، مقلدين لجيرانهم من المستقرين الملازمين لحقولهم ومزارعهم^(٤).

ويمكن أن نؤكد هذا القول بما أورده اليعقوبي^(٥) فنذكر: "أن القوم الذي يقال لهم (بازيين) من البجة، وهم الذين يجاورون علوة من النوبة، وبقلين (تقلين) من البجة، زرعه الذي يأكلونه الذخن وهو طعامهم". ويعني هذا أن البجة الذين يجاورون النوبة يشتغلون بالزراعة، وهذا لأن النوبة شعب مزارع حيث كانت

(١) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٤٩

(٢) صورة الأرض ص ٥٧

(٣) الشاطر بصيلى : تاريخ وحضارات السودان ص ١٤٩

(٤) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٥٢

(٥) اليعقوبي : تاريخه ص ١٩٣

للزراعة عندهم شأن كبير، وهذا بفضل نهر النيل ويؤكد ذلك ابن حوقل بقوله عن النوبة: "إن نيل مصر يخرق مدنها ونواحيهم، وإن قراهم عامرة خصبة كثيرة التمر والزرع والخضر"^(١).

ومن الواضح أن البجة قد مارسوا الزراعة، مقدّبين لجيرانهم النوبة، وهذا بخلاف البجة الغير مجاورين لهم، مثل الذي يقيمون في تغلين فقد اعتمدوا في معيشتهم على الرعي واقتناء الإبل والبقر.

ومن المراجع أن البجة مارسوا الزراعة، وذلك لما وجدوه في أرضهم من مقومات إيجابية، ساعدتهم على زراعتها بسهولة ويسر، فقد حظيت البيئة البجاوية على تنوع ملحوظ في التضاريس أدى إلى تنوع المناخ الذي ساعد على تواجد المياه المناسبة للزراعة، وإن كانت تغلب عليها قلة المطر عامة. والطبيعة الصحراوية التي تسودها في الشمال، فهي لا تخلو من بعض الجهات التي يتنوع فيها المطر بين الشتاء والصيف، وهذا عدا الأنهار التي تجري في أجزاء منها مثل خور بركة وخور الجاش، والأنهار التي تجري بالقرب منها مثل العطبرة، ليؤدي هذا في النهاية إلى سهولة الزراعة وتنوع النباتات^(٢).

وقد جاء وصف ابن حوقل عن أرض البجة مطابقاً لما ذكرناه، من أن أرض البجة احتوت في بعض المواضع على المياه المناسبة للزراعة فقد ذكر: "إن هناك بعض المواضع تسمى (قلعيب) وهي أودية متصلة ذات مياه، وتتصل بجبل يسمى (ملاحيب) وأكبر أوديته وادي بركة، ثم أضاف إن من الحد الشرقي الجبل ملاحيب يتصل به وادي يعرف (ببصيفوات) وهو كثير الماء أيضاً، كما ذكر أن هذا الجبل أخذ بأوديته من نواحي البحر الأحمر إلى (تكن) وهي أرض مزارع وأحواف يجري إليها ماء النيل ويزرع عليها الذرة والدخن"^(٣).

ومن الملاحظ من قول ابن حوقل إن أرض البجة احتوت على الأودية والأراضي العامرة بالزرع والضرع، واعتماداً في ربتها بالأخوار والأنهار، إضافة إلى ذلك أنه حدد أنواع المحاصيل المزروعة من الذرة رفيعة ودحن.

ويمكن لنا عرض ذلك بشئ من التفصيل في نقاط تتمثل في: الري ومواد الماء، وأنواع المحاصيل، ومعيشة الفلاح.

أ- الري وموارد الماء:

لكي نحدد نوع الري المستخدم عند البجة. سواء كان حوضي أو فيضي أو راحة، لابد لنا أن نقف على موارد الماء. ولكي نقف على موارد الماء لابد لنا من تحديد المناطق المنزرعة ووسيلة ربتها، فقد ذكرنا منها بعض الأودية في قول ابن حوقل سابقاً، إضافة إلى ذلك بلدنا كسلا وطوكر وبعض السهول مثل سهل البطانة، وبعض الأقطار كالمناخمة لحدود الحبشة، فاعتمدت في ربتها على الأنهار والأخوار والأمطار في بعض الجهات.

(١) صورة الأرض ص ٥٦

(٢) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٢٥

(٣) صورة الأرض ص ٥٤ ، ٥٥

فأول موارد الري النهر المعروف بالدجن، كما ذكر ابن حوقل وذكر: "أنه يأتي من بلد الحبشة فينقطع في أعمال دجن ومزارعها"^(١) والنهر الذي ذكره ابن حوقل بالدجن يعرف حالياً بخور الجاش أو القاش، كما إن أعماله ومزارعه التي ذكرها هي أيضاً دلتا القاش كما تعرف حالياً^(٢).

وخور القاش ينبع من أقصى شمال الهضبة الحبشية جنوب أسمره نحو ٢٥ كيلو متراً، ويمثل مجراه الأعلى الحد الفاصل بين إريتريا والحبشة، بعد التقائه برافده بلسا، ثم يصبح مجراه بعد ذلك في إريتريا إلى ينتهي بدلتاه الفيضية في سهول السودان قرب كسلا، ويعرف جزءه الأعلى باسم مأرب وهو شديد الانحدار متوسط العمق، ولكنه يختلف عن ذلك في سهول السودان حتى يصبح نهراً واسعاً قليل العمق، ويتجه مجراه الأعلى نحو الشمال الغربي، ولكنه بعد أن يصل إلى سهول السودان عند جندسا، يتجه نحو الشمال، وبعد أن يمر بالسفح الغربي لجبل كسلا يصل إلى رأس الدلتا، ومن كسلا ينبع الخور الشرقي الذي يعتبر الحد الشرقي للدلتا فيما عدا أطرافها الشمالية، أما الفرع الغربي للجاش فيستمر في اتجاهه في الشمال الغربي ليكون الحد الغربي للدلتا^(٣).

وبذلك تمتد دلتا الجاش برأسها بعد كسلا بقليل على هيئة مروحة فيضية في اتجاه شمالي غربي لنحو مائة كيلو متر، وتنددر مباشرة نحو الشمال، ودرجة أقل نحو الغرب، وهي وإن كانت حدودها الشرقية والغربية غير محدودة بدقة، إلا أن مساحتها تقدر نحو ٧٠٠ ألف فدان، كما يتخللها بعض الأخوار الفرعية، وهي أخوار عرضية بين الفرعين الشرقي والغربي للدلتا، وأهمها خور السلام عليكم^(٤).

كما أن فصل فيضانه يبدأ من أوائل يولييه ويستمر إلى أواخر سبتمبر، وهو فيضان سيدي شديد التدفق حاملاً معه كميات ضخمة من الطمي العالق بالمياه، وقد تبلغ كميته ستة أمثال ما يحمله نهر النيل من طمي في فيضانه^(٥).

- ويأتي ثاني مورد للمياه في أرض البجة كما ذكر ابن حوقل أنه خور بركة وقال عنه: "إنه يجري من بلد الحبشة مجازاً على بازين وأخذ إلى ناحية البجة وينصب بين سواكن وباضع في البحر المالح"^(٦).
وخور بركة ينبع من شمال الحبشة عند خط عرض ١٥ تقريباً، ويسير في معظم مجراه في اتجاه يكاد يكون شمالياً، وهو يتكون في إريتريا من رافدين هما بركة وعنصبة، ويتصل به عند دخوله السودان خور (لانجيب) - الذي يأتي من المرتفعات الواقعة شمال دلتا الجاش - وبعد اتصاله بخور لا نجيب يصبح خور بركة منحدراً أكثر اتساعاً، وجنوب شرق طوكر بـ ٣٣ كم يدخل النهر في خائق ضيق يمر بجنادل شدن،

(١) صورة الأرض ص ٥٧

(٢) التسلط بصيني : تاريخ وحضارات السودان ص ١٤٩

(٣) السودان دراسة في الوضع الطبيعي و الكيان البشري و البناء الاقتصادي: تأليف محمد محمود اصبيا و/ محمد عبد القى

سعودي، القاهرة ١٩٦٦، ص ٤٣

(٤) السودان دراسة في الوضع الطبيعي ص ٤٤

(٥) نفسه ص ٤٥

(٦) صورة الأرض ص ٥٧

وبعدها يصبح أقل انحدارا بمساحة ٦ كم، ثم يدخل النهر في السهول الساحلية ليبدأ في التفرع إلى ثلاث فروع رئيسية تحمل المياه إلى شرق ووسط وغرب الدلتا.

ويظهر فيضان بركة أكثر عنفاً وعدم انتظام من القاش، فهو يحدث على هيئة دفعات قوية عنيقة، ويبدأ من منتصف يوليو حتى منتصف سبتمبر، ويحمل في فيضانه كميات طمي أكبر بكثير من تلك التي يحملها القاش، ليكون في النهاية دلتا مروحية تقدر بمساحة ٣٨٦ ألف فدان على بعد ٩٠ كم من سواكن^(١).

- إما نهر العظيرة يأتي بدوره ليكون المورد الثالث للري في بلاد البجة، وهذا لأنه يمثل جزءاً من الحدود الغربية لمواطنهم^(٢)، وهو تدبجة اتحاد عدة أنهار وروافدها تدبج في إقليم غندار، حيث ينبع فيه نهر دار السلام وروافده وهما عنجريب وجرما، وفي هذا الإقليم أيضاً ينبع نهر أجوانج وغندوئة ومنابعهما، ثم يتحدان مع نهر دار السلام، ليكونوا في النهاية من اتحادهم نهر العظيرة، وعلى مسافة يتصل به رافد آخر، غير أنه أهم روافده على الإطلاق وهو نهر تكازي أوسيت " وهو ينبع من شرق الحبشة عند خط عرض ١٢ تقريباً، ويرسم مجراه انحنائين كبيرين بين خطي الشمال ١٢، ١٤ تقريباً ويشبه حرف Z"، وبعد التقاء تكازي بالعظيرة، يمتد العظيرة إلى سهول السودان ليصب في النهاية في نهر النيل، ويتميز بشدة انحداره، وحمل كميات كثيرة من الطمي إلى نهر النيل وهذا بخلاف غيره من الأنهار التي تصب في نهر النيل وذلك نسبة إلى حجمه وطوله، كما إنه يختلف في فيضانه عن بقية الروافد الحبشية وذلك لأنه يكاد يجف لمدة خمس أشهر في السنة (من يناير إلى مايو) وباقي السنة يمثل بمياه الفيضان غير إن أكثر مياهه تكون في أغسطس^(٣).

- ويأتي المورد الآخر والأخير من موارد الري عند البجة إلا وهو المطر حيث تسقط الأمطار بوفرة وغزارة في بعض الأقطار مثل سهل البطانة، وبعض الأقطار الجنوبية المتاخمة لحدود الحبشة، وامتازت تلك المناطق بخصوبة التربة ورطوبتها، وهذا أدى إلى جني محصول وافر لأقل مجهود يبذل^(٤).

ونهاية الحديث عن موارد المياه في أرض البجة، نرى تعدد ملحوظ في مصادر الري في عدة مناطق، وإذا طبّقناها لوجدنا أنها مصادر مؤقتة ليست دائمة، فهي مياه عبارة عن سيول وفيضانات صيفية تستمر في المتوسط ثلاثة شهور تبدأ في نهاية يونيو أو بداية يوليو، وبالتالي يكون نوع الري المستخدم فيضاني ورغم هذا ساهم بدوره في إنشاء مزارع وفرت لهم الغلات الزراعية التي استخدموها في غذائهم وإطعام حيواناتهم.

ب - أهم المحاصيل:

من المؤكد أن المحاصيل الزراعية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بعوامل زراعتها، فيحدد نوع المحصول تبعاً لمصدر الري، ونوع التربة، ودرجة حرارة الجو. ومن الملحوظ أن مصادر الري في أرض البجة تكاد تكون

(١) السودان دراسة في الوضع الطبيعي ص ٤٥-٤٦

(٢) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٢٣

(٣) السودان دراسة في الوضع الطبيعي ص ٧٣-٧٥

(٤) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٥٠

كلها صيفية، كما أن نوع التربة جافة في جهات منها رملية، أما درجة حرارة الجو فإنها تصل إلى أعلى درجاتها، وبذلك كان لهذه العوامل دورا هاما في تحديد نوع المحصول، وقبل أن نتعرض لمعلقة الربط بين عوامل الزراعة في أرض البجة بالمحاصيل الزراعية - لابد لنا من معرفة هذه المحاصيل وما يناسبها لزراعتها.

فقد ذكر اليعقوبي نوع من هذه المحاصيل وقد اعتمدوا عليها في غذائهم فيقول: "إن من البجة ما يسموا باسم بازين إن زرعهم الذي يأكلونه الذخن وهو طعامهم"^(١)، وتأكيدا لقول اليعقوبي عن أنواع المحاصيل عند البجة ما ذكره ابن حوقل فقد ذكر: "إن ناحية البحر الأحمر توجد أودية هي أرض مزارع يجري إليها الماء، ويزرع عليها الذرة والذخن"^(٢)

ومن خلال قول اليعقوبي وابن حوقل يتبين لنا أنواع المحاصيل التي كانت تزرع في أرض البجة، وهذه المحاصيل تتمثل في الذرة الرفيعة والذخن، وهي عبارة عن محاصيل حبوب غذائية، اعتمدوا عليها في غذائهم وإطعام حيواناتهم، ويبدو أنهم زرعوا هذه المحاصيل بالأخص، لما لها من مميزات تتناسب مع بيئتهم.

- الذرة الرفيعة^(٣): وهي محصول صيفي يزرع في المناطق الاستوائية والجافة، بشرط أن تتوفر لها الكمية الكافية من المياه للري، ودرجة حرارة تتراوح ما بين ٢٦ ، ٣١ درجة مئوية، كما أنه يتحمل الجفاف بخلاف غيره عن المحاصيل الزراعية الأخرى، كما أنه يتناسب مع جميع أنواع التربة ويتحمل الملوحة والقلوية والجفاف، وتأتي مواعيد زراعية ابتداءً من مارس ويمتد حتى أغسطس، والأفضل مايو ويوليو.

- أما الذخن^(٤): فهو أيضاً محصول صيفي سريع النمو، ويزرع في المناطق الدافئة، ويتحمل الجفاف بدرجة عالية أكثر من الذرة الرفيعة، وأفضل درجة حرارة مناسبة لزراعته هي ٢٠ - ٢٨ درجة مئوية، كما إنه يناسب جميع أنواع التربة ما عدا سيئة الصرف وأفضلها الطينية والرملية الجيدة الصرف، وتأتي مواعيد زراعته خلال شهري مايو ويونيه.

ومن الملاحظ أننا إذا ما طابقنا عوامل الزراعة في بيئة البجة، مع المحاصيل المزروعة، نوجدناها مناسبة للغاية، فنلاحظ أن مياه الأخوار والأنهار والأمطار يتناسب مواعيد توافرها مع مواعيد زراعة المحاصيل، وكما نوع التربة ودرجة الحرارة في هذه البيئة وفرت المكان والجو المناسب لنمو هذه المحاصيل. أما المحاصيل فقد امتازت بأنها سريعة النمو والذخج، كما وفرت الحبوب الغذائية لهم والأعلاف المناسبة لحيواناتهم.

ج- معيشة الفلاح:

تقد اختلفت حياة الفلاح البدائي وأسلوب معيشته عن الراعي، وإن كان في الأساس يمارس حرفة

(١) اليعقوبي: تاريخه ص ١٩٣

(٢) صورة الأرض ص ٥٥

(٣) د/ عبد العظيم عبد الرحمن مولى، وم / يحيى حسن مكاي: محاصيل الحقل تلتص الأول بالمدارس الثانوية الزراعية، وزارة

التربية والتعليم ط ٢٠٠٨/٢٠٠٩ ص ١٢١-١٢٣

(٤) محاصيل الحقل ص ١٣٦-١٣٨

الرعي واعتمد عليها كوسيلة معيشة، ولكنه عندما بدأ تقلد الشعوب المزارعة - كان حتما عليه من تغير أسلوب حياته، وكان هذا واضحا في مسكنه واقتناء الحيوانات ويتضح لنا هذا من قول ابن حوقل فيذكر: " إن من البجة وهم الذين يعرفون ببازين يقيمون في أخصاص كالقري، ولهم لماشية من البقر والزرع"^(١).

ومن الملاحظ من قول ابن حوقل عن المسكن وإن كان بسيط يتكون من عيدان وسيقان الذرة أو الحطب أو غيرها. لكنه يكاد يكون دائم، وذلك لما تحتمه عليه حياة الزراعة من الاستقرار بجانب المحصول لحراسته وخدمته وحصاده، وهذا بخلاف حياة الرعي التي تعتمد على التنقل والترحال، وكان لهذا أثره في المسكن لذلك استخدموا الجلد والشعر في بنائه حتى يسهل حمله ونقله.

كما أن الزراعة كان لها أثرها في اقتناء الحيوانات المناسبة لذلك، لذلك اعتمدوا على البقر دون غيره من الحيوانات الأخرى وذلك لما له من دور في زراعة الأرض من الحرث والحمل والحصاد وغير ذلك من الأعمال الشاقة التي تتطلبها الزراعة، وهذا بخلاف الرعويين الذين يقتنون الإبل لأنه يتناسب مع التنقل والترحال ويتحمل المشاق من الجوع والعطش.

ثانيا: الرعي والثروة الحيوانية

أ - الرعي:

على الرغم من احتراف بعض البجة الزراعة، وتعدد أنواع المزارع، وضرورة الغلات الزراعية لاستكمال التغذية، كان الرعي هو الحرفة الأساسية لجميع البجة على الرغم من اختلاف قبائلهم وأوطانهم، وإن كانت قد تعددت ضروب النشاط الاقتصادي في العصور اللاحقة، فهذا لا يخفي الحقيقة الأساسية وهي أن البجة شعب من الرعاة. ومن الممكن أن نتصور أنهم في حين من الدهر لم يكن البجة يحترفون حرفة أخرى سواها^(٢) ويبدو أنهم أظهروا فيها براعة فائقة، وقد لاحظ هذا الشعوب القديمة منذ فجر التاريخ فقد وجدوا لوحة جدارية محفورة في معبد أضرحة الأسرة لثانية عشر في مير - على بعد ٥٠ كم جنوب مدينة أسبوط الحالية - ويظهر بهذه اللوحة رجال من قبائل البجة وهم يرعون قطع من الماشية، تحت نظر ثلاثين عين من المصريين، مع ظهور ملامح البجة بصدورهم العريضة وأجسامهم الذليلة وشعرهم الكثيف^(٣).

وهذا يؤكد لنا مدى ارتباط البجة بالحياة الرعوية منذ عهد الفراعنة، فهم شعب موطن الأسس بالحياة الرعوية منذ فجر التاريخ، فهذه حقيقة أساسية لا يمكن إغفالها، لذلك لاحظها العرب عند بداية احتكاكهم بهم ، وقد أشار كثير من المؤلفين العرب إلى ذلك منهم البلاذري^(٤) إذ يقول عنهم: "إنهم أهل بادية وأصحاب إبل"،

(١) صورة الأرض ص ٥٧

(٢) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٢٣

(٣) روبرت بيرج : المجاى / البجة و الفراعنة، ترجمة: محمد جعفر أبو بكر مقال منشور بتاريخ ٩ يونيو ٢٠٠٧م بموقع

(www: sudaneseonline.com)

(٤) فتوح البلدان ص ٢٤٠

وكذلك الطبري^(١) قال: "إنهم قوم أهل بدو وأصحاب إبل وماشية"، أما الاصطخري^(٢) فقال عنهم: "ليس لهم قري ولا خصب فيه غذاء، إنما هم بادية لهم نجب".

أما المقرئ فينتطبق بقوله - نقلا عن ابن سليم الأسواني - مع سابقه ، ولكنه أضاف كيفية المسكن للراعي فيذكر: "إنهم بادية يتبعون لكلاً حيثما كان الرعي بأخبية من جلود"^(٣)، أما ابن حوقل فجاء بصورة تفصيلية عن البجة الرعويين فيذكر قائلا: "إنهم أصحاب أخبية شعر وأنهم بادية أغنام مدوغون في الجبال والآجام في عدد لا يحاط به"^(٤)، وفي موضع آخر يذكر كيف يتنقل أولئك البجة الرعاة إلى أماكن سقوط المطر بحثاً عن المراعي، فيذكر عن البجة الحدارية "إنهم بدو غير مستقرين، يتنقلون في طول البلاد وعرضها، وتكون بلادهم التي تمطر وتزرع، يقيمون فيها بمواشيهم طولا نحو شهرين، وتمتد من الذيل إلى البحر الأحمر، فيقضون شتاهم قرب ساحل البحر، والصيف في بطون الأودية، والخريف جهة الغرب قرب الذيل، وغير هؤلاء البجة يقيم آخرون في بعض المناطق التي يسقط فيها المطر أيضاً وهي مناطق تقع في إقليم تفلين وسط وادي دجن (الجاش)"^(٥).

ومن الملحوظ من إشارة المؤلفين العرب من كون البجة رعاة، أشاروا إلى كيف حاول أولئك الرعاة من توفير البيئة المناسبة لحيواناتهم، وكان هذا من خلال التنقل والترحال إلى المناطق المطيرة، التي ساهمت بدورها في أن توفر الكمية المناسبة من المشرب والمأكّل من الأعشاب والنباتات لإطعام حيواناتهم، وإنما جلّ اهتمام أولئك الرعاة بهذه الحيوانات ورعايتها لأنها مصدر طعامهم الذي اعتمدوا عليه في هذه الصحراوات القاحلة، وقد أشار إلى طعامهم هذا ابن حوقل فقال: "وطعامهم الذي يأكلونه اللحم واللبن"^(٦).

وبما أن حياة الراعي اختلفت عن غيره، واعتمدت على التنقل وعدم الاستقرار، كان حتماً عليه أن تقضي حياته بأن يكون المسكن خفيف يسهل نقله وبناءه، فقد كان يصنع كما أشار المؤلفين العرب إما من شعر أو جند.

وبما أن الزراعة كان لها أثرها في اقتناء الحيوانات التي تتناسب معها فأشار المؤلفون العرب من حديثهم، إن للراعي أثره في اقتناء الحيوانات التي تتناسب مع هذه الحرفة من تنقل وترحال وقلة الأعشاب والمياه في بعض الأحيان، ولا يمكن الحصول عليها إلا بقطع المسافات البعيدة، في مسالك وعرة في الجبال والافيا في الواسعة في الصحراء، ولا يتناسب مع هذه البيئة غير حيوان له مميزات تتناسب معها. إلا وهو الإبل فقد انفقت إشارة المؤلفين العرب على مدى عصورهم من اقتناء البجة الرعويين للإبل، وإن ذكر بعضهم أنهم امتلكوا بعض القطعان الأخرى من الماشية والغنم والماعز. ويمكن لنا عرض هذه من خلال النقطة التالية.

(١) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤

(٢) تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٣

(٣) المسالك والممالك ص ٢٢

(٤) صورة الأرض ص ٥٠

(٥) صورة الأرض ص ٥٧

(٦) صورة الأرض ص ٥٦

ب - الثروة الحيوانية:

بما أن البجّة شعب موطن الأسس بالحياة الرعوية، كان الركن الأساسي والعنصر المهيمن هو امتلاك القطعان الضخمة من الحيوانات، وكانت الإبل في المرتبة الأولى ثم يليها الغنم والماعز والماشية، وبما أن الإبل كان أهمها، وليست القطعان الأخرى سوى أجزاء متممة لثروة الحيوانية، ولا وجه مقارنة بينها وبين الإبل في الأهمية عند البجّة.

ومن المؤكد أن دخول الإبل إلى أفريقيا كان عن طريق سيناء، وقد ظهرت له في مصر بقايا ضمن آثار الأسرة الأولى (التاسعة والعشرين)، ومع ذلك فإنه لم يستخدم بكثرة إلا في العهد الروماني، والجدير بالذكر إن دخوله إلى السودان كان من ناحية الشمال عن طريق مصر، ويرى الباحثون أن وقت دخوله السودان كان في القرن الرابع قبل الميلاد، وقد لوحظ ذلك في أثر كتابي في آثار دولة أكسوم، لكن بعض الباحثين يرون أن دخوله في الواقع واستخدمه كان في تاريخ سابق لسنة ٢٥ ق. م ، لأن المقبرة التي عثر فيها على تمثال برونزي للجمل كانت لحاكم تولى الحكم في دولة مروى فيما بين سنة ٢٥ - ١٥ ق. م ، وافترض دخوله السودان في عهد مملكة مروى معقول للغاية، خصوصا وأنه لم يستخدم في مصر على نطاق واسع إلا بعد انقضاء الحكم الفارسي في عام ٣٣٦ ق. م^(١).

وإن كان الوقت الذي بدا فيه البجّة يقتنون الإبل غير معروف، لكن من المحتمل أن الإبل بعدما دخل مصر انتشر في أرجائها حتى تسرب إلى الجنوب، في وقت كان فيه البجّة قد عرفوا كيف يربون الماشية وإن كانت من أنواع أخرى، ولابد أنهم قد أدركوا ما للإبل من فائدة فأقبلوا على تربيتها في عناية فائقة، وإن كنا لا ندري متى بدأ البجّة يربون الإبل، لكن براعتهم فيها اليوم تدل على أن عهدهم بها ليس حديثا^(٢)، ومن الجائز أن البجّة عندما بدعوا يقتنون الإبل قد عرفوا بعض القواعد الأساسية لتربيتها من الجماعات التي أخذوا عنها هذا النوع الجديد من الحيوان، ولكن لا شك أنهم زادوا كثيرا على ما تعلموه وتخصصوا في تربيتها على طريقتهم وأساليبهم حتى أصبحت نوعا مميزا خاص بهم ينسب إليهم^(٣).

لذلك قد نشاهد كثير من إشارة المؤلفين العرب إلى القول بذلك فقد نكر كل من ياقوت الحموي^(٤) والبيغادي^(٥) أن لهم إبل فرهة (حسنة) تنسب إليهم ويقال لها بجاوية.

وبما أن من غير البجّة قد لاحظ ما يميز الإبل البجاوية عن غيرها، فلا بد أنهم عندما بدعوا يقتنونها أدركوا الصفات الأساسية التي تميز بعضها عن بعض، فلا شك أن الإبل السريعة (الهجن) الخفيفة قليلة الشحم سريعة الحركة لاقت عندهم عناية خاصة، لعلها أعظم مما يبذل من العناية بالأنواع الأخرى، فكان ذلك

(١) صلاح الدين الشامي: المولى السودانية ص ٤٨

(٢) محمد عوض: السلاسل و الشعب الأفريقية ص ٢٥٥

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٥٣

(٤) معجم البلدان ج ١ ص ٣٣٩

(٥) مرآة الاطلاع ج ١ ص ١٦٣

من خلال مراقبة النسل، وما إن يولد بكر حتى يُدرب لكي يصبح صالحاً للركوب وقطع المسافات الطويلة تـبـلـغ أحياناً سرعة الخيل^(١)، وقد لاحظ العرب ذلك أيضاً، فقد أشار إلى ذلك الاصطخري^(٢) فيقول: "إن لهم نجب ويقال أن ما في النجب أسير منها"، وقد أشار إلى ذلك أيضاً المقرئ^(٣) - نقلاً عن ابن سليم الأسواني - فيقول عن الإبل: "أنها سريعة وشديدة العدو، وصبورة على العطش، يسابقون عليها الخيل، ويقاوتون عليها وتدور بهم كما يشاءون، ويقطعون عليها البلاد ويطاردون عليها في الحرب، فيرمي الواحد منهم الحربة فإن وقعت في الرمية طار إليها الجمل فأخذها صاحبها، فإن وقعت في الأرض ضرب الجمل الأرض بجيرانه (باطن العنق) فأخذها صاحبها".

ولا شك أن الدافع الأكبر الذي أخذ بالبجة إلى العناية بالسرعة هو ما لها شأن كبير في الحرب وفي الكر والفر والانتفاض الفجائي على العدو، حيث استخدموها بدلاً من الخيل ويقول في ذلك المسعودي^(٤): "تصل سراياهم ومناسرهم على النجب فيغيرون ويسبون".

وبما أن الإبل البجاوية كان لها ما يميزها عن غيرها من الأنواع الأخرى، جعل هذا الآخرين إلى التطلع على الحصول عليها، ومن بينهم العرب، رغم اقتنائهم للإبل كان أسبق من البجة، إلا أنهم من المحتمل تطلعوا إلى الحصول على هذه الأنواع الجديدة، فيبدو أنهم لاحظوها في أول احتكاك فعلى بينهم وبين البجة الذي كان في عام ١٠٧ هـ / ٧٢٥م^(٥) لذلك بعد توقيع الصلح بينهم وبين البجة جعلوا أن يدفع البجة الخراج من الإبل، ومن الأرجح أن دفع الخراج جعل منها للحصول على هذه الأنواع المميزة من الإبل.

ومن الملاحظ من الأقوال السابقة يتبين لنا أن الإبل السريعة احتلت مكانه ظاهرة في حياة البجة، فكان لها دورها في النشاط الحربي، وجمع شمل القبيلة من مختلف الأنحاء والأودية المنعزلة بشكل سريع، ولكن هذا يجب ألا ينسينا أن قوام الحياة الاقتصادية، اعتمد على الأنواع الأخرى من الإبل، وهي الإبل القوية ضخمة السنام - وإن كانت ثقيلة الوزن لما لها من عضلات وبطيئة الحركة - لا يمكن الاستغناء عنها، لأنها تستخدم في الحمل، وتدر الألبان الغزيرة، فتساعد على انتقال العشيرة من موطن إلى آخر. كما كان لها دورها في النشاط التجاري، حيث يجرها البجة للنقل في الصحراء^(٦) وقد لاحظ هذا ابن جبير^(٧) فذكر عنهم "هم نوع من السودان، ساكنون الجبال، فيكرونها (يؤجرون) منهم الجمال".

وإن كانت الإبل عماد الحياة السياسية والاقتصادية والتجارية عند البجة فهذا لا ينسينا أن نفعل القطعان الأخرى التي كان يربئها البجة بجاذب الإبل، وهي قطعان كبيرة من الغنم والماعز ويطلقون عليها اسم الماشية الدقيقة، وإلى جاذب الإبل والغنم والماعز كان يربي البجة قطعان أخرى من البقر، ولكن كان هذا مقتصر على

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٥٣

(٢) المسالك والممالك ص ٤٢

(٣) النواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ١٨

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٩

(٦) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٥٥

(٧) رحلة ابن جبير ص ٤٠

المناطق التي يتوافر فيها المراعي فترة طويلة من السنة، وفي المناطق التي تمارس فيها الزراعة^(١). وإلى جانب الحيوانات التي كان يربدها البجة كانوا يربون الحمير التي كانت تستخدم في أعمال الحمل ويذكر عنها الاصطخري^(٢) إنها أفضل الأنواع فيقول: "أن لهم وراء أسوان حمير صغار في مقدار الكباش مئمة، تشبه البغال المئمة، إذا خرجت من موضعها لم تعش، ولهم حمير يقال لها السملاقية بأرض الصعيد". وصفوة القول أن شعب البجة من الشعوب الرعوية التي حظت بتنوع ملحوظ في الثروة الحيوانية التي ساعدتها في جوانب الحياة المختلفة، في هذه البيئة القاسية، منذ أقدم العصور. ولابد أن هذه البيئة صارعتهم وصارعوها، حتى سلس لهم في النهاية قيادتها، وطبعتهم بطباعها، حتى أصبحوا عناصرها من عناصرها.

ثالثاً: الصناعة

تعد نالت الصناعة في العصور الوسطى حظاً من حياة البجة، ولكنها ليست بالقدر الكافي من الاهتمام، رغم توافر المواد الأولية في بلادهم بمختلف أنواعها آنذاك من معدنية، ونباتية، وحيوانية.

أ - المواد الأولية: وقد نلاحظ وفرة المواد الأولية في هذه البلاد كما يشير إلى ذلك المقرئزي - نقلاً عن ابن سليم الأسواني - مؤكداً إلى كثرة المعادن الموجودة ببلادهم، وأكثرها الذهب، إضافة إلى وجود معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغناطيس والمرقسينا والحمست والزمرد، وبجانب المعادن توجد بأوديتهم الأشجار المختلفة كشجر المقل والأهليلج والأذخر والشيج والسنا والحنظل وأشجار أخرى كثيرة كالنخل والكرم والرياحيين، أما عن الحيوانات الموجودة فيها فسائرها من سباع وفيلة ونمور وفهود وقردة وغزلان إضافة إلى الطيور المتنوعة مثل الببغاء والذقيط والنوبي والقماري ودجاج الحبش وحمائم بازين، وهذا بخلاف ما يربيه البجة من جمال ومواشي من بقر وغنم وماعز وكباش^(٣).

ورغم إشارة المقرئزي السابقة عن مدى التنوع الملحوظ في المواد الأولية وتوافرها التي تتيح الفرصة لازدهار مجال أوسع للصناعة، إلا أنه لم تدل الصناعة القدر الكافي من الاهتمام، فما السبب في ذلك؟ من المؤكد أن الحياة البدوية للبجة وما تتطلبه من كثرة التنقل والترحال، لا تساعد نشوء صناعات كبيرة ومتنوعة ورغم ذلك ظهرت مجموعة هامة من الصناعات لا يمكن إغفالها.

ب - أهم الصناعات: نلاحظ أن أهم الصناعة عند البجة إقتصرت على صناعة الأشياء الضرورية للمعيشة، وبما أن الصناعة اتجهت همها إلى الفائدة العملية دون سواها، فيمكن لنا تقسيمها حسب أغراض ونوع عمل مناطقها وتمثلت في:

١ - صناعات ضرورية:

وهي صناعات تمثلت في حرف تقدم مصنوعات الأشياء الضرورية للبقاء في هذه البيئة القاسية، وبالطبع اعتمدت مصنوعات على توافر المادة الأولية المشتقة من الحيوان والنبات المتواجد بها، وهذه المصنوعات تمثلت في دباغة الجلود وصنع الأوعية الجلدية (القرب) ونسج الصوف والشعر. وكانت تتم

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٥٦

(٢) مسالك الممالك ص ٤٢

(٣) المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٥

عمليات دبغ الجلود باستخدام القرد المشتق من شجر السنط، بعد أن يجف ويوضع في أحواض من الطين، ثم تملئ بالماء، بنسبة قربة ماء لكل رطل قرد، وفي هذا المحلول يضعون الجلود ثلاثة أيام، ثم يقومون بتغيير الماء، وتكرر هذه العملية ثلاث مرات، ثم تستخرج الجلود بعدها، وتغسل مرارا بالماء، ثم تملئ بالطين وتعلق لكي تجف، ثم تنظف من الأتراب، وتخاط على شكل مصنوعات جلدية، وقرب تستخدم في نقل الماء وحفظه من مكان إلى آخر، وكانت هذه القرب تعد من أفضل الوسائل لحفظ الماء ونقله، كما كانت تستخدم في حفظ ونقل السمن، ولكن من المؤكد أن هذه الأوعية الخاصة بالسمن كانت في عملية دبغها تعالج بواسطة نباتات أخرى تجعلها أشد انماجا بحيث لا يذف منها السمن^(١).

وقد لاحظ ناصر خسرو هذه المصنوعات الجلدية في طريقة للحج عبر بلاد البجة، فأشار إلى قرب الماء التي يقدمها البجة للحجاج المارين ببلادهم، كما أشار إلى نوع آخر من المصنوعات الجلدية تسمى الشفق ويصنع من جلد السمك^(٢) أما عن القرب التي استخدمت في نقل السمن واللبن والعسل فيمكن لنا أن نستنبطها من إشارة الإدريسي عنها في عملية التبادل التي كانت تتم بين رعاة البجة وأهل عيذاب^(٣) وإذا لاحظنا استخدام دباغة الجلود في صناعة الأوعية لنقل وحفظ الماء والغذاء، يمكن لنا أن نلاحظ استخدامهما في إقامة المسكن، وقد أشار إلى ذلك اليعقوبي^(٤) في حديثه عن مساكن أهل البجة بقوله: "إن البجة يذبلون خيام جلود" وقد أكد هذا القول المقريري في حديثه عن مسكنهم أيضاً "يقومون في أخبية من جلود"^(٥) وبجانب استخدام الجلد في إقامة المسكن استخدموا الصوف وقد لاحظ هذا ابن حوقل^(٦) فأشار إلى أن البجة "أصحاب أخبية شعر"، ومن المؤكد أن صوف الغنم وشعر الماعز استخدم في مصنوعات أخرى بخلاف المسكن بعد نسجه وخياطته كالملابس والغطاء.

وفي آخر الحديث عن المصنوعات الضرورية، نلاحظ كيف استعان البجة بما أتيج لهم من مواد أولية متوفرة في بيئتهم في صناعة مصنوعات تتناسب مع عناصر الحياة الأساسية من مشرب ومأكل وملبس ومسكن.

٢ - الصناعات الحربية:

من المؤكد أن الأعمال الحربية التي كان يقوم بها البجة في العصور الوسطى وتغلغلها في أنفسهم، أن تنال نصيبا من الصناعات القائمة آنذاك، فقاموا بصناعة الأسلحة التي تتناسب مع أساليبهم القتالية واهتموا بها، وقد أشار المقريري إلى هذه الأسلحة وكيفية صناعتها، فنكر من أهمها صناعة سلاح يعرف بالحراپ

(١) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٦٠

(٢) سفر نامه ص ١٣٢ - ١٣٥

(٣) نزهة المشتاق ج ١ ص ١٣٥

(٤) البلدان ص ٣٣٦

(٥) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤

(٦) صورة الأرض ص ٥٠

السباعية، ويقدر طولها سبعة أذرع، تبلغ حديدتها ثلاثة أذرع وهي في عرض السيف، وعودها يبلغ أربعة أذرع لذلك سميت سباعية، وفي آخرها شبيها بالفلكة، حتى تمنع خروجها من أيديهم، وأشار إلى أن القوائم بصناعة هذه الحراب نساء يقمن في موضع خاص لهن، ولا يختلط بهن الرجال إلا المشتري مذهب. وإضافة إلى صناعة الحراب السباعية كانت تصنع الدروق وكانوا يستخدمون جلود البقر في صنعائها، ودروق أخرى تعرف بالأكسومية والدهلكية، كما كانوا يصنعون القسي الكبيرة، ويعدون لها ذبل مسموم إذا أصاب الإنسان قتلته لوقته^(١).

٣ - الصناعات الاقتصادية:

تعد حازت الصناعات والحرف الاقتصادية دون غيرها على أكبر قدر من نشاط الأعمال الصناعية وذلك لارتباط هذه الصناعات بنشاط الحركة التجارية التي تميزت بها هذه المنطقة في العصور الوسطى وتمثلت في حرف استخراج المعادن والأحجار الكريمة، وصناعات الخدمات التجارية.

أ - حرف استخراج المعادن والأحجار الكريمة: تعد كانت هذه الحرف من أهم الأعمال التي اشتهرت بها بلاد البجة من قديم الزمن، كما ساهمت في تفعيل دور هذه المنطقة على مختلف العصور وجوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكان أهمها استخراج معادن الذهب والزمرد واللؤلؤ.

١ - استخراج الذهب: يعد من أهم وأقدم الحرف التي كانت قائمة في بلاد البجة خاصة لأن بلادهم اشتهرت بوجود كميات كبيرة منه في أرضها، فقد دل التاريخ على أن فراعنة النيل هم أول من تطلع للحصول على هذا المعدن، فقاموا بإرسال حملاتهم الحربية لجلبه، كما قاموا بإجبار أهاليه من شعوب البجة بالعمل في مناجمه وقد أشار إلى ذلك المقريزي بقوله: "كانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحياناً لحاجتهم إلى المعدن"^(٢) وقد أثبتت الأبحاث على أن لفراعنة قاموا باستغلال مناجم الذهب لتلك البلاد، فقد عثر على أقدم خريطة في العالم يرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٠ ق . م قد صور عليها أقدم مصور جغرافي عن مناطق استخراج الذهب بوادي العلاقي من أرض البجة، وكان أهم هذه المناجم هي المسماة (دارهيب)^(٣).

واستمر استغلال هذه المناجم حتى عهد البطالمة والرومان من بعدهم، وقد ظل الرومان يستخرجون الذهب من بلاد البجة حتى بعد الفتح العربي لمصر وقد ذكر ذلك المقريزي قائلاً: "إن الروم لما ملكوا مصر كان لهم في المعادن آثار مشهورة وكان أصحابهم بها وقد فتحت مصر"^(٤)، ولما نزع العرب إلى بلاد البجة وقد شاهد بعضهم استمرار وجود معدن الذهب بالعلاقي، آثروا البقاء للعمل فيه، ولم يعودوا إلى سحب الجيوش العربية.

(١) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤

(٢) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٥

(٣) عطية القوصي دولة الكنوز ص ١١٣

(٤) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٥

وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل بعدما عاينوا الكثير وآثار العمل فيه للروم^(١). وظل استخراج الذهب طيلة العصور الوسطى، حتى نضبت مناجمه في عهد العاضد، آخر خلفاء الفاطميين، ومنذ ذلك الوقت تقريباً بدأ يتوقف استخراج الذهب^(٢).

وبالرغم من طول الفترة الزمنية لاستخراج معدن الذهب من بلاد البجة وقدم عهداً به، ذهب بعض المؤلفين مثل المقرئ إلى أن البجة لم تتعرض للعمل بحرفة استخراج الذهب^(٣). ومن المؤكد أن هذا القول لا ينطبق على جميع البجة، لأن إشارة اليعقوبي عن البجة التي تقيم بالعلاقي وما حوله تؤكد عملهم بهذه الحرفة فقد أشار إلى أن الذهب الموجود بالعلاقي وما حوله، يعمل في استخراجها كل الناس من تجار (عرب) وغير تجار عبيد السودان (البجة)^(٤) ويتضح لنا من هذه الإشارة أن البجة التي لا تعمل في استخراج الذهب ربما هم خارج منطقة العلاقي وما حوله، أو احترفوا حرف أخرى كالزراعة.

وكما أضاف في حديثه موضحاً ومحدداً أماكن هذه المناجم قائلا: فمن أراد الذهب خرج من أسوان إلى موضع يقال له الضيقة بين جبليين ثم البويب، ثم البديسية، ثم بيت ابن زيادة، ثم عذيفر، ثم الجبل الأحمر ثم جبل الأبيض، ثم قبر أبي مسعود، ثم عقار، ثم وادي العلاقي، وكل هذه المواضع هي مناجم للذهب يقصدها طلابه، ثم أضاف في حديثه أماكن المناجم الأخرى وهي التي كانت حول وادي العلاقي، وذكر أولها موضع يعرف بوادي الجبل وهو يبعد عن العلاقي بمرحلة، وموضع يعرف بعنب، وموضع آخر يعرف بكنار، وآخر يعرف ببطن واح وبينه وبين العلاقي مرحلة، ثم موضع آخر يعرف بأعماد والوصول إليه من العلاقي مرحلتان، وموضع يعرف بماء الصخرة ومسافته من العلاقي مرحلة، أما موضع الأخشاب فمسافته مرحلتان، وميزاب أربع مراحل، وعربة بطحا مرحلتان، أما آخر هذه المواضع وأبعدها مسافة موضع يعرف ببركان ومسافته من العلاقي ثلاثين مرحلة، أما عن المواضع المتوسطة المسافة فهي دح والسطة والرفق وسختيت ومسافة الوصول إليها من العلاقي عشرة مراحل^(٥) ومن خلال إشارة اليعقوبي عن مناطق استخراج الذهب نلاحظ مدى تعددها وكثرتها في بلاد البجة، كما نلاحظ أن وادي العلاقي كان يمثل مركزاً هاماً لتجميع الذهب من جميع المناطق الأخرى، حتى صار أكبر سوقاً يتبادل فيه التجار بيع وشراء الذهب.

(١) صورة الأرض ص ٥٣

(٢) ابن برة: كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبد الرحمن فهمي، القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٩
(ذكر أن أول جمعة من شهر محرم عام ٥٦٧ هـ هو تاريخ سقوط الدولة الفاطمية، وذلك حين أصدر نور الدين أمراً بقتله صلاح الدين بمصر بقطع الخطبة للخليفة العاضد، فبعده صلاح الدين في هذا التاريخ إلى المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة المستضيء العباسي، وأمر في الخطبة الثانية بالدعاء له وعدم ذكر العاضد، وفي العاشر من محرم عام ٥٦٧ هـ توفي العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وهكذا انتهت الدولة الفاطمية وزال المذهب الشيعي بمصر - ابن كثير: الكامل ج ١١ ص ١٤٩)

(٣) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٥

(٤) البلدان ص ٣٣٤

(٥) البلدان ص ٣٣٥

أما عن طريق استخراجها فقد ذكرها كل من الإدريسي^(١) وابن الوردى^(٢) قائلين: إن طلابه كانوا يذهبون إلى صحراء رمئية وسبابس سيالة، يتجولون فيها ذبلاً في أوائل الشهر العربي وآخره (عندما يضعف ضوء القمر) فينظر كل شخص أمامه في الأرض، فإذا أبصر الكبريض، وضع على موضعه علامته، ثم يبيتون جميعاً، وفي الصباح يحمل كل شخص أكوام الرمل التي علمها بعلامته، ثم يذهبوا بها إلى أبار هناك ليغسلوها في أوعية خشبية، وبعد استخراج البذر يمزج بالزبدق ويسبك. ولم تكن هذه الطريقة هي الوحيدة التي يتم بها استخراج الذهب بل كان آخرون يقومون بالحفر، ويخرجون الذهب من مناجمهم كالزرنيج الأصفر، بعد ذلك يسبكونه^(٣).

٣- استخراج الزمرد: أو ما سماه بعض المؤلفين العرب الزبرجد^(٤) ويعد من أهم وأثمن المعادن التي استخرجت من أرض البجة، ويرجع شغف استخراجها والاهتمام في الحصول عليه إلى الزمن القديم فقد عرف المصريون القدماء مناجم استخراجها، وذكروا أنها بالصحرَاء الشرقية في المناطق المتاخمة لأعلى توجه القبلي، أما في عهد اليونان فلم تقل أهمية استخراجها بدليل ما ذكره بعض مؤلفيهم عن تحديد مواقعها في تلال البحر على نفس خط عرض أسوان^(٥).
والجدير بالذكر هنا، أن مناجم الزمرد لا تتجاوز بلاد البجة. وبعبارة أخرى أن الزمرد لا يوجد إلا في مرتفعات البحر الأحمر في بلاد البجة، وهذا ما اجتمع على ذكره قول المؤلفين العرب منهم اليعقوبي^(٦) والاصطخري^(٧) وابن حوقل^(٨) والهمداني^(٩).

(١) نزهة المشتاق ج ١ ص ٤٦

(٢) خريدة العجائب ص ٤٨

(٣) البلدان ص ٣٣٤

(٤) أطلق بعض المؤلفين العرب اسم الزبرجد على معدن الزمرد منهم

- الاصطخري: مسالك المسالك ص ٥١

- ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٥٠

- الهمداني: البلدان ص ٧٨

- إلا أن القفطاشي: فكر في كتابه زهر الأندلس في جواهر الأحجار، نشر ططونيور رينيري، فرنسا ١٨١٨ م، ص ١٧ (يفرق بين الزمرد و الزبرجد، فيذكر أن الزبرجد يكون في موضع الزمرد، ويوجد معه إلا أنه أقل وجوداً من الزمرد، ويذكر أن الزبرجد يكون من مكونات الزمرد سواء يسواء وكلمة نوع منه ابتداءً يكون زمرداً، ثم قصر عنه في حركته بسبب الأعراض الداخلة عليه من قلة الطبخ ونقص الحرارة فنقص لونه عنه)

- ويذكر ابن الأكفلي في كتابه نخب النخائل في أحوال الجواهر، تحقيق أنستاس ماري الكرمللي، القاهرة ١٩٣٩ م ص ٥٣ (ذكر أن الزبرجد صنف واحد، فستقى اللون، شفاف، لكنه سريع الإنطفاء لرخاوته، وهذا بخلاف الزمرد الأخضر اللون وله أربعة أصناف هما القبابي و الريحلي و الستقي و الصابوني)

(٥) محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى ط ٢ ١٩٩٦ م ص ١١٠

(٦) البلدان ص ٣٣٣

(٧) مسالك المسالك ص ٥١

(٨) صورة الأرض ص ١٥٠

(٩) مختصر البلدان ص ٧٨

وَاتَّفَقَ مَعَهُمْ أَيْضاً الْبِيرُونِيُّ^(١) وَبَاقُونَ^(٢) وَالتِّيفَاشِيُّ^(٣) وَالْإِدْرِيسِيُّ^(٤) وَالْحَمِيرِيُّ^(٥) وَالْعَمَرِيُّ^(٦) وَابْنُ الْأَكْفَانِيِّ^(٧) وَالْمَقْرِيزِيُّ^(٨).

وَجَاءَ فِي مَجْمَلِ قَوْلِهِمْ: أَنَّ مَنَاجِمَ مَعْدِنِ الزَّمَرْدِ تَقَعُ فِي بَرِيَّةٍ مَنْقُطَةٍ عَنِ الْعِمَارَةِ، فِي مَرْتَفَعَاتِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ عِنْدَ جَنُوبِ الْأَصْعِدِ، عَلَى حُدُودِ مِصْرَ وَالنُّوبَةَ مِنْ أَرْضِ الْبَجَّةِ، وَهَذِهِ هِيَ الْمَنْطِقَةُ الْوَحِيدَةُ فِي الْعَالَمِ الَّتِي يَوْجَدُ بِهَا هَذَا الْمَعْدِنُ.

أَمَّا أَمَاكِنُ تَوَاجُدِهِ فِي أَرْضِ الْبَجَّةِ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ فَذَكَرَ فِي عِدَّةِ مَوَاقِعَ، فَذَكَرَ مِنْهَا الْيَعْقُوبِيُّ، أَنَّ الزَّمَرْدَ يَوْجَدُ فِي مَكَانٍ يُعْرَفُ بِخَرِبَةِ الْمَلِكِ وَهُوَ عَلَى ثَمَانِ مَرَاكِلَ مِنْ مَدِينَةِ قَفْطَ، وَفِيهِ جَبَلَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْغُرُوسُ وَلِلْآخَرِ الْخُصُومُ يَوْجَدُ بِهِمَا مَعْدِنُ الزَّمَرْدِ، وَفِي هَذَا الْمَكَانِ أَيْضاً يَوْجَدُ مَوَاضِعُ أُخْرَى لِلزَّمَرْدِ يُقَالُ لَهَا كُومُ الْأَصَابُونِيِّ، وَكُومُ مَهْرَانَ، وَمَكَابِرَ، وَسَفْسِيدَ، وَكَانَتْ تُعْرَفُ مَنَاجِمُ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ بِاسْمِ شَرِيحٍ مُفْرَدٍهَا شَرِيمَةً^(٩)

أَمَّا ابْنُ حَوْقَلٍ^(١٠) فَقَدْ حَدَّدَ مَوَاضِعَ مَنَاجِمَ فِي الْمَنْطِقَةِ الْمَمْتَدَّةِ مَا بَيْنَ جَزَائِرِ بَنِي حُدَانَ إِلَى نَوَاحِي عِيَذَابَ، أَمَّا ابْنُ الْأَكْفَانِيِّ فَذَكَرَ أَنَّ مَوْضِعَهُ عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ فِي مَكَانٍ يُعْرَفُ بِشَذْدَةٍ مِنْ أَرْضِ الْبَجَّةِ^(١١) وَهَذَا الْمَكَانُ هُوَ الَّذِي نَكَرَهُ الْعَمَرِيُّ بِاسْمِ قَرَشْنَدَةٍ، وَأَضَافَ إِلَى أَنَّ الْمَاءَ يَبْعُدُ عَنْهُ بِمَسَافَةِ نِصْفِ يَوْمٍ أَوْ يَزِيدُ^(١٢)، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ تَحْدِيداً يَوْجَدُ عِنْدَ جَبَلٍ يُعْرَفُ الْآنَ بِاسْمِ (زِيَارَا) عَلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَفِي صَحْرَاءِ الْعَقْبَايِ^(١٣).

(١) الْجَمَاهِرُ فِي مَعْرِفَةِ الْجَوَاهِرِ، حَيْدَرُ أَبِيهِ بِالْهَيْدَةِ عَامَ ١٣٥٥ هـ، ط١، ص ١٦٢

(٢) مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ ج ٢ ص ٣٥٥

(٣) زُجَرُ الْفِكَارِ فِي جَوْهَرِ الْأَحْجَارِ ص ١٣

(٤) نَزْهَةُ الْمُشْتَقِّ ج ١ ص ٢٢

(٥) الرُّوضُ الْمُعْطَارُ فِي تَخْيِيلِ الْأَقْطَارِ، تَحْقِيقُ د. إِحْسَانِ عَبَّاسٍ، بَيْرُوتَ ١٩٨٤ م ص ٥٨

(٦) مَسَاكُ الْبَصَرِ ص ٧٨

(٧) نَخْبُ النَّخْلِ فِي أَمْوَالِ الْجَوَاهِرِ ص ٤٩

(٨) الْمَوَاعِظُ وَالْإِعْتِبَارُ ج ١ ص ٢٣٢

(٩) الْبُلْدَانُ ص ٣٣٣

- أَمَّا بَاقُونَ الْمَعْنَى: فِي كِتَابِهِ مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ ج ٢ ص ٣٣٥، خَرِبَةُ الْمَلِكِ (تَقَى مَعَ الْيَعْقُوبِيِّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَكَانَ مَوْضِعُ الزَّمَرْدِ مُطَابِقاً لِمَا وَصَفَهُ، وَلَكِنَّهُ اخْتَلَفَ مَعَهُ فِي تَحْدِيدِ الْمَسَافَةِ بَيْنَ قَفْطَ وَخَرِبَةِ الْمَلِكِ وَنَكَرَهَا عَلَى بَعْدِ سِتِّ مَرَاكِلَ، وَهَذَا لَا يُمْكِنُ خِلَافَ لَأَنَّ تَقْيِيرَ طُولِ وَقْصَرِ الْمَسَافَاتِ اعْتَمَدَ عَنْدهُمْ عَلَى الْمَرَحَلَةِ وَهِيَ يَوْمٌ مِنَ السَّيْرِ وَهَذَا لَا يُعْتَبَرُ مَقْدَرٌ قَلِيلٌ مَسَافَاتٍ ثَابِتٌ لَكِنَّهُ سَفَرٌ فَتَمَّ مَا يَبْعَثُ وَيُؤَدِّي إِلَى طُولِ الْمَسَافَةِ وَمَا يَبْسُرُهُ وَيُؤَدِّي إِلَى قَصْرِ الْمَسَافَةِ. وَأَمَّا الْخِلَافُ الْآخَرُ فَجَاءَ فِي تَغْيِيرِ بَعْضِ أَسْمَاءِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي ذَكَرَهَا فَتَنَزَّلُ اسْمُ (بَكْلِيُو) عَلَى مَوْضِعِ (مَكْلَبَرِ) أَوْ أَرَادَ عِنْدَ الْيَعْقُوبِيِّ، وَاسْمُ (سَقِيدَ) عَلَى مَوْضِعِ (سَفْسِيدَ) وَهَذَا التَّغْيِيرُ جَائِزٌ أَيْضاً فِي تَحْرِيفِ أَسْمَاءِ الْمَوَاضِعِ فَطَوَّلَ الْفَرَاتُ الزَّمَنِيَّةَ عَلَى الْأَمَاكِنِ وَالْبُلْدَانِ تَحْرِيفَ الْأَسْمَاءِ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا مَرْجِعُهُ إِلَى الْفَقْلِ)

(١٠) صُورَةُ الْأَرْضِ ص ١٥٠

(١١) نَخْبُ النَّخْلِ ص ٤٩

(١٢) مَسَاكُ الْبَصَرِ ص ٧٨

(١٣) عَطِيَّةُ الْقَوْصَى ص ١١٦

وفي جميع هذه الأماكن وحولها ذكر العمري أن البجة كانت تقوم فيها للقيام بعمليات الدفر لاستخراجه وحفظه^(١).

أما طريقة استخراجه فكان يحدث عنه في مغارات مظلمة كان يدخل إليها بالمصابيح وبالبحال يستدل بها على الرجوع خوفا من الضلال، ويدفر عليه بالمعاول فيوجد في وسط الحجارة^(٢) وأول ما يظهر منه شيء يسمونه الطلق، وهو ثلاثة أنواع طلق كافوري (أبيض) وآخر فضي، وآخر حروي (أسود)^(٣).

ثم يستمر الدفر فتوجد تربة حمراء لينة مشتملة عليه، وما يوجد في هذا التراب يسمى فصوصا، أما ما يوجد في طبقات من الحجر يعرف باسم قصب^(٤) وهذه الأقسام هي خرز مستطيلة ذات خمسة أسطح، وبعدها يوضع في زيت حار مصنوع من بزر الكتان^(٥) ثم يوضع بعدها في قطن، ثم يلف هذا القطن بقطع من القماش الخام لحفظه^(٦).

أما أنواعه المستخرجة منه فيذكر البيروني إنها أربعة أنواع، أجودها وأعلاها ثمننا النوع الذي يعرف باسم (المر) وهو شديد الخضرة، ويأتي بعده نوع ثاني يعرف باسم (البحري)، ونوع ثالث يعرف باسم (المغربي)، أما أدنى هذه الأنواع الأربعة وأقلها ثمننا نوع يعرف باسم (أصم)^(٧). بينما ذكر التيفاشي أن أجود أنواع الزمرد يعرف باسم (الذبابي) وهو أفضل الأنواع في جميع لخواص، وهو أخضر مغلوق اللون، ولا يشوب خضرته شيء آخر من الألوان، ونوع آخر يعرف باسم (الريحاني) ولونه مغنوق كورق الريحان، ونوع آخر يعرف باسم (السلق) ولونه كلون السلق، أما أدنى أنواعه فهو ما يعرف باسم (الصابوني) وهو كلون الصابون^(٨).

وحظي الزمرد وأصنافه بقيمة كابرت المال والذهب كما ذكر ياقوت الحموي أن القطعة منه بلغت ألف درهم^(٩) وذكر البيروني^(١٠) والتيفاشي^(١١) أنه أكثر من هذا. ويبدو أنه حصل على هذه القيمة لما كان شائع عنه في العصور الوسطى بأنه يضفي على الفرد سلامة الجسم والعقل فيفسد السم، ويشفي لدغات الأفاعي والعقارب، ومن إصابة مرض الجذام، ويقطع الإسهال المزمن، ونفث الدم، ويقوي المعدة، وينفع المصاب بمرض الصرع، وإمساكه في الفم يقوي الأسنان، ويسرع الولادة، والنظر إليه يحلو البصر ويقوية^(١٢).

(١) مسالك الإبصار ص ٧٨

(٢) المقرئى المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ٢٣٢

(٣) العمري: مسالك الإبصار ص ٧٩

(٤) التيفاشي: زهر الأفكار ص ١٣

(٥) الأكفلي: نخب الذخائر في أحوال الجواهر ص ٥٠

(٦) العمري: مسالك الإبصار ص ٧٩

(٧) الجماهر في معرفة الجواهر ص ١٦١

(٨) زهر الأفكار ص ١٣ - ١٤

(٩) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٥

(١٠) الجماهر في معرفة الجواهر ص ١٦٣

(١١) زهر الأفكار ص ١٥ - ١٦

(١٢) ابن الكفلي: نخب الذخائر في أحوال الجواهر ص ٥٢

وظل يستخرج هذا المعدن من بلاد البجة، حتى أبطل العمل في استخراجه أيام السلطان الناصر بن قلاوون في سنة بضع وستين وسبعمائة، بعد أن أذهكت مناجمها، ونضب معينها، وغطتها الرمال^(١).

٣ - استخراج اللؤلؤ: وقد أشار ابن جبير أن مكان استخراجه يكون بالقرب من جزائر على مقربة من عيذاب في البحر الأحمر، أما ميعاد استخراجه فيكون في شهري يونيو ويوليو، أما طريقة استخراجه، فكان يذهب الغادسون عليه إلى تلك الجزائر في زوارق صغيرة، ويقيمون في تلك الزوارق عدة أيام يوالون الغوص بها على اللؤلؤ، ثم يعودوا بما عثروا عليه من اللؤلؤ كل حسب حفظه من الرزق والعمل^(٢).

ب - صناعات الخدمات التجارية:

وهي صناعات تمثلت في صناعة الوسائل النقلية التي تساهم في نشاط الحركة التجارية وتيسيرها، وبما أنها ارتبطت بالنشاط التجاري، فكان لابد أن تمارس في المراكز التجارية النشطة، وأنشط هذه المراكز كما ذكرنا هي عيذاب، ولذلك مارست هذه النوع من الصناعات.

وكانت أهم هذه الصناعات وأكبرها هي صناعة الجلاب وهي سفن كان يتخذها أهل عيذاب لنقل التجارة والحجاج عبر البحر الأحمر، وكانوا يصنعونها بأنفسهم، ولا يستعملون فيها المسامير، وكانت تصنع من قشر جوز النارجيل (جوز الهند)، حيث كانوا يدلكونه حتى تنحل عنه أجزاءه، ثم يفتل ويصف، ويضم بعدها بحبال من ليف النخل، وفي النهاية وبعد إن يصبح شكلها كالسفينة، تسقى بالسمن أو بدهن الخروع أو دهن الحوت، ويؤدي هذا إلى أن يجعل مكوناتها النباتية رطبة، وكان غرضهم من هذا الدهن وعدم استعمال المسامير فيها هو أن تجتاز الشعاب المرجانية دون أن تتعرض لضرر، وبعد ذلك يعدون لها أشعة تنسج من خوص شجر المقل^(٣).

٤ - صناعات الزينة والتجميل:

سبق لنا أن ذكرنا أن الصناعة عند البجة اتجهت إلى الفائدة العملية دون سواها. ورغم هذا فكان لابد أن يكون للطابع البشري أثره فيها، ولا يخلوا الأمر في ذلك من بعض العناية بالزينة والتجميل. وكانت أهم هذه الصناعات هي صناعة العطور والأمشاط والمنسوجات، وكان أكثر صانعي هذه الأشياء هم أهل باضع الذين اشتهروا بها، ومن المؤكد أن هذه الصناعات حازت على زيادة في الإنتاج والتفنن فيها، مما جعلها مطلوبة على مستوى التجارة الخارجية، فكانت تصدر إلى بلاد الحبشة وغيرها^(٤).

وصفوة القول أن شعوب البجة من الشعوب التي مارست بعض الحرف التي لاقت رواجاً تجارياً، حيث كانت منتجاتهم لا تطلب على المستوى المحلي والإقليمي فحسب، بل كانت مطلوبة على المستوى العالمي أيضاً، فدانماً ما كانت تنقل هذه المنتجات إلى الهند واليمن والمغرب وأوروبا.

(١) المقرري المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٣٢

(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٠

(٣) ابن جبير رحلته ص ٤١

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان.

رابعاً : التجارة

لقد شهدت بلاد البجة نشاطاً بارزاً في النشاط التجاري في العصور الوسطى، فقد تكاثفت عليها ظروف عدة جعلتها تنبؤاً مكانه مرموقة في التجارة، منها الموقع الملائم، فهي تتأخم لحدود مصر وبلاد النوبة والحبشة، إضافة إلى إنها حازت على الجزء الأهم من البحر الأحمر، الذي ساهم بدوره في ربط تجارة البلاد المتاخمة لحدودها، بتجارة العالم الخارجي، وادي هذا بدوره إلى أن جعل هذه المنطقة من أهم المراكز التجارية، والتي ساهمت بدورها في إنشاء تجارة داخلية بها من أسواق وسلع تجارية.

ومن المؤكد أن بلاد البجة لم تشهد النشاط التجاري ورواجه في العصور الوسطى فحسب، بل إن هذه المنطقة ارتبطت بالنشاط التجاري منذ زمن غارق في القدم، فمنذ زمن فراعنة النيل شهدت هذه المواطن نشاطهم التجاري فيها، لأنها كانت تمثل حلقة الوصل بين نشاطهم التجاري في البحر الأحمر ونهر النيل، ويشهد تاريخهم التجاري على ذلك فيذكر أن في عهد (رعسيس) عندما بنى أسطولا بحريا بغرض التجارة في البحر الأحمر، أنشأ طريقاً برياً بين القصير وقُفط لتسهيل التجارة بين مصر والشرق الأقصى^(١) إضافة إلى إنشاء المراكز الداخلية بهدف استخراج الذهب من هذه المواطن، ومن المرجح أنهم قاموا بإنشاء مراكز تجارية بهدف الحصول على هذا المعدن، ولعل الآثار المتواجدة في هذه المناجم إلى الآن شاهده على ذلك فيما بين مسمار وسنكات من أرض البجة^(٢)

وفي عهد البطالمة اليونان في مصر، لم تقل أهمية أرض البجة عندهم، بل كانت تمثل أهم المشروعات التجارية آنذاك، وكان ذلك سعيًا وراء الحصول على السلع والمذتجات السودانية، لذلك قاموا بإنشاء العديد من المراكز التجارية على ساحل منطقة البجة، وقد ظن الجغرافيين أن هذه المراكز كانت محصورة فيما بين برنيس شمالاً إلى الخليج الذي تقع عليه ميناء مصروع الحالية جنوباً، وكانت من تلك المراكز البطلمية على هذا الساحل ميناء (بورت سوتريا) والتي عرفت أيضاً باسم (ثيرون سوتيرون) وقد حدد الجغرافيين موقعها بأنه الموقع الذي تقوم عنده ميناء (بور سودان) الحالية، وقد ذكر اسم موقع آخر كان يعرف باسم ميناء (ليمن إيفانجلز) وقد حاولوا أيضاً الربط بينها وبين موقع سواكن الحالية، كما ذكر المزيد من المراكز البطلمية في هذه المنطقة مثل ميناء (سواتراس ليمن) و (بطليموس ثيرون)^(٣) غير أن ميناء (بطليموس ثيرون) كانت في مقدمة تلك المراكز جميعاً، وأكثرها قيمة على هذا الساحل، وهي التي أسست في عهد الإمبراطور اليوناني (بطليموس فيلادلفيوس) على يد قائده (إمدس)، وقد اتفقت الأدلة على أن هذا الموقع كان قائماً في منطقة عقيب الحالية من أرض البجة^(٤).

(١) جورجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٢١٤

- رعسيس : هو الملك سبتي الأول، أحد ملوك أسرة الرعامسة، وهي الأسرة التاسعة عشر (١٢٩٥ - ١١٨٨ ق.م) وهو ابن الملك رمسيس الأول الذي عرف باسم رعمسو الذي نسبت إليه الأسرة، كما أنه والد الملك المشهور رمسيس الثاني، واستمر هذا الملك في حكم مصر لمدة خمس عشر عاماً في الفترة من (١٢٩٤ - ١٢٩٧ ق.م)، (بيوتولا جريمال : تاريخ مصر القديمة ص ٣٢٨ - ٣٢١).

(٢) محمد عوض : الشعوب والسلالات الأفريقية ص ٢٥٦

(٣) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٢٨ ، ٢٩

(٤) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٣٨

وبما أن ساحل منطقة البجة أصبح منطقة تجارية وذلك لما كان للبطالمة من نشاط فيها، كان لابد عليهم من الاستعانة بسكان الظهير - وهم البجة - للقيام بالحركة التجارية ونقل المتاجر عبر أوطانهم. ولكن لما كان للبجة من طبيعة النفور من كل غريب يظأ بلادهم آنذاك، كان من الضروري أن يلجأ البطالمة إلى الاستعانة بالعناصر الأخرى الموجودة على الساحل، وكان أهم هذه العناصر على الإطلاق هم العرب وذلك لمعرفتهم بشئون الصحراء. ومن لراجع أنه أتيح لهذه العناصر العربية للقيام بهذا العمل، وخاصة قبيلة "بلى". ومن المحتمل أن هذا العمل التجاري تميز باختراق بلاد البجة حتى أتيح لهم الاختلاط بهم ولا سيما الشماليين منهم، وتم لهم السيطرة عليهم حتى عدت هذه القبائل تعرف عند اليونان ومن بعدهم الرومان باسم البليميون^(١).

ويوضح لنا من الأقول السابق كيف شهدت بلاد البجة نشاطا تجاريا من العرب القدامى أيضاً، وهذا يؤكد لنا أن النشاط التجاري للعرب في بلاد البجة لم يكن خلال العصور الوسطى فقط، فقد كان هذا النشاط سابقاً لنشاط البطالمة في هذه المنطقة، وخاصة أن الساحل الأفريقي قد شهد هجرات قديمة للعرب بغرض التجارة قبل الوقت الذي سيطر فيه البطالمة على الساحل^(٢).

وفي عهد الدولة الرومانية في مصر، ظلت الموانئ البطلمية قائمة، ولكن أهميتها أخذت تنقاص بالتدريج، لأن أهدافهم التجارية كانت أوسع مدى وأكثر انتشاراً، فلم يكن البحر الأحمر بالنسبة لهم سوى طريق إلى المحيط الهندي، لذلك لم يكونوا حريصين على التجارة التي يجمعوها من هذه الموانئ السودانية^(٣).

وهذا لا يعني أن الحركة التجارية في بلاد البجة قد توقفت، لأن في ذلك العصر كانت دولة أكسوم في شمال الهضبة الحبشية قد نمت وقويت شوكتها، وبذلك ساهمت بدورها في تنشيط الحركة التجارية في المنطقة الجنوبية من بلاد البجة، عن طريق إنشاء الطرق فيها وما يصادبها من مراكز تجارية، فقد كانت تمثل صلة الربط بين تجارتها والعالم الخارجي، فأنشأت عدة طرق فيها كان أهمها طريق يمر من سهول كسلا في دلتا النباش، بعد ما يهبط من المندبرات الحبشية الشمالية ويتجه غرباً عبر سهل البطانة حتى يصل إلى النيل^(٤).

وربما أن مرور التجارة في بلاد البجة أمراً لم يكن بالسهل، وهذا بذيل ما ورد على النقوش الأكسومية التي خلفها ملوك أكسوم منذ القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد، والتي تسجل انتصار أولئك الملوك على قبائل البجة وقمع حركاتهم^(٥).

ويبدو أن الهدف من وارد زحف ملوك أكسوم على بلاد البجة كان غرضه تسهيل مرور التجارة وتأمينها عبر هذه البلاد، وهذا تأكيداً على مدى أهمية هذه المنطقة وقیمتها التجارية.

(١) مصطفى مسعد : البجة والعرب ص ١٣

(٢) جواد العلي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٣ ص ٥٠ ،

(٣) محمد عوض : الشعوب والسلالات الأفريقية ص ٢٥٧

(٤) صلاح الدين اشماسي : الموانئ السودانية ص

(٥) Paul , A : History of the Beja Tribes of the Sudan, pp 44 - 45

وصفوة القول فيما ذكرناه سابقاً أن النشاط التجاري لبلاد البجة لم يكن حديث العهد عند دخول العرب بلادهم في العصور الوسطى، بل إن هذه البلاد كانت مسرحاً تجارياً شهيداً عبر مراحل التاريخ المختلفة. وبقي الآن أن نتحدث عن التجارة عند البجة في العصور الوسطى وأهم عناصرها:

أ- التجارة الداخلية:

١ - المراكز التجارية وأهم الأسواق:

كان من أثر نشاط الحركة التجارية في بلاد البجة في العصور الوسطى، أن تشتهر بعض المناطق وتصبح مراكز تجارية هامة يقد إليها التجار، وتقتصد إليها التجارة ويقام بها الأسواق لبيع السلع، وكانت أهم هذه المراكز تتمثل في وادي العلاقي ومدينة عيذاب

أ- وادي العلاقي : هو أهم المراكز التجارية في بلاد البجة في العصور الوسطى، وترجع شهرته إلى زمن المصريين القدماء، حيث كان يمثل أهم مراكز استخراج الذهب التي استثمرها الفراعنة منذ الدولة الوسطى على أقل تقدير، فقد أقام فيه بعض ملوك الدولتين الوسطى والحديثة حصوناً لتأمين المناجم، وحفروا به الآبار للمياه^(١).

وهو من أعظم أودية الصحراء الشرقية المصرية الجافة التي تنحدر من جبال البحر الأحمر إلى النيل، ويبلغ طول مجراه ٣٥٠ كم ويصل إلى النيل قرب كورسكو^(٢) عند الجنوب من الدكة على بعد ١١٠ كم^(٣) كما يتجه طرفه الآخر قرب البحر الأحمر، ويقدر عرضه بحوالي ١٥٠ ياردة تقريباً^(٤).

ما في العصور الوسطى فقد حدد الجغرافيون موقعه بأنه يتوسط أرض الصحراء الشرقية في منطقة البجة، وكان الناس يدخلون منه إلى بلاد البجة، وكان يشغل منطقة واسعة في قلب الصحراء، وقد عبّر عن هذا المعنى ابن سعيد بتقدير مساحة فذكر أن طوله يقدر ٦٣ درجة، وعرضه ٢٠ درجة و٣ دقائق^(٥) وقد ذكر أبو القدا أن موقعه يبعد عن أسوان ١٢ مرحلة وعن عيذاب ٨ مراحل، ومنه يدخل الإنسان إلى بلاد والبجة^(٦).

ومن خلال الحديث عن موقعه الذي تبين لنا أنه يتوسط المسافة بين النيل والبحر الأحمر جعل منه الرابط بينهما، وبالتالي تردّب عليه أن تخرج منه أو تمر به عدة طرق ربطته هو الآخر بكل من البلاد القائمة عليه ومنها طريقاً أشار إليه اليعقوبي^(٧) ابن رسته^(٨) يتجه من شرق العلاقي ويربطه بعيذاب،

(١) عمر صابر : كتاب الأبحاث ص ٣٩

(٢) عبد العال عبد المنعم النامي : محاضرات في الجغرافية التاريخية، الصحاري المصرية في العصر الوسيط، القاهرة ١٩٨٧ م ص ١٢٣

(٣) عمر صابر : كتاب الأبحاث ص ٣٩

(٤) بوركهات : رحلات بوركهات في بلاد النوبة والسودان، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ترجمة فؤاد أندراوس،

القاهرة ١٩٥٩ م ص ١٥٠

(٥) بسط الأرض ص ٥٠

(٦) تكوين البلدان ص ١٢١

(٧) البلدان ص ٣٣٥

(٨) الأعلام القهسية ص ٣٣٥

ويقدر طوله بأربع مراحل، بينما الإدريسي أشار إلى أن هذا الطريق يستغرق السير فيه اثني عشر يوماً^(١)، لكن أبو الفدا أشار إلى أن هذا الطريق طوله ثمانى مراحل^(٢).

أما عن الطريق الذي ربط بين العلاقي وأسوان فقد أشار القلقشندي بأن طوله يبلغ اثنتا عشرة مرحلة^(٣) واتفق على ذلك صاحب تقويم البلدان^(٤) لكن المسعودي اختلف في تقدير طول الطريق عندها وذكر أن طوله يبلغ خمس عشر مرحلة^(٥).

ويتضح لنا كيف ربط هذا الوادي بين بلاد النيل وساحل البحر الأحمر، إضافة إلى ذلك أنه ربط بين بلاد الإسلام وبلاد الذوبة في تلك الوقت وذلك من خلال الطريق الذي كان يمر عبر الأودية المتفرعة منه جنوباً حتى يصل إلى مملكة علوة في السودان الأوسط والشرقي بعد مسيرة ثلاثون مرحلة^(٦).

وإن تضاربت أقوالهم في تحديد المسافة إلى العلاقي منه وإليه، فإنهم يتفقون من ناحية أخرى في رسم الصورة العامة له وكيف كان وادي العلاقي يمثل حلقة الوصل بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب، وذلك عن طريق الطريق الذي ربطت بينه وبين سائر البلدان، مما جعل منه مركزاً تجارياً هاماً في قلب الصحراء، يقد إليه ومنه التجار، وقد عبّر عن هذا المعنى اليعقوبي^(٧) وابن رسته^(٨) بقولهم عن وادي العلاقي "بأنه كالمدينة العظيمة به خلق من الناس وأخلاق من العرب والحجم أصحاب المطالب، وبه أسواق وتجار، ويشربون من الآبار التي يحفرونها به" وظل هذا الوادي يمثل أكبر المراكز التجارية في قلب الصحراء حتى زمن الإدريسي في القرن السادس الهجري والذي عبّر عن هذا المعنى بقوله "إن هذا الوادي كان مقصداً للتجار الذين يعبرون أرض البجة، وكان ينجذب إليه أهل الصعيد وأهل البجة، ولذلك كان فيه خلق كثير وجمع غزير من السكان، ومن ثم كان كالتقوية للجامعة"^(٩).

ونلاحظ من قول المؤرخون عن وادي العلاقي يتضح لنا كيف كان يزج بزاحم التجار فيه، وهذا دليل على نشاط الحركة التجارية التي كانت قائمة فيه في ذلك الوقت، ومن المؤكد أن العامل الأساسي في نشاط هذه الحركة التجارية هو وجود الذهب فيه، والذي أشرنا عن تواجده في هذا المكان سابقاً، وكان من أهم بواعث استيطان العناصر المختلفة فيه منذ بداية التاريخ والذي ترتب عليه في النهاية أن تجعل وادي العلاقي أكبر سوق ومركز تجاري، تدفع فيه السلع الصادرة منه والواردة إليه.

(١) نزعة المشتاق ج ١ ص ٤٧

(٢) تقويم البلدان ص ١٢١

(٣) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٤

(٤) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ١٢١

(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦

(٦) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ص ٣٣٥

(٧) البلدان ص ٣٣٤

(٨) الأعلاق النفيسة ص ٣٣٥

(٩) نزعة المشتاق ج ١ ص ٤٦

ولعل كانت أهم السلع الصادرة من وادي العلاقي هي الذهب الذي كان يمثل الركيزة الأساسية التي اعتمدت عليه الحركة التجارية في هذا الوادي، وهذا المعنى عبّر عنه الإدريسي بقوله عن تجارة الذهب بالعلاقي: "بعضها يجمعونه كبايعوه بينهم، واشترأه بعضهم من بعض، ثم يحمله التجار إلى سائر الأقطار، ومنه معاشهم ومبادئ مكاسبهم وعليه يعولون"^(١).

ونستنتج من قول الإدريسي كيف كان الذهب أهم منتج فيه، وهو الذي ترتب عليه نشاط الحركة التجارية، وبما أن التجار هم الذين كان يحفظون بنقله من العلاقي إلى سائر الأقطار، فمن المؤكد أنهم أتوا بالسلع الواردة إليه والتي تتمثل في العناصر الأساسية للحياة في هذه البيئة الصحراوية.

ب- مدينة عيذاب: وتأتي ثاني المراكز التجارية في بلاد البجة وأكثرها أهمية وأعلاها شهرة، وهي التي حظت بقيمة تجارية على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي. وإن كانت الآن خرائب تقع إلى الشمال من حلايب بنحو ٢٠ كم عند دائرة عرض ٢٠ و ٢٢ شمالاً كما كان منذئذ^(٢)، إلا أنها كانت في العصور الوسطى أهم المدن التجارية، وذلك لما لها من موقع جغرافي مميز يطل على ساحل البحر الأحمر، وهو الذي شكل بدوره أن تنشأ عليها ميناء في هذه المنطقة، ترتب عليها قيام مدينة عيذاب.

ونذكر أن زمن إنشاء هذه المدينة وميناءها، يرجع إلى زمن الفراعنة لاستغلال معادن الذهب والزمرد اللذان كانا يتوافران في وادي العلاقي بكثرة، وظلت هذه المدينة وميناءها تستخدم لهذا الغرض في العصورين البطلمي والروماني^(٣).

وعندما فتح العرب مصر، أخذوا باستخراج المعادن، ولم يغفلوا دور عيذاب في خدمة تجارتهم. وذكر هذا الدور اليعقوبي منذ بداية استقرار العرب في بلاد البجة، فكانت تمثل منفذا رئيسياً لبيع سلعهم وتسويقها، حيث كان التجار يأتون إليها عن طريق ميناءها لشراء الذهب والعاج^(٤).

ومن الواضح في التاريخ الإسلامي أن عيذاب لم تكن في عهد العرب الأوائل في مصر، مركزاً تجارياً حراً، بل كانت تمثل مركزاً حربياً في المقام الأول، ويتضح هذا في أول إشارة إليها في المراجع العربية، فوردت في كتاب البلاذري وذلك عند الحديث عن الحملة التي قادها محمد بن عبد الله القمي سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٤ م ضد قبائل البجة، فيذكر أن القمي استعان بالميرة التي حملتها المراكب من القلزم إلى عيذاب، في التغلب على ملك البجة علي بابا^(٥).

ولكن من النشاط المستمر للعرب في استخراج المعادن في ظهير عيذاب، أصبحت كحصن "ثغر" على البحر الأحمر، كما أشار ابن حوقل إليها في بداية القرن لثالث الهجري، حيث كان الحصن مطلوباً لحماية

(١) نزعة المشتاق ج ١ ص ٦٦

(٢) عبد الله عبد المنعم: دراسات في جغرافية مصر التاريخية، طريق عيذاب قوص خلال العصر الوسيط، القاهرة ١٩٩٨م

ص ٢٨

(٣) السيد عبد العزيز سالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ص ٣٩، ٤٠

(٤) اليعقوبي: البلدان ص ٣٣٥

(٥) فتوح البلدان ص ٢٣٩

لتجار وسلمهم خوفا من السكان المحليين - البجة - والأبحاش، ولذا صارت عيذاب بحق - على قول ابن حوقل - ميناؤ الذهب^(١).

وظلت عيذاب مركزاً للذهب طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين وكذلك أوائل القرن الخامس. ولما نضب معين مناجم الذهب في العلاقي، وانصرف العرب عن استخراجها والاتجار فيه، لم تفقد عيذاب أهميتها بل تآلقت نجمها، وذاعت شهرتها منذ القرن الخامس الهجري، وذلك نتيجة للتطورات السياسية التي ألمت بمصر في عهد الدولة الفاطمية. فيذكر المقرئ في منذ ذلك الوقت أن عيذاب ظلت طريقاً للحج والتجارة وذلك منذ كانت الشدة العظمى في عهد الخليفة المستنصر بالله^(٢) أي ما يزيد عن مائتي سنة وذلك من بضع وخمسين وأربعمائة إلى بضع وستين وستمائة، وكان الطريق إليها من جميع أنحاء مصر إلى قوص ثم عيذاب، والعودة كذلك، وأضاف أن تجار الهند واليمن والحبشة كانوا يأتون إلى مصر عبر هذا الطريق موضحاً كيف كانت تمثل عيذاب مركزاً تجارياً هاماً لهم^(٣).

وقد تبدل بداية التوقيت الذي ذكره المقرئ عن بداية ازدهار عيذاب قد شاهد ناصر خسرو^(٤) كيف أخذت عيذاب في الازدهار حين مر بها في طريقه للحج عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م وقد أشار إلى أنها مدينة ولكن ليست بالكبيرة وذكرها بالمدينة الصغيرة وذلك لعدم سكانها القليل الذي قدره بخمسمائة نسمة، وقلة مرافقها حيث لا يوجد فيها غير مسجد الجمعة.

ومن المؤكد أن ذلك راجع إلى ما أشار إليه في حديثه عن قلة الإمكانيات الموجودة هناك، فهي قليلة الماء فلا يوجد فيها غير ماء المطر فلا يثر فيها ولا عين. وإن كان في حديثه أنه ذكر حجم عيذاب بالمدينة الصغيرة لكنه ذكر عظم شأن التجارة فيها وهو الذي أشار إليه من خلال حديثه عنها، وذلك من خلال قوله بأنه يحصل فيها المكوس لمصر على السفن التجارية الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن، وكيف كانت تنقل منها البضائع برا إلى أسوان مما أدى إلى أن يتخذ تجار أسوان وكلاء دائمين لهم بعيذاب.

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٠

(٢) المستنصر بالله: هو أبو تميم محمد بن الظاهر، أحد خلفاء الدولة الفاطمية ولد عام ٤٢٠ هـ وبويع له بالخلافة في السبعة من عمره في شهر شعبان عام ٤٢٧ هـ وظل في الخلافة مدة ستين عاماً (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وكان أطول الخلفاء عهداً، غير أن مصر لم تتمتع طوال هذه المدة بالرخاء والطمينة غير فترة قصيرة، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية، كان من أثرها أن تركز مركز الخلافة الفاطمية وأصبحت قاب قوسين أو أشفى من أثواب، حيث حدث بالقاهرة الأيام السيئة، وعاشتها المصائب التي لم تشعربها قبل قرن من تأسيسها. فقد عم الوباء والقحط بمصر في سنة ٤٤٦ هـ، وقطع ماء النيل، فأهملت الزراعة، وانتشرت المجاعة، وعم الوباء الذي يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى، واستمر ثلثي سنين (٤٤٦ - ٤٥٤ هـ) ونكبت به جميع الأمم الإسلامية، وودنت عنه قصص مروعة، حتى قيل أنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس، وهدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقحط، ثم أكل بعضهم بعضاً. كما امت القحط السياسي بعد عام ٤٥٠ هـ حيث تولى الوزارة بعد هذا التاريخ أربعين وزير في خلال تسع سنوات. ثم عاد القحط والفلاء وما أعقبه من الوباء والموت في سنة ٤٥٩ هـ وظل الحال كذلك إلى سنة ٤٦٤ هـ مع قيام الفتن والحروب الأهلية، ونتيجة لهذه الأحداث اصطلح المؤرخون لها تسمية باسم "الشدة العظمى" (حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر، وسوريا، وبلاد العرب القاهرة ١٩٨١ م، ط ٤، ص ١٦٩ - ١٧١)

(٣) الواظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢

(٤) سفر نامه ص ١٣٣

ومن خلال إشارة ناصر خسرو لعذاب يمكن لنا أن نقف على ندبة مهمة وهي أن البجة وبما أنها كانت تقيم في صحراء يمين عذاب من ناحية القبلة - شرق - ذكر عنهم "بأنهم ليسوا أشرار فلا يسرقون ولا يغيرون"^(١)، يؤكد هذا أن النشاط الحربي للبجة ضد العرب قد توقف، وهذا ما يعطي الأمان للتجارة في عذاب. كما أضاف إلا أنهم ساهموا في ذلك النشاط وذلك من توفير الماء للمقيمين بعذاب وذكر أنه اشترى من البجة قرب الماء بنفسه بدرهم ودرهمين لمدة ثلاثة أشهر^(٢).

ويبدو أن هذا الاحتكاك الذي حدث بين البجة وأهل عذاب هو ما جعل البجة يشتركون في النشاط التجاري في عذاب فيما بعد، ويتضح هذا في إشارة ناصر خسرو عن إبلهم الذي يوصف بين التجار (بالإبل النجبية) حيث كانت تنقل منهم إلى مصر والحجاز عن طريق عذاب، و أضاف كيف كان التجار بعذاب تنقل لأمير مكة هذه الإبل عن طريق البحر^(٣).

ويتضح لنا من سابق القول كيف بدأ البجة السعي في ممارسة النشاط التجاري بعذاب وإن كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة العرب. وقد أشار البكري (ت ٥٤٨٧ / ١٠٩٤ م) في حديثه عن عذاب في القرن الخامس الهجري أن سكان عذاب من قبائل العرب وهم قوم من بني يونس من ربيعة^(٤) وقد ذكرنا سابقاً أنه كان لبني يونس من ربيعة عذاب وملكوها عند قبومهم من اليمامة، فجرى بينهم وبين بني بشر حروب انهزموا فيها فوفدوا منها إلى الحجاز^(٥).

ومن المرجح أن هذه الأحداث ساهمت في أن تفسح المجال أكثر للبجة للمشاركة في العمل التجاري بعذاب، بعدما خرج منها بني يونس، ويبدو أن البجة قد شهدت مدى النشاط التجاري بعذاب وحركة التجارة فيها، لذلك تطلعت في أن تنقسم أرباحها وخاصة أنها بأوطانهم، وهم ذوي خبرة بشئون الصحراء التي خلفها.

وتأتي إشارة الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠ / ١١٦٧ م) لما وقفنا تأكيداً عليه من نتائج فينص قوله عن مدينة عذاب "بأنها على ضفة البحر المالح، وأهلها سود (يقصد البجة) وشربهم من آبار، ثم أعطى صورة نظام الحكم بها فمدينة عذاب ينزلها عامل من قبل رئيس البجة وعامل من قبل سلطان مصر يقتسمون جبايتها نصفين، وعلى عامل صاحب مصر القيام بجلب الأرزاق والمعيشة إلى عذاب، وعلى رئيس البجة القيام بحمايتها من الدخشة، ويشير إلى أن سكان البجة يتبادلون مع الرعاة من البجة ما عندهم من السمن والعسل واللبن في حين يعمل بعض سكان عذاب في صيد الأسماك^(٦).

(١) سفر نامه ص ١٣٤

(٢) سفر نامه ص ١٣٤

(٣) سفر نامه ص ١٣٥

(٤) عبدالله يوسف النعيم : جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري، الكويت ١٩٨٠ م ص ٨١

(٥) المقرئبي : البيان والإعراب ص ٤٤

(٦) نزعة المشتاق ج ١ ص ١٣٤ ، ١٣٥

وقد ظلت عيذاب تحت إدارة مشتركة من السلطنة المصرية والبة حتى زيارة ابن جبير لها في طريقه للبحر عام (٥٧٩ هـ / ١١٨٦م) فذكر: أن أهل عيذاب ونحوها من الساكنين هم من قبيل السودان يعرفون بالبة، وذكر أن لهم سلطان من أنفسهم يقيم معهم في الجبال المتصلة بعيذاب، وينوب عنه نائب يقيم مع والي عيذاب من السلطنة المصرية، وبهذا أصبح للبة عنصرًا دائمًا في إدارة عيذاب ومن المؤكد أن الغرض من هذا هو تخصيص فوائدها، بعدما أصبح لهم النصيب الأكبر من مكوسها^(١).

ومن الواضح أن هذا راجع إلى ما ذكره ابن جبير في ذلك الوقت من الحجم الكبير للتجارة في عيذاب، فنص قوله عنها بأنها "أدفل مراسي الدنيا وذلك بسبب أن مراكب الهند واليمن التي تخط فيها وتقلع منها، زائدًا عن مراكب الحجاج الصادرة والواردة، إضافة إلى ما كان يحصل عليه سكان عيذاب من الفوائد من التجار والدجاج وذلك لما كانت عيذاب من منطقة قاحلة لا نبات فيها ولا ماء، وأصبح من الضروري أن يعتمد أهلها على كل ما يجلب إليها. وقد أفادوا بذلك أن من التجار والدجاج فوائد لا تحصى، إضافة إلى أنهم كانوا يفرضون ضريبة معلومة على كل حمل يحملونه للحجاج، غير الوظائف المكوسية التي تجمع منها. إضافة إلى ما كان لهم من مرافق للحج الممثلة في الجلاب التي تحمل الحجاج في البحر، حيث كان الحجاج يكترون هذه الجلاب للحج مما تعود على أصحابها بالمال الكثير، وقد ذكر أن أصحاب الأموال والأغنياء من أهل عيذاب هم الذين يملكون هذه الجلاب"^(٢).

وقد يتضح أكثر لنا من قول ابن جبير عن كثافة الحركة التجارية بعيذاب، ما ذكره في طريقه بالصحراء من كثرة القوافل الميزابية الواردة والصادرة المحملة بسلع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب وكان أكثر ما شاهده في طريقه كان من التوابل من الفلفل الأسود حتى خيل إليه من كثرتة يوازي التراب قيمة، إضافة إلى ما شاهده في قارعة الطريق من أحمال الأطفال والقرقة وغيرها من السلع مطروحة لا حارس لها، وظن أنها تركت بهذه الطريق إما لإعياء الإبل أو غير ذلك من الأعذار، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها أصحابها سالمة^(٣).

وهكذا سجل ابن جبير النشاط التجاري لضمخ الذي عرفته عيذاب في ذلك الوقت، وكان هذا نتيجة حتمية لما وقفنا عليه سابقاً بتمسك البجة بالمشاركة في إدارتها للحصول على هذه الفوائد، ومنهم من مارس تجارة البحر للحصول على أكثر من هذا، فقد أشار ابن جبير^(٤) أنه نزل بعيذاب بدار تنسب إلى (مولج) وذكر عنه أنه أحد قوادها الحبشيين - البجة - الذي كان له أعظم الديار والرباع والجلاب.

ومن هذا نستنتج مدى المكاسب التي تتحقق من التجارة بعيذاب مما جعل القادة الحربيين من البجة إلى ممارسة التجارة بها للحصول على هذه المكاسب العظيمة. وإذا كان هذا حال البجة المقيمة بعيذاب، فما حال البجة التي تقيم بجانب عيذاب وقد شاهدوا مدى حجم الأرباح والفوائد منها.

(١) ابن جبير : رحلته ص ٤٢

(٢) نزهة المشتاق ج ١ ص ٤١ ، ٤٢

(٣) ابن جبير : رحلته ص ٣٨

(٤) ابن جبير : رحلته ص ٤٠

من المؤكد أنهم تطلعوا للحصول على أي فائدة منها، لذلك لجأوا إلى المكائد والخداع للحصول على أي شيء، وقد أشار إلى ذلك ابن جبير بقوله بأن الركوب من جدة إليها (يقصد عيذاب) آفة عظيمة للحجاج، وذلك أن الرياح تُلقي بهم على الأكثر في مراسي بصحاري تبعد عنها مما يلي لاجنوب، فينزل إليهم البجة الساكنون بالجبال، فيكون منهم الجمال، ويسلكون بهم غير طريق الماء فربما ذهب أكثرهم عطشاً، وحصلوا على ما معهم من نفقة أو سواها^(١).

وفي نهاية الحديث عن النشاط التجاري لعيذاب في زمن ابن جبير، يوضح لنا أن عناصر البجة بها كان لهم النصيب الأكبر في إدارة شئون التجارة فيها. وقد يتبين هذا في حديث ابن جبير أثناء خروجه منها وركوبه البحر ذكراً إياها (بالبلد الملعونة)^(٢) ومن المؤكد أن هذا راجع إلى سوء المعاملة وقسوتها من أهل عيذاب من المتعاملين مع الحجاج والتجار، وهذه هي الطبيعة السائدة للبجة.

وما إن تقدم التاريخ بعيذاب، حتى أصبح النصيب الأعظم منها للبجة، ففي زمن زيارة ابن بطوطة لعيذاب عام ٧٢٦ هـ / ١٣٣٤م أشار إلى أن أهلها البجة، وطعامهم اللبن، ويركبون المهاري، ويسمونهم الصهب، أما ذكره عن إدارتها وفوائدها فذكر أن ثلثها للسلطة المصرية وكذلك، والثلثان للبجة^(٣).

وآخر الحديث عن عيذاب نلاحظ كيف بدأت عيذاب بالمدينة الصغيرة، حتى أصبحت من أنشط المراسي التجارية على البحر الأحمر حتى عظم صيدها، وكيف شكلت أهم مراكز التجارة الداخلية وخاصة للبجة حتى تطلعوا للسيطرة عليها، وكيف ساعدتهم الأحداث الداخلية لعيذاب وخارجها في أن تفسح المجال لهم، حتى سلس لهم إدارتها وأصبحت تمثل أهم مراكزهم التجارية.

جـ - مدينة هجر: ومن مراكز التجارة الداخلية في بلاد البجة في العصور الوسطى مدينة هجر وهي الواقعة الآن في إقليم لمتم، على رافد (تكازي) نهر سنيت، الذي يصب في العظيرة، وتعرف الآن ببلدة أم حجار أو أم هجر، بالقرب من الحدود السودانية الحالية، حيث اكتسبت هذه البلدة موقعاً مهماً ومركزاً تجارياً للقوافل في بلاد البجة، وذلك لتمييز موضعها الإقليمي الواقع على المدخل بين حوض النيل وإثيوبيا، هذا الأمر الذي جعل القوافل تتخذة منفذاً لها بين تلك البلاد، وكذلك ساحل البحر الإريتري في مختلف موانئه من مصوع وباضع وسواكن وغيرها^(٤).

ويبدو أن هذه البلدة حازت على قيمتها الاقتصادية - بخلاف الموقع - لما كان لها من دور سياسي بين قبائل البجة، فكانت تمثل العاصمة لهم، بل ومركز الحكم والإدارة لجميع عناصر البجة وقد ذكر هذا المقريري^(٥) - نقلاً عن ابن سليم الأسواني - قائلاً : " كان للبجة قديماً رئيس يرجع جميع رؤسائهم إلى حكمه يسكن قرية هجر وهي أقصى جزيرة البجة".

(١) ابن جبير : رحلته ص ٤٠

(٢) ابن جبير : رحلته ص ٤٣

(٣) ابن بطوطة : رحلته ص ٥٢

(٤) الشاطر بصيني : معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ٢٣ ، ٢٤

(٥) المقريري : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤

ويمكن لنا تأكيد هذا القول بالقول السابق له عن هجر، فقد ذكر اليعقوبي^(١) أن هجر هي عاصمة المملكة الأولى، وهي أكبر ممالك البجة، وحازت على أكبر مساحة من الأرض ما بين أسوان إلى حد بركة، كما حظيت بتجمع بشري هائل. وذكر عنها في موضع آخر بأنها أرض البجة الذين يسمون بالحدارب وأن المسافة إليها من العلاقي خمس وعشرون مرحلة ويذهب إليها التجار المسلمون وغيرهم للتجارة بها^(٢). ويوضح لنا من قول اليعقوبي كيف كانت هجر محطة للتجار يذهبون إليها ببضائعهم، وكذلك للحصول على السلع السودانية المختلفة من بلاد النوبة والبجة والحبشة.

د - مدينة تغلين: وهي من المراكز التجارية الهامة ببلاد البجة أيضاً وهي التي ذكرها اليعقوبي ببقلين وحدد مسافتها من وادي العلاقي بمسيرة خمس وعشرون مرحلة، وذكر أن التجار يقصدونها بتجاريتهم^(٣). أما ابن حوقل فقد حدد مكانها بأنها تقع وسط وادي القاش، وذكر عنها بأن بها تجار يتاجرون ويسافرون إلى مكة وغيرها^(٤).

وفي نهاية القول يوضح لنا كيف كانت بلاد البجة تمثل أكبر سوق تجاري، وذلك من خلال مراكز التجارة الداخلية، والتي حظيت بنشاطها المميز ورواج تجارتها، وبقي علينا الآن أن نتحدث عن السلع التجارية التي قام عليها هذا الحجم الضخم من التجارة، وكيف مثلت أعمالها جذب أنظار التجار إليها، مما أدى ذلك في النهاية إلى رواج التجارة بها ونشاطها.

٢ - أهم السلع التجارية:

لعبت السلع التجارية دوراً هاماً في نشاط الحركة التجارية لهذه المنطقة، حيث كانت سبباً في أن تجعل منها سوقاً تجارياً يجذب التجار من الأماكن المختلفة، رغبة في اقتسام أرباحها. وتمثلت أهم هذه السلع في :

أ - الذهب: وتعد هذه السلعة من أهم السلع التجارية الصادرة من بلاد البجة، فذكر اليعقوبي^(٥) أنها حازت على أكبر قدر من نشاط التجار في المناطق المختلفة وخاصة أسوان فنكر عنها قائلاً : "وبها تجار المعادن".

ومن الواضح من هذا القول أن كميات كبيرة من هذا الذهب الذي كان يتم استخراجه يتجه إلى أسوان، ومن ثم صارت أسوان سوقاً كبيراً يتبادل منه التجار بيع وشراء الذهب. وإذا كانت أسوان سوقاً لهذه السلعة على المستوى الداخلي، فإن عذاب أصبحت لها سوقاً على المستوى العالمي وهذا أيضاً نلاحظه من قول

(١) تاريخ اليعقوبي ص ١٩٢

(٢) البздان ص ٣٣٦

(٣) البздان ص ٣٣٦

(٤) صورة الأرض ص ٥٧

(٥) البздان ص ٣٣٤

الديعقوبي^(١) عن عيذاب قائلا: " يأتي إليها التجار من اليمن والحجاز لشراء الذهب"^(٢) ونديجة للطلب المستمر لهذه السلعة الرائجة وزيادة الطلب عليها، اتجهت تجارة عيذاب للعمل بها في المقام الأول حتى صارت عيذاب على حد قول ابن حوقل "مينااء الذهب".

ومن المؤكد من اهتمام التجار بهذه السلعة ورغبة العمل في تجارتها؛ هو ما كانت تحققه لهم من مكاسب طائلة كما ذكر الإدريسي^(٣)، وهذا ما جعل بعد المغامرين الطامعين في احتكار هذه السلعة، كما فعل العمري بعدما سمع بأخبار الذهب، واشترى عبيدا للتحفر في مناجمه^(٤).

ب- الزمرد: وهو من أتمن السلع التجارية الصادرة من بلاد البجة وأغلاها قيمة، وذلك لأن هذه البلاد انغرضت دون سواها باستخراج الزمرد وتجارته^(٥)، مما أدى إلى زيادة الطلب عليه، لا على مستوى الأسواق الداخلية، بل على المستوى العالمي، فبعد أن كان يتم استخراجه من مناجمه، يُحمل إلى القسطنطينية - القاهرة - ومن ثم إلى الأسواق الخارجية^(٦)، فقد كان يصدر نوع منه يسمى (بالريحاني) إلى أهل الصين والهند^(٧)، ونوع آخر يصدر إلى المغرب وهو مشيع الخضرة، ولكثرة طلبه في بلاد المغرب سمي (مغريبيا)^(٨)، وكان يصدر أيضاً إلى دمشق^(٩)، ومنها إلى أوروبا، إذا كان الشائع في أوروبا في العصور الوسطى اعتقاد الناس أن بعض الأحجار الكريمة يطرد الأرواح الشريرة، والبعض الآخر يضمني على الفرد سلامة الجسم والعقل^(١٠).

ويذكر الديوفاشي^(١١)، وابن الأكفاني^(١٢)، عن الفوائد المعتقد بها في الزمرد فيذكر أن: "أنه يطرد الشياطين والسحر والأفاعي والمقارب، وإذا سحق وشرب يبطل السم واللدغات، ويوقف الجزام، ويقطع الإسهال ونفث الدم، ويقوي المعدة والأسنان، ويسرع طلق الولادة، والنظر إليه يجلو البصر ويقويه". وهذا ما جعل منه في نفوس الناس قيمة كبرت المال والذهب، فقدر الثقل منه بأكثر الأثمان فذكر البيروني أن نصف المئقال منه بلغت قيمته ألفي دينار^(١٣) وذكر الديوفاشي أنه اشترى قطعة بمئقال أدنى عشر بقيمة ألف درهم وقدرت بدمشق فبلغت ثلاثين ألف درهم وذكر أنها كانت تساوي أكثر من ذلك^(١٤) وهذه القيمة العالية جعلت من

(١) البздان ص ٣٣٥

(٢) صورة الأرض ص ٥٠

(٣) نزهة المشتاق ج ١ ص ٤٦

(٤) المقرئى : المقفى ج ٤ ص ٤٠٤

(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥٠

(٦) المقرئى : المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ٢٣٢

(٧) ابن الأكفاني : نذب الثخائر ص ٤٨

(٨) البيروني : الجمهر فى معرفة الجواهر ص ١٦١

(٩) الديوفاشى : زهر الأفكار ص ١٦

(١٠) محمود الحويرى : أسوان فى العصور الوسطى ص ١١٢

(١١) زهر الأفكار ص ١٥

(١٢) نذب الثخائر ص ٥٢

(١٣) الجمهر فى معرفة الجواهر ص ١٦٣

(١٤) زهر الأفكار ص ١٦

القائمين باستخراجها بالاهتمام بتفتيش الفعلة من الحفارين حتى لا يأخذوا شيئا منه فيذكر عن ذلك العمري قائلا: الاحتراز على هذا المعدن كبير جدا، والفعلة تفتش عدد خروجهم منه في كل يوم، حتى تفتش منهم أماكن لا يذيق ذكرها، ويذكر أن آخر حدثه عن سبب هذا التفتيش المهين لهؤلاء الفعلة، فنكر له أن الفعلة في هذا المعدن يقومون بسرقة، ورغم التفتيش والاحتراز الشديد فلهم الحيل الكثيرة في سرقة، منها أن الرجل منهم يسرق ما يمكنه من الزمرد ويعمله في كرس صغير معد معه لذلك، ويربطه ثم يعلقه بخيط مبروم مشدود بين أضراسه الدواخل، ويكون رأس الخيط معقودا عقدا وثيقا، فإذا علق الخيط أخرج تلك العقدة بين الضرسين إلى جهة الشفة فيبقى ناشبا به، فإذا خرج إلى ظاهر المعدن وصار إلى حيث يأمن، أخرجه وأخذ ما فيه^(١).

ج- الإبل : لم تقل الإبل البجاوية من حيث القيمة التجارية عن السلع الأخرى لدى التجار، وذلك لما لها من صفات امتازت بها، مما جعلت منها سلعة تطلب على المستوى الإقليمي والخارجي، مما جعلت البجة يهتموا بها حتى أصبحت لدى بعضهم المصدر الوحيد للمعيشة، وذلك لما تدره عليهم من أرباح كثيرة. فيذكر عن ذلك الإدريسي قائلا : "إن بعض قرى البجة ينتجون الجمال، وأكبر إنتاجا لها بقرية تعرف بالبختة، فمنها معاشهم وهي أكثر مكاسبهم، وقد امتازت إبلهم بالصبر على السير والسرعة مما جعلها مشهورة بأرض مصر، وكثرة الأقبال لهم على شرائها"^(٢).

ولعل ما يؤكد على أهمية هذه السلعة ورغبة الحصول عليها، أن أرض الإبل (بلاد الحجاز) رغبت في الحصول على هذه الأنواع الجيدة فيذكر ناصر خسرو^(٣) "أنها كانت تصدر عن طريق عذاب عبر البحر الأحمر إلى أمير مكة، وذكر أن هذه الجمال تسمى بالنجبية، وأنها لا توجد في مكان آخر غير صحراء البجة فكانت تنقل إلى مصر والحجاز".

ب- التجارة الخارجية: لقد أشرنا في بداية حديثنا عن التجارة في بلاد البجة من كونها شاهدا على النشاط الاقتصادي لمراحل التاريخ المختلفة التي مرت بها. ومن المؤكد أن حركة التجارة الداخلية ونشاطها ساهمت في أن تجعل من هذه البلاد مركزا تجاريا عاما على المستوى الخارجي، إضافة إلى أنها مثلت حلقة الربط بين البلاد والمناطق المختلفة، حيث ربطت بين بلاد الذوبة والحبشة بمصر من ناحية، وبين البحر الأحمر والذيل من ناحية أخرى، مما أكسبها قيمة مفضلة من مستوى التجارة الخارجية، والتي جعل اعتمادها على أهم عوامل نشاطها والتي تمثلت في أهم الطرق والموانئ لتجارية.

١ - أهم الطرق:

لم يكن إنشاء الطرق في بلاد البجة وقيامها بالنشاط التجاري في العصور الوسطى جديدة العهد، ونتائج الصدفة، فإن لهذه الطرق من الأغراض والغايات ما كانت مبررا لنشأتها وتحديد مسارها منذ مراحل التاريخ القديم وذلك في ضوء دعم من مقامات جغرافية وأخرى بشرية ساهمت في ذلك.

(١) مسالك الإبرار ص ٧٩

(٢) نزعة المشتاق ج ١ ص ٤٧

(٣) سفر نامه ص ١٣٥

ولعل أهم هذه الغايات وأقدمها هو الغرض الاقتصادي وخاصة التجارة بمختلف مستوياتها الخارجي والداخلي، فقد تطلع أول من استقر في وادي النيل وهم الفراعنة، إلى الحصول على تجارة البحر الأحمر بأيسر السبل، توفيراً للوقت والجهد، لذلك لجأوا إلى اختراق بلاد البجة المجاورة، وقد أشرنا سابقاً في حديثنا أن رعمسيس عندما بنا أسطولاً في البحر الأحمر بغرض التجارة، جعل من القصير مركزاً له على الساحل، ولكي يربط بينها وبين النيل، أنشأ طريقاً يمر عبر صحراء البجة من القصير حتى يصل إلى فقط^(١) ومن المحتمل أن هذا الطريق أخذ شبكة البجة حتى عام ٢٠٤هـ / ٨١٩م فقد ذكر ابن حوقل أن البجة كانت تذهب إلى فقط من ناحية الصحراء للحصول على الثبر - القمح - والتمر^(٢)، وقد كان هذا مبرراً لإنشاء الطرق على المستوى الخارجي للتجارة، فماذا إذن عن إنشائها على المستوى الداخلي للتجارة ؟

لقد اخترق الفراعنة صحراء البجة بحثاً عن المعادن، وعندما وجدوها أقاموا عليها مراكزهم، ولجأوا إلى ساحل البحر لنقلها وتجاريتها، وقد ذكرنا سابقاً أن عذاب أنشأها الفراعنة لاستغلال مناجم الذهب بصحراء العلاقي^(٣) وهذا ما يبين سبب قيام الطرق من أجل التجارة الداخلية أيضاً، وذلك لسد احتياجات السكان في أقاليم المعادن والساحل.

ومن المؤكد أن هؤلاء الفراعنة لجأوا إلى الوسائل المختلفة من دراسة وتحقيق لهذه الصحراء لتحديد مسارات واتجاهات هذه الطرق. خاصة وإننا ذكرنا أن الأبحاث دلت على أن الفراعنة هم أول من استغل مناجم الذهب في تلك البلاد وقد عثر على أقدم خريطة في العالم يرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٠ ق . م وقد صور عليها أقدم مصور جغرافي عن أقدم مناطق استخراج الذهب في وادي العلاقي من صحراء البجة^(٤) وإن دل هذا القول فإنما يدل على مدى التقدم العلمي للفراعنة في رسم الخرائط الجغرافية، فمن المؤكد أن هذه الخرائط استخدمت لأغراض أخرى وقد يبدو أنها استخدمت في تحديد مسارات الطرق في وضع جغرافي مناسب.

لما في عهد اليونان في مصر لم تقل أهمية أغراض إنشاء الطرق وتجديد مسارها في بلاد البجة، وذلك حين بدا اهتمامهم بتجارة البحر الأحمر وإنشاء الموانئ على ساحله الأفريقي مثل ميناء بورت سوتريا، وثيرون سويترون، وليمن إيفانجلز، وكسوتراس ليمن، وبطليموس ثيرون^(٥).

فلا بد أنهم تطلّعوا إلى إنشاء الطرق بصحراء البجة لكي يصلوا تجارتهم بالنيل، وتحديد هذه الطرق وتوجيه مسارها لجأوا إلى الاستعانة بالعناصر العربية وخاصة من قبيلة بني لآتهم ذو خبر بشئون الصحراء وعبورها للقيام بعمليات النقل البري والمحافظة على مسار هذه الطرق بين البحر الأحمر والنيل، حتى غدا اسمهم عند اليونان والرومان يعرف باسم بليميين^(٦).

(١) جورجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٢١٤

(٢) صورة الأرض ص ٥١

(٣) السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر في التاريخ الإسلامى ص ٣٩

(٤) عطية القوصي : دولة الكنوز ص ١١٣

(٥) التمامي : الموانئ السودانية ص ٢٨ - ٢٩

(٦) مصطفى مسعد : البجة و العرب ص ١٣

وأما في عهد الرومان وإن انصرفوا عن تجارة البحر الأحمر، ولم يهتموا بتأسيس مراكز تجارية على طول ساحله الأفريقي^(١)، فهذا لا يعني أن الطرق التجارية في بلاد البجة فقدت أهميتها. لأن في ذلك الوقت قد سيطر البلبيين على مجموعة كبيرة من البجة الشماليين^(٢)، وبالتالي استكموا نشاط اليونان ومتابعة حركة النقل البري والطرق ببلاد البجة، أما البجة الجنوبيين فقد سيطر عليهم مذوك أكسوم وبالتالي تابعت النشاط البري وإنشاء الطرق في جنوب بلاد البجة^(٣).

وبهذا نكون قد شاهدنا دور الطرق التجارية في بلاد البجة في العهود القديمة وكيف كانت لتجارة مبررا في إنشائها، وكيف استعان القنماء بالوسائل والسبل المختلفة في تحديد مسارها لتحقيق أغراضهم. ولكن عند قدوم العرب مصر في العصر الوسيط وفرض سيطرتهم على بلاد البجة، كان تمثل هذه الطرق شأن عظيم، وذلك لما كان للعرب من تعدد الأهداف والغايات بهذه البلاد، والتي ساهمت بدورها في تفعيل هذه الطرق وتحديد مسارها.

- وكان أول هذه الأهداف هي الأهداف السياسية والحربية وقد تمثلت في كون بعض المناطق مراكز حربية مثل ماء حكم الذي اتخذته حكم النابغي في عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧م مركزا لعملياته الحربية ضد البجة^(٤) وكذلك عذاب التي اتخذها القمي في عام ٢٤١ هـ / ٨٥٤م كأحد الثغور الحربية في دعم حربة على البجة^(٥) لذلك فقد وقع الاهتمام بالطرق وتوجيه مسارها، لأنها توطن سلطان الدولة الحاكمة بمصر بمراكزها داخل أقاليم البجة حيث يرسل عبرها العدة والعنادر للجنود القائمة بها.

- أما الأهداف الاقتصادية فنلاحظ دورها في نشاط حركة الطرق من خلال ما سبق ذكره عن هذه لبلاد من اختصاصها بمعان الذهب والزمرد ونشاط حركة مراكز التجارة الداخلية، وارتباطها بمدن الصعيد الأعلى، أو موانئ البحر الأحمر وهذا ما سنتناوله تفصيلا.

- أما الأهداف الدينية فقد تمثلت في قيام هذه الطرق بخدمة الحجيج خلال أكثر من قرنين من الزمن^(٦). وإذا كنا قد تناولنا من الأغراض والأهداف ما يبرر إنشاء هذه الطرق وتحديد مسارها. فماذا عن المقومات الجغرافية التي ساهمت في ذلك ؟

لقد تمثلت أهم هذه المقومات الجغرافية في طبيعتها من خلال مظاهر السطح والتي كانت عبارة عن سلسلة من جبال البحر الأحمر التي تتألف من كتل جارية تكون بمثابة العمود الفقري للصحراء الشرقية، وقد تمثل عائقا أمام شبكات الطرق الواصلة بين الساحل ومدن الصعيد الأعلى، إلا أن الأودية التي تنصرف منها تجاه النيل تمثل طرقا طبيعية يمكن استغلال مجاريها، وكان أهمها وادي العلاقي الذي يصل بالنيل، ويبلغ

(١) مصطفى مسعد : البجة و العرب ص ١٤

(٢) مصطفى مسعد : البجة و العرب ص ٧

(٣) الشامي : الموانئ السودانية ص ٥٥

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٢

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٣٩

(٦) المقرئ : المواقف ج ١ ص ٢٠٢

طول مجراه ٣٥٠ كم وكان هذا من ناحية الغرب لهذه السلسلة الجبلية، أما شرقها فيمتاز بالأودية متعددة الروافد وعظم طولها، وصلاحياتها كطرق ومسالك طبيعية، إذ تؤدي إلى ممرات منخفضة سهلة تدخل الكتل الجبلية وكان أهمها وادي الحوضين الذي يصل بالبحر الأحمر ويبلغ طول مجراه ١٠٨ كم^(١)

أما عن المقومات البشرية التي دعمت مسالك هذه الطرق فقد اتبحت من خلال وجود سكان مستقرين ومدجولين في أرجاء بلاد البجة ممن لهم نشاط اقتصادي من استغلال موارد التعدين، أو احتراف التجارة، أو تقديم الخدمات للطرق، فقد كان لكثرة وجود القبائل العربية في هذا الإقليم أثره على الطرق من حيث توفير الإبل اللازمة كدواب لحمل بضائع المسافرين كما ذكر ناصر خسرو في رحلته^(٢) أو هداية القوافل وحمايتها عن طريق الأدلة الماهرة والعارفين بموارد المياه ومياسر الطرق، كالذي أشار إليهم ابن جبير في رحلته من تولى عرب اليمانيين من قبيلة بلي من أفخاذ قضاة هذا العمل، وأطلق عليهم أصحاب طريق عيذاب^(٣) وقد أشار ابن بطوطة بقيام العرب بهذه المهمة في زمنه وأشار أن القائم بها هم عرب دغيم^(٤) ويمكن لنا من خلال قول الرحالة العرب أن نلاحظ دور المقومات البشرية في استكمال نقص المقومات الطبيعية من شدة الحر وقلة الماء، وبذلك زادت من فاعليتها وعملت على الاستفادة الكاملة منها بما يفسر جغرافيا قيام الطرق في أماكنها واختيارها لهذه المسارات وسط الصحراء.

وبذلك نكون قد عرضنا ما يبر إنشاء الطرق من الأغراض والأهداف وما يساعدها من مقومات طبيعية وبشرية وبقي علينا الآن معرفة أهم شبكات هذه الطرق وتحقيق منازلها في العصر الوسيط:

أ - الطريق بين أسوان وعيذاب :

ويعتبر هذا الطريق أحد الطرق التجارية القديمة الهامة وقد ذكر أن هذا الطريق كان في عصر مذوك الفراعنة أحد الوديان التي جفت، ثم ما لبث التجار أن استخدموه كطريق تجاري، بعد أن تكون لهم تجمع بشري بمنطقة وادي العلاقي^(٥)

أما في العصر الإسلامي ، فقد شهد هذا الطريق على أكبر حركه تجارية، وذلك بعد أن مهدت له الأسباب السياسية اتجاهاته ومسارته، فقد تحدد مسارة الأول من أسوان إلى العلاقي، بعدما اتخذ ابن الجهم في حملة التأييدية على البجة عام ٢٣٢ هـ / ٨٤٧م، وكان هذا التاريخ أيضاً بداية استقرار العرب المسلمين بالعلاقي، والذين ساهموا بدورهم في نشاط هذا القسم من هذا الطريق^(٦) ولكن تكامل مسار هذا الطريق من أسوان مروراً بالعلاقي ثم عيذاب بعدما اتخذ القمي معبراً له في حربة على البجة في عام ٢٤١ هـ / ٨٥٤م^(٧). ولكن يتضح لنا مسار آخر من الطرق بين أسوان وعيذاب، وهو طريق يربط بينهما دون المرور بالعلاقي،

(١) عبد العال عبد المنعم : دراسات في جغرافية مصر ، طريق قومن عيذاب ص ١٠

(٢) سفر نامه ص ١٣٣

(٣) ابن جبير : رحلته ص ٣٧

(٤) ابن جبير : رحلته ص ٥٣

(٥) كتاب الأبحاث ص ٢١٢

(٦) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٣

(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٣

ويبدو أن مساره تحدد بعدما سلكه ابن الصوفي في عام ٢٥٦ هـ / ٨٦٩م، لما أحس بقدوم جيش ابن طولون لقتاله، فهرب من أسوان متخذاً إياه إلى عيذاب مباشرة دون المرور بالعلاقي، لأن في ذلك المكان آنذاك كان يقيم بالعلاقي عدوؤه وهو العمري^(١).

ومن الجدير بالذكر هنا - أن النشاط الحربي للعرب في بلاد البجة قد ساهم في تحديد مسارات الطرق بين أسوان وعيذاب. وبعبارة أخرى أن الطريق بين أسوان وعيذاب اتخذ مساران:

- أولهما: طريق يتجه من أسوان إلى العلاقي ثم عيذاب.

وبما أن هذا المسار اخترق منطقة العلاقي وهي منطقة للذهب، تمثل نشاطه في تجارة الذهب، وبالتالي لم يأتي مساره في اتجاه واحد أي من أسوان إلى عيذاب والعودة كذلك، فقد جعلت منه تحركات التجار قسماً يمثل العلاقي مركزاً له، وتمثل مساره الأول من أسوان إلى العلاقي والعودة كذلك، ومن الواضح أن الذي استخدم هذا المسار هم تجار الذهب القائمون بأسوان على حد قول اليعقوبي عن أسوان وذكر عنها قائلاً: "هي مدينة عظيمة على الجانب الشرقي من النيل وبها تجار المعادن، وتجار تأتي من بلاد البجة والنوبة"^(٢).

أما المسار الآخر والذي تمثل اتجاهه من العلاقي إلى عيذاب والعودة كذلك فقد استخدمه تجار عيذاب للحصول على تجارتهم من العلاقي وبلاد البجة وتصديرها إلى اليمن والحجاز، وهذا بخلاف استخدامة في أداء فريضة الحج كذلك كما ذكر اليعقوبي قائلاً: "إن عيذاب يأتيه التجار فيحملون البتر والعاج، ويسافرون بتجارتهم إلى مكة والحجاز واليمن"^(٣).

ويمكن لنا تأكيد هذا القول من هذا الطريق كان على مرحلتين من خلال ما جاء من قول المؤلفين العرب في تقدير طول كل مرحلة على حدي دون الربط بينهما. فجاء تقدير المرحلة الأولى، وهي التي كانت من أسوان إلى العلاقي بمسافة اثنتي عشرة مرحلة كما ذكرها القلقشندي^(٤) وأبو الفدا^(٥). لكن المسعودي^(٦) والمقريزي^(٧) اختلفا في تقدير طول هذه المسافة ذاكرين أنها تبلغ خمسة عشر مرحلة.

أما المرحلة الثانية وهي التي كانت من العلاقي إلى عيذاب، فجاء تقديرها هي الأخرى على حدي، فقدرها اليعقوبي^(٨) وابن رسته^(٩) بطول أربع مراحل، أما أبو الفدا فقدرها بطول ثماني مراحل^(١٠) وزاد عنهم

(١) البثوي : سيرة ابن طولون ص ٦٥

(٢) البلدان ص ٣٣٤

(٣) البلدان ص ٣٣٥

(٤) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٤

(٥) تقويم البلدان ص ١٢١

(٦) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦

(٧) المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ١٩٧

(٨) البلدان ص ٣٣٥

(٩) الأعلاني الذهبية ص ٣٣٥

(١٠) تقويم البلدان ص ١٢١

الإدريسي وقدرها بطول اثنتا عشر مرحلة^(١).

والاختلاف في تقدير طول أو قصر المسافة في المرحلة الأولى والثانية في هذا الطريق في قول المؤلفين العرب لا يمثل خلاف، وذلك لاعتمادهم في تقدير المسافات بالمرحلة، وهذا المقدار غير ثابت بقياس الطرق، لأن المرحلة بمقدار يوم من السير، والسير له من الأسباب ما يعوقه فيطول، وله ما ييسره فيقصر. ولكن الذي لا يمكن الاختلاف فيه ولا خلاف هو أن هذا الطريق استخدمه التجار في نشاطهم التجاري، وخاصة تجارة الذهب.

- وثانيهما: طريق يتجه من أسوان إلى عيذاب مباشرة.

ومن الواضح من وصف ناصر خسرو^(٢) لرحلته للحج عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م، أنه سلك هذا الطريق، ويتبين لنا هنا من تقديره لطول الطريق والذي حدده بطول ٢٠٠ فرسخاً أو أكثر، وقطعت في ١٥ يوماً، ولعمل هذا التقدير لهذه المسافة فهي تأكيداً بأن هذا الطريق مخالف للترتيب الأول الذي يذترق أرض العلاقي، لأن تلك الطريق تقدر مسافة عبوره بأكثر من هذه المدة بكثير كما ذكرناه سابقاً في قول المؤلفين. فلو عبر إياه لذكر أن المسافة بين أسوان وعيذاب أكثر من هذا، كما أنه لم يذكر في وصفه أي شيء عن العلاقي وأرض المعدن، بل ذكر أن هذا الطريق يكون في رمال ليس فيها عمران، كما أنه ذكر في وصفه أن هذا الطريق يبدأ بعد ثمانين فراسخ من أسوان بعبور جهة تسمى الضيقة وسعتها مائة ذراع، على جانبه حائطان من الجبال.

وإذا قارنا بداية وصفه للطريق، لوجدنا أنه مطابق لما وصفه اليعقوبي عن بداية الطريق الذي يذترق أرض العلاقي، فذكر أن الطريق الذي يتجه من أسوان إلى العلاقي يبدأ بموضع يقال له الضيقة وهو بين جبلي^(٣)، ومن الوصفان عن بداية كل من الطريقين يتبين لنا أن كلاهما يبدأ من نقطة واحدة، ومن ثم يتجه كل منهما في اتجاهه.

ومن خلال قول ناصر خسرو^(٤) ويتبين لنا أن هذا الطريق كان استخدمه في المقام الأول لأداء فريضة الحج، فنكر أنه حينما أراد عبوره انظر بأسوان عودة الحجاج بالجمال لاستأجارها ونتيجة للنشاط المستمر لذهاب الحجاج وعودتهم عبر هذا الطريق عرف فيما بعد بطريق الحجاز، فقد ذكر ابن سعيد من أراد الحج ذهب بطريق الحجاز والذي سمي بالوضح. وذلك لأن الطريق منه يوضح خالياً من الجبال المتشابكة، وقد قدر طولُه بـ ٦١ درجة وعرضه يقارب ٢٣ درجة، وذكر أنه يقع يمينا من وادي العلاقي^(٥) وأضاف أبو الفدا أنه يقع يمينا من العلاقي من جهة الشرق^(٦).

وفي نهاية القول عن الطريق بين أسوان وعيذاب والذي سلك عدة مسارات قد شهد على رواج الحركة التجارية بين البلدين وساهم في نشاطها.

(١) نزعة المشتاق ج ١ ص ٤٧

(٢) سفرنامه ص ١٣٢-١٣٣

(٣) البلدان ص ٣٣٤

(٤) سفرنامه ص ١٣٢

(٥) بسط الأرض ص ٥٠

(٦) تقويم البلدان ص ١٢١

ب - الطريق بين أدفو وعذاب: لقد ذكر ابن بطوطة أن هذا الطريق يبدأ من قرية تقابل مدينة أدفو من ناحية الشرق تسمى العطوانى، حيث لكثري منها الجمال وسافر منها مع طائفة من العرب في صحراء لا عمارة فيها، إلا إنها آمنة السبيل، وذكر إن من بعض منازلها موضع يسمى حميثرا (حيث قبر ولي الله أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٦٤م)، وقد الوصول عبر هذا الطريق إلى عذاب في ١٥ يوما^(١) وقد اتصل هذا الطريق بالطريق المتجه من قوص إلى عذاب في بعض مواضعه ، فقد ذكر ابن جبير أثناء رحلته عبر هذا الطريق أنه عندما استقر بموضع يعرف بماء دنقاش ، ذكر إن هذا الموضع ملتقى عدة طرق صاعده إلى عذاب ، منها الطريق الذي سلكه والذي يسمى بطريق العبدین ، وطريق آخر يبدأ من قرية على شاطئ النيل^(٢).

ومن الأرجح أن هذه القرية هي قرية العطوانى المقابلة لمدينة أدفو، حيث يخرج منها مباشرة طريق إلى دنقاش عبر وادي عباد^(٣) ودنقاش هذا يقع في وادي بيزاه الذي يصيب في وادي شعيت شمال جبل المويلحة عند خط عرض ٥٥ ، ٢٤ درجة شمالا، وخط طول ٥٠ ، ٣٣ درجة شرقا^(٤).

وقد أضاف ابن جبير أن هذان الطريقان يجتمعان في موضع آخر غير دنقاش، فذكر " أن لهما مجتمع آخر على ماء يعرف يشاغب، ومنه الوصول إلى موضع أمان مسكين، أحدهما كثير الماء إلا أنه وعر المسلك ويقع على مسيرة يوم من شاغب، ومسلك آخر الذي اتخذه شمالا بدلا منه لأنه سهل المسلك، رغم أنه قليل الماء ومدته ثلاثة أيام"^(٥).

ويبين لنا من رحلة التجيبي السبتي في عام ٦٩٦ هـ / ١٣٠٤م خلال مروره بطريق قوص عذاب للتحج أنه ذكر قبل وصوله إلى موضع أمان (الذي نكره ابن جبير) بموضعين سلك طريق وعر بلغ فيه الماء عند حميثرا حيث قبر أبي الحسن الشاذلي^(٦)

وهذا المسلك الذي سلكه التجيبي في رحلته إلى عذاب هو الذي تركه ابن جبير، وهو الذي يوجد به موضع حميثرا، وهذا الموضع هو الذي نكره ابن بطوطة في رحلته عبر طريقة من أدفو إلى عذاب ويبين لنا من اتصال الطرق في بعض المواضع من وجود مسارات متعددة غير المسارات الرئيسية يعرفها الأدلاء، حيث تسلكها وفقا لحجم القوافل المارة بالطرق وحاجتها إلى الماء.

ج - طريق قوص عذاب :

لقد كان هذا الطريق من أكثر الطرق شيوعا واستخدما في العصور الوسطى وخاصة منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وذلك بسبب ما أصاب مصر من أحداث داخلية كالشدة العظمى في عهد الخليفة المستنصر،

(١) ابن بطوطة : رحلته ص ٥٣

(٢) ابن جبير رحلته ص ٣٧

(٣) عبد المال عبد المنعم : دراسات في جغرافية مصر طرق قوص عذاب ص ١٧

(٤) عبد المال عبد المنعم : دراسات في جغرافية مصر طرق قوص عذاب ص ٢٧

(٥) ابن جبير رحلته ص ٣٧

(٦) التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة و الاغتراب ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ١٩٧٥م

وأحداث أخرى خارجية من سيطرة الصليبيين على سواحل الشام وفلسطين، وقيام الإمارات الصليبية بها، مما أدى إلى تحول قوافل التجارة والحجاج الوافدة على مصر من سائر أقطار البلاد الأفريقية والأندلس إلى الجنوب، وقد نال هذا الطريق النصيب الأكبر من هذا النشاط، مما ضاعف من قيمته التجارية، ومنذ ذلك الوقت سيطر هذا الطريق على نشاط الحركة التجارية بمصر، وأصبح طريقها الأول أكثر من قرنين من الزمن^(١).

لذلك نجده أكثر الطرق ذكرا في كتابات الرحالة العرب، وخاصة المغاربة الذين سلكوا هذا الطريق للحج، فجاء وصفهم جميعا عن رؤية ومعاناة، ومنهم الإدريسي الذي وصف هذا الطريق إجمالا وحدد طول الرحلة عبره بمسيرة ٢٠ يوما^(٢) أما الزهري فقد ذكر أن هذا الطريق يقدر بمسيرة ١٨ يوما، وقال أنه ليس في هذا الطريق إلا ثلاثة آبار، ولكنه لم يذكر أسمائها^(٣) أما المقرئ فقد جعل الرحلة من قوص إلى عيذاب تستغرق مسيرة ١٧ يوما^(٤).

أما ابن جبير فهو أهم وأفضل من وصف هذا الطريق ومنازله في عصره في صورة مذكرات يومية، حيث ذكر في رحلته ما بين قوص وعيذاب التي كانت في عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٧م للحج أن هذا الطريق قد استغرقت الرحلة عليه ١٩ يوما وهو يعرف بطريق العبدین، وقد يلتقي هذا الطريق مع طريق أدفو عيذاب في بعض مواضعه كما ذكرنا سابقا.

أما مراحل هذا الطريق فقد ذكرها ابن جبير أنها تبدأ بالخروج من ضواحي قوص من موضع يعرف باسم المبرز من الجهة القبلية لقوص، ثم وصل منها إلى موضع يسمى الحاجر، ثم قلاع لضباع، ثم محط اللقيطة، ثم ماء العبدین وهو الذي عرف باسمه هذا الطريق، وذكر أن المسافة بين هذه المراحل نصف يوم، وبذلك يكون الوصول من المبرز إلى ماء العبدین بعد يومين، ثم بعد ذلك تطول المرحلة ثلاثة أيام في صحراء لا ماء فيها حتى ندقاش، ثم بعد يوم وثيلة يصل إلى شاغب، حيث يتزود بالماء لمرحلة تستغرق ثلاثة أيام إلى أمتان، ومنها إلى موضع مجاج في بعض يوم، ثم تبدأ منه أطول مراحل الطريق إلى العشاء فتستغرق أربعة أيام وهذا الموضع على يوم واحد من عيذاب، ثم الوصول إلى ماء الذبيب وهو موضع على مرأى العين من عيذاب، ثم الوصول إلى عيذاب^(٥).

ولكن أهم ما قدمه ابن جبير خلال وصفه لهذا الطريق هو كثرة الحركة التجارية ونشاطها عليه، فقد ذكر في ثنايا هذه الرحلة في أكثر من موضع القوافل العيذاوية والقوصية الصادرة والواردة، وقد حاول في هذا الطريق إحصاء هذه القوافل فما تمكن من ذلك، لا سيما القوافل العيذاوية المحملة بسلع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب، وأكثر ما شاهده من هذه السلع أحمال الفلفل الأسود، فلقد خيل إليه لكثرتة أنه يوازي التراب قيمة، كذلك أشار إلى الأمن والأمان على هذا الطريق، حتى أنه وجد أحمال الفلفل والقرفة

(١) المقرئ : المواعظ ج ١ ص ٢٠١

(٢) نزعة المشائقي ج ١ ص ١٣٤

(٣) الزهري : كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حجاج صادق ، المعهد الفرنسي ، دمشق ١٩٦٨ م ص ٤٣ - ٤٤

(٤) المقرئ : المواعظ ج ١ ص ٢٠١

(٥) ابن جبير : رحلته ص ٣٥ - ٣٩

وغيرها من السلع المطروحة لا حارس لها على قارعة الطريق، وقد تركت أما لإعياء الإبل الحاملة لها أو غيرها ذلك من الأعداء، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصنونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس^(١).

وقد ظل هذا الطريق يؤدي دوره ويحظى بالأمن والأمان للنشاط التجاري حتى عام ٦٩٦ هـ / ١٣٠٤م حين اتخذته التجيبي السبتي مسارا له للحج، فقد ذكر أثناء رحلته عبر هذا الطريق أنه شاهد صرر الفلفل الأسود واللك - اللبان العربي - وغير من بضائع الهند ملقاة، أما لموت الجمال أو لإعيائها، حتى تصل إليها جمال آخر، وفي أثناء ذلك كانوا يمرون عليها ويعرضون عنها ولا يتعرضون إليها^(٢).

ومن الواضح من قول المؤلفين العرب يتبين لنا كيف كان هذا الطريق من أنشط الطرق المارة ببلاد البجة، والذي ساهم في أن جعل من البذيين قوص وعيذاب أهم مراكز التجارة في مصر.

د - الطريق بين عيذاب وسواكن :

وهذا الطريق كان يسلكه في الأغلب الحجاج العائدون بسفهم من جدة قاصدون عيذاب، فتلقى بهم السفن في مرسى يسمى رأس دوائر وهو ما يعرف باسم رأس دوائر.

وقد ذكر ابن بطوطة أن المسافة من هذا المرسى إلى سواكن جنوبا على مسيرة يومين^(٣)، أما المسافة منه إلى عيذاب شمالا فتقدرها بمسيرة تسعة أيام، وقد ذكر أن أهم منازلها موضع يعرف باسم ماء مقرر، وموضع آخر يعرف باسم ماء الجديد^(٤)، ويتبين لنا من قول ابن بطوطة أن هذا الطريق يبلغ طوله أحد عشر يوما، لكن النويري ذكر أن هذا الطريق يقدر بمسافة عشرة أيام^(٥). ومن المؤكد أن هذا الطريق قد شهد على نشاط تجاري لا يقل أهمية عن سابقة من الطرق، خاصة وأنه ربط بين أهم مواني البحر الأحمر في تلك الفترة.

هـ - الطريق بين العلاقي وعلوة من النوبة :

تقد شاهدنا في مسارات الطرق السابقة كيف ربطت بين بلاد البجة المارة بها وبين البلاد المصرية من من الصعيد، وبالتالي كان لابد أن توجد طرق أخرى تربطها أيضاً ببلاد النوبة، وكان أهمها هذا الطريق.

وقد ذكر اليعقوبي^(٦) أن هذا الطريق يقدر بمسافة ثلاثين مرحلة، يبدأ من العلاقي ثم إلى موضع يقال له كباو، ثم إلى موضع يقال له الأبواب، ثم مدينة علوة العظمى التي تسمى سوبه، وقد أشار إلى نشاط هذا

(١) ابن جبير : رحلته ص ٣٨

(٢) التجيبي السبتي : مستفاد و الاغتراب ص ٢٠٥

(٣) ابن بطوطة : رحلته ص ٢٥٣ - ٢٥٤

(٤) ابن بطوطة : رحلته ص ٢٨٩

(٥) النويري : نهضة العرب في فنون الأدب ، تحقيق د . محمد عبد الهادي شعيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٠

ج ٣٠ ص ٢٤٠

(٦) البلدان ص ٣٣٥ .

طريق وقد اعتمد في المقام الأول على تجارة الذهب، حيث كان يستخرج الذهب من بلاد النوبة من موضع يقال له بركان، ومن المؤكد أن الذهب المستخرج من بلاد النوبة اتجه إلى وادي العلاقي وذلك لأن وادي العلاقي كان في ذلك الوقت يعتبر أكبر الأسواق لتجارة الذهب.

وقد أشار أيضاً إلى هذا الطريق ابن رسته^(١) وقد قدر طوله بمسافة ثلاثين مرحلة، وذكر أنه يبدأ من العلاقي وينتهي إلى علوة من النوبة.

وفي نهاية الحديث عن شبكات الطرق في بلاد البجة، نجد أنها مثلت حلقة الوصل بين البلاد المختلفة مما ساهمت في نشاط التجارة لهذه البلاد، وبالتالي انعكست عليها لتجعل منها أكبر الأسواق في العصور الوسطى.

ب - الموانئ التجارية:

لم يدخل حديثنا السابق عن التجارة في بلاد البجة من الإشارة إلى الموانئ التجارية ودورها الإيجابي في خدمة النشاط التجاري. وقد ذكرنا أيضاً كيف شهد ساحل هذه البلاد على قيام العديد من الموانئ التجارية القديمة عليه عبر مراحل التاريخ.

أما في العصور الوسطى فقد شهد هذا الساحل على أكبر حركة تجارية، وذلك نتيجة لسيطرة العرب عليه في ظل الدولة الإسلامية الكبرى، ولما كان لهم من خبرة بنشاط التجارة في البحر الأحمر منذ القدم، أصبح هذا الساحل يضم أكبر مراكز التجارة العالمية، والتي أخذت تمارس هذا الدور قرابة سبعة قرون، وكان أهم هذه الموانئ وأكبرها حجماً للتجارة موانئ باضع وعيذاب وسواكن.

١ - ميناء باضع :

لعل هذا الميناء هو أول الموانئ التي ساهم العرب في تأسيسها على خط الساحل السوداني منذ فجر الإسلام، وذلك بعد ازدياد النشاط التجاري للعرب في البحر الأحمر، وجاء نشاط العرب على هذا الساحل نتيجة إلى ظهور القراصنة في مياه البحر الأحمر. وتهديدهم المباشر لمصالح التجار العرب، فقد قام هؤلاء القراصنة من أهل الجانِب الأفريقي للبحر الأحمر بهجوم على ميناء جدة - وهو ميناء المملكة العربية السعودية في الجانِب الشرقي للبحر الأحمر مقابل سفاجا - في القرن الأول الهجري عام (٧٠٢ م) وقاموا بتخريبها، مما دفع القوة الإسلامية الكبرى إلى احتلال مجموعة جزائر دهلوك الأفريقية، وذلك خشية أن تمتد يد هؤلاء القراصنة إلى الداخل فتصل إلى الأماكن المقدسة، أضافه إلى ضمان سلامة التجارة العربية في هذا البحر، ومن هنا بدأ العرب في الاستقرار على السواحل الأفريقية وبدأ معهم النشاط التجاري وممارسته على هذا الساحل، فقاموا بإنشاء عدد من المحطات التجارية التي امتدت على طول ساحله في نقاط منتخبة ومنتقاة مبعثرة كان من أهمها باضع وسواكن من ساحل بلاد البجة^(٢) غير وتم حديثاً الكشف عن موقع باضع، ففي القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين حاول المستكشفين كشف النقاب عن موضع باضع تحديداً، وأجرى البحث على الساحل السوداني في جزءه المعروف باسم خور زوارات، وتم العثور على بقايا وآثار بلدة مخربة

(١) الأعلاني القيسية: ليدن ١٨٩٢م، ص ٣٣٥ .

(٢) الشاطر بصيني : معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ٨٠٧ .

قائمة على جزيرة صغيرة تعرف باسم جزيرة الريج، ومن خلال الأدلة تؤكد أن باضع قامت على هذه الجزيرة، وأن تلك الخرائب والآثار التي عثر عليها هي بقايا ميناء باضع، وتقع هذه الجزيرة على خط عرض ١٨ درجة و ٩ دقائق، وخط طول ٣٨ درجة و ٢٨ دقيقة، وهي قريبة للغاية من خط الساحل، ويكاد يربطها به لسان من الأرض المستوية ليددو صخوراً في بعض المواقع^(١).

ولعل ما يؤكد أن ميناء باضع قامت على هذه الجزيرة، ما ورد من قول المؤلفين العرب في القرن الثالث الهجري، فذكر اليعقوبي^(٢) : "أن من أجناس البجة الذين يعرفون باسم جارين كانوا يقيمون ما بين باضع على ساحل البحر، ووادي بركة"، وقد ذكر ابن حوقل^(٣) : "أن بركة تقابل جزيرة باضع وبينهما يوم". ومن الواضح من قول هؤلاء المؤلفين تحديد الموقع الذي قامت فيه باضع، فهي تقع على جزيرة كانت بالقرب من الساحل، وتمثلت المنطقة الخلفية لها في خور بركة ودلتاه، وهو ما تم تطابقه وتأكيدده على ما عرف الآن بجزيرة الريج.

ومن المؤكد أن اختيار موقع باضع في هذا الإقليم السوداني جاء عن ميزة تفوق بها عن غيره، وقد تمثلت هذه الميزة في أن هذا الجزء من هذا الساحل أكثر اتساعاً منه في أي جزء آخر من السودان، وذلك بسبب تراجع الجبال نحو الغرب من جهة، وانفصالهما عن بعضهما من جهة أخرى وذلك بفضل خور بركة الذي مثل المنطقة الخلفية لباضع، فقد فصل بين جبل عظيم في الجنوب الشرقي وهو ما يسمى بجبل (أدراو) و يبلغ ارتفاعه ٢٧٠٠ متر فوق سطح البحر، وبين جبل (اداريباب) في الطرف الشمالي الغربي وهو أضيق مسافة وأصغر حجماً وأقل ارتفاعاً عن سابقه، ليكون بينهما سهل شمالي شرقي تغلب عليه السهولة والاتساع^(٤) بهذا تمثلت خلف باضع منطقة مناسبة لممارسة التجارة، لها من مقومات جغرافية وأخرى بشرية ساهمت في نشاط حركة التجارة بباضع.

وبالرغم من التعرف على الدوافع من قيام باضع وموقعها، إلا إنه لم يتم التوصل إلى تحقيق دقيق موثق للتاريخ الذي قامت فيه واستخدمت كميناء، ومع ذلك فإنه يمكن لنا القول بأنها قامت على أصح تقدير في نهاية القرن الأول الهجري، وبداية القرن الثامن الميلادي، ويمكن تأكيد ذلك النتيجة من إشارة المقرئ عن باضع خلال حديثه عنها، من اتجاه الأمويين إليها هرباً من العباسيين بعد اختراق بلاد النوبة والعبور إليها من منطقة شنقيبر بالقرب من نهر النيل من خلال طرق ربطها بنهر النيل^(٥).

ولكن أهم ما نلاحظه من إشارة المقرئ عن باضع، هو اتصال باضع العربية بممالك النوبة المسيحية من خلال طرق ربطت بينهما كادت تخترق أرض البجة.

- وهنا يلزمنا التساؤل عن طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين باضع العربية وممالك النوبة المسيحية، إضافة إلى دور قبائل البجة الذين أقاموا بينهما؟

(١) صلاح الدين الشامي : الموائى السودانية ص ٩٦ .

(٢) تاريخه ج ١ ص ١٩٢ .

(٣) صورة الأرض ص ٥٥ .

(٤) محمد عوض : سودان الشمال ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٥) المقرئ : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩١ .

والإجابة عن العلاقة التي كانت قائمة بين باضع وممالك النوبة نستنتجها من عدم إشارة المصادر العربية في العصور الوسطى عن أي احتكاك أو محاولة من قبل النوبة تجاه باضع لفرض السيطرة عليها، وهذا يوضح لنا أن العلاقة التي كانت قائمة بينهما اتسمت بالود والتعاون.

ويستمر التساؤل قائم - لماذا تعاون النوبيون المسيحيون مع عرب باضع في ظل خلاف عربي إسلامي نوبي مسيحي؟

ولعل ذلك لأنهم كانوا يضعون في اعتبارهم أن باضع هي النافذة الرئيسية التي تربطهم بالعالم الخارجي، وسبيلهم إلى المشاركة في التجارة الدولية، وأن أي اعتداء على عرب باضع قد يدخلهم في نزاع حقيقي مع الدولة الإسلامية الكبرى التي يحتمل تدخلها للدفاع عن مصالح التجار العرب. وبالتالي السيطرة على خط الساحل وحرمانهم من التجارة الخارجية، ويعني ذلك أن علاقات الود والصداقة التي كانت قائمة بين الممالك النوبية وباضع كانت تعبر عن رغبة ملحة في الإبقاء على خط الساحل وموانئه بعيداً عن السيطرة الرسمية للدولة الإسلامية، وأن يظل الطريق مفتوحاً للتجارة والوصول إلى مياه البحر الأحمر - أقصر لطريق إلى الأراضي المقدسة - ونهاية القول عن حسن العلاقة بين النوبيين وباضع كانت تفرضها الرغبة والرغبة معا^(١).

أما عن دور قبائل البجة القائلون في هذه المنطقة وعلاقتهم بباضع فيمكن لنا معرفتها من خلال حديث اليمقوبي عن ممالك البجة وتقسيمها إليها فذكر لنا: "أن ممالك البجة التي كانت تقبع في هذه المنطقة هما جارين وقطعة، ونكر أيضاً أنهم يصفون بالقوة والاستعداد الدائم للقتال"^(٢) ومن خلال وصفه يتبين لنا أن هذه القوة والاستعداد هما سبباً حتمياً لتوفير الأمن والأمان بهذه المنطقة، وبالتالي أدى هذا إلى تأمين وصول القوافل أثناء عبورها في دروب الصحراء في قلب أوطانهم، ولذلك يمكن القول أن العلاقة التي كانت قائمة بين قبائل البجة وباضع علاقة ود وصداقة.

ولم تتوقف علاقة البجة بباضع عن هذا الحد، بل تطلعت إلى المشاركة في الحركة التجارية القائمة، وخاصة أنها تمر بأوطانهم، يوضح لنا ذلك من قول ابن حوقل فيذكر: "أن بركة تقارب جزيرة باضع وبينهما يوم، وتكون نحو ثلاث مراحل مملوءة بطون تعرف بقعصة، وهي أجل بطون البجة الداخلة وأكثرها مالا وأعزها"^(٣) والواضح من قول ابن حوقل عن البجة القائلون بين بركة وباضع، ووصفهم بكثرة المال وعظم الشأن، أنه دليل واضح على مشاركتهم في الحركة التجارية القائمة وتقاسمهم أرباحها.

ومن خلال الحديث عن علاقة النوبيين والبجة بباضع، يتبين لنا أن التجارة كانت قائمة على عنصر المشاركة والاندماج بينهم ونلاحظ هذا في قول ابن حوقل إذ يذكر: "أن منطقة تغلين الذي يقيم فيها البجة لهم ملك مسلم عربي، وهو مكذب من قبل ملك علوة النوبي، ونكر أنهم يتاجرون ويسافرون إلى مكة وغيرها"^(٤) ومن هذا القول يتبين لنا كيف كانت التجارة في هذه المنطقة تقوم على مشاركة العناصر المختلفة من بجة

(١) صلاح الدين القسامي: الموانئ السودانية ص ٧٤ - ٧٥

(٢) تاريخه ج ١ ص ١٩٢ - ١٩٣

(٣) صورة الأرض ص ٥٥

(٤) صورة الأرض ص ٥٧

وعرب ونوبة في إدارتها، ويبدو أن هذا الاشتراك والاندماج نتج عن اختصاص كل عنصر بجانب تفوق به، فقد كانت الأرض للبجة وهم ذو معرفة بدروبها، بينما كان للنوبيين السلع التجارية التي قامت عليها هذه الحركة، أما العرب فهم أصحاب الخبرة في تنظيم المعاملات التجارية وإدارتها، وبذلك تكاملت جوانب التجارة بينهم مما جعل في النهاية من باضع مركزا تجاريا عالميا.

- وإذا كان هذا حال سير حركة التجارة حول باضع، فما حالها من الداخل؟

لقد ذكرنا سابقا أن موقع باضع كنتسب مكانا استراتيجيا جعل منها مركزا تجاريا هاما في هذه المنطقة، وهو ما جعل سفن الحبشة وغيرها تحط إليها ببضاعتها، فقد كان للتصويب الأكبر للتبادل التجاري مع باضع للحبشة، حيث كانوا يفدون إليها بأنياب الفيلة ويبيض النعام وغير ذلك مما يكون ببلادهم، ويتبادلون بها على المصنوعات من الروائح والأمشاط والأسلحة والمنسوجات المتواجده بباضع^(١) واستمرت باضع تؤدي وظيفتها على هذه الشاكلة خلال مدة من الزمن، ولكن ولم نعد نسمع عن أي نشاط لها بعد مرور خمسة قرون عليها في كتب التاريخ، ولا يوجد تاريخ محدد لانتهيارها وخرابها، إنما جاء تاريخ خرابها تقديري بحت، وذلك اعتمادا على قول الشاعر أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن قلاؤس الاسكندراني عنها في قصيدته التي وصف فيها مراسي ما بين عدن وعيذاب، فقال:

فذنقا مشائيري فصهريجي نسا ... فخراب باضع، وهي كالمعمورة^(٢)

وإذا علمنا أن سفينة هذا الشاعر غرقت قرب جزيرة دهلك عام ٥٦٠هـ - ١٦٨م، وأنه مات بعذاب عام ٥٦٤هـ / ١١٧٢م، فإن ذلك يعني أن باضع خربت في تاريخ سابق لتاريخ مروره بها كما نكرها بقصيدته. وإذا علمنا أيضا أن أحدث أثر كتابي عثر عليه ضمن خرائبها يرجع إلى سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م، فإن ذلك يعني من ناحية أخرى أنها خربت في تاريخ لاحق لتاريخ ذلك الأثر المكتوب، ومن أجل ذلك يظن أنها خربت وانتهى العهد بها كميناء في فترة تمتد فيما بين سنة (٤٢٢ - ٥٤٢هـ / ١٠٥٠ - ١١٥٠م)، وانتهيارها خلال قرن من الزمان معقول، لأنه ليس من المعقول أن تنهار باضع وتتحول إلى خراب في يوم وليلة، ولابد أنها تدهورت كثيرا قبل أن تصل إلى حد الانهيار والزوال^(٣).

- ولكن لماذا كان التدهور ثم الانهيار والزوال؟

يحتمل الدكتور صلاح الدين الشامي^(٤) أن ذلك التدهور نتج عن اضطراب في منطقة البجة، معتمدا في رأيه على قصص الصراعات التي إدهاها بعض البجة في انهيار باضع وهي حدوث لمجاعات والحروب الأهلية والهجوم المباشر على باضع نفسها. ويحتمل أن هذه الصراعات ربما كانت بسبب فرض سيطرة بعض القبائل على غيرها لتوسيع مناطق رعيها، مما أدى إلى حدوث الفوضى في منطقة الظهير المباشر، وهذا الاضطراب وحده كفيل بعدم انتظام وصول القوافل من الداخل، مما أدى إلى نقص في الغذاء وحدث المجاعات، وربما تبع ذلك كله هجوم مباشر على باضع نفسها، مما أدى في النهاية إلى عدم توافر الأمن والنظام بالمنطقة، مما

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٤

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٤

(٣) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٦٩

(٤) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٧١ - ٧٣

تَرَبَّ على ذلك كله أن تنهار باضع وتتحول التجارة عنها. وهكذا كانت باضع خلال خمسة قرون قد سيطرت فيها على تجارة البحر الأحمر، وجعلت من أرض البجة سوقا حرا تتبادل من خلالها للثقافة والأرباح.

٢- ميناء عيذاب :

هي ثاني الموانئ التجارية على ساحل بلاد البجة وأكثرها أهمية وأعلها شهرة في خدمة الملاحة والتجارة في العصور الوسطى. ولا يعني هذا أن قيامها واستخدمها كميناء بدا في هذه العصور، بل يحتمل أن قيامها يرجع إلى زمن ما قبل التاريخ، فنكر أن زمن إنشاء هذه الميناء ومدينتها يرجع إلى زمن الفراعنة، وذلك حين اهتموا باستخراج معادن الذهب والزمرد اللذان كانا يتوفران في وادي العلاقي، وظلت هذه الميناء ومدينتها تستخدم لهذا الغرض حتى العصورين البطلمي والروماني، إلى أن جاء الفتح العربي لمصر ليظهر نجمها ويعلو شأنها^(١).

وظلت هذه الميناء موجودة طوال فترة العصور الوسطى، حتى جاءت نهايتها، بعد أن قام السلطان المملوكي الأشرف برسباي بتخريبها عام (٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ م)، وذلك حين سير لها حملة خربتها تماما، وقد ذكر أن هذا الخراب جاء من خلال أسطول وصل عيذاب فعاقب أهلها على ما حدث منهم من نهب للقافلة التي كانت تحمل السلع والأقوات إلى مكة^(٢).

والآن لم يبق من عيذاب سوى خرائب تم اكتشافها في عام ١٢٩٩ هـ / ١٨٩٦ م من قبل عالم الآثار ثيودور بنت theodre bent، وقد عثر على كوم أثري على مسافة ٢٠ كم من حلايب شمالا، عند خط عرض ٢٢ درجة و ١٩ دقيقة و ٤٧ ثانية شمالا، وخط طول ٣٦ درجة و ٩ دقائق و ٣٢ ثانية شرقا، كاشفا أن هذا المكان هو موقع مدينة عيذاب، وفي عام ١٣٢٩ هـ / ١٩٢٥ م استكمل العالم مري muray دراسة وتنقيب هذا الكوم، وانتهت أبحاثه إلى نتيجة هامة، وهي أن هذا الكوم هو بعينه بقايا وأنقاض مدينة عيذاب التي تخلص عنها المقومات البشرية التي كانت تدعم مركز الميناء على خط الساحل، وقد عثر على بقايا المسجد والمقبرة ضمن تلك البقايا والأنقاض الأثرية، والتي ورد ذكرها على نسان ابن بطوطة، ومع ذلك فقد لاحظ من خلال اكتشافه بعض مظاهر الشذوذ فيما يتعلق باختيار ذلك الموقع الذي لا يعتبر أفضل المواقع من وجهة النظر الفنية لقيام ميناء يقوم بخدمة السفن واستقبالها ورسوها^(٣).

ورغم ما توصل إليه مري من نتائج إيجابية تدعمها الدراسة الأثرية فإن العالم كمرير kammarer يشك في هذه النتيجة كثيرا، ناقدا إياها معتمدا في ذلك إلى عدم مناسبة موقع هذه الميناء للصفات الطبيعية والفنية اللازمة لاستقبال عشرات السفن التجارية الضخمة، ومن خلال نقده للنتائج السابقة تقدم باقتراح ثلاثة مواقع محتملا أحدهما موقعا لميناء، وهذه المواقع الثلاثة متقاربة تسمح ظروفها الطبيعية وشكل الساحل وامتداد الحواجز المرجانية والأعصاق عندها بقيام الميناء الصالح لرسو السفن والاقتراب إليها من عرض البحر^(٤).

(٣) السيد عبدالعزيز سالم : البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي ص ٣٩ - ٤٠

(٤) الحسن التوازن : وصف إفريقيا ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ سنة ١٩٨٧ ص ١٦٨ .

(٥) السيد عبدالعزيز سالم : البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي ص ٤١ - ٤٢

(٦) Kammerer, A : le mer Rouge A Travers Les Ages. Paris 1925 P.20

- وأول هذه المواقع المقترحة هو مرسى خليج بلا bela الذي يقع شمال رأس عذبة فوق خط عرض ٢٢ درجة بقليل بين رأس حداربة وخور شناب، حيث يمتاز الساحل في هذا المكان بانكسارات واضحة في الحاجز المرجاني الساحلي، يؤدي كل واحد منها إلى شرم أو خليج صغير صالح لرسو السفن، ومرسى بلا يقع على أحد هذه الشروم أو الخلجان أمام ثغرة في الحاجز المرجاني، ويمكن لدخول إليه من عرض البحر بطريق يقع على مسافة ثلاثة أميال جنوب غرب رأس حداربة، وتصل أعماق المياه في خليجه الوحلي إلى عشرة أمتار وهو عمق مناسب جدا لغطس السفن في العصور الوسطى^(١).

وهذا الاقتراح قد تنفق معه؛ لأن الأسباب الطبيعية التي ذكرها كمرير مرجحا بها أن مرسى بلا الذي يقع فوق خط عرض ٢٢ درجة بقليل ربما يكون هو موقع عذاب القديمة قد ذكرت من قبل بقرون عديدة، وهي التي امتازت بها عذاب عن غيرها، فهذه الأسباب ذكرها القلقشندي^(٢) إذ قال أن عذاب وساحلها "كانت أكثر السواحل واصلا لرغبة رؤساء المراكب في التعمية من جدة إليه، وإن كانت باحثة متسعة لغزارة الماء وأن اللحاق بالشعب الذي يذبت في قعر هذا البحر".

وبإعادة النظر إلى القول السابق يتبين لنا سببان لتفضيل أصحاب المراكب والسفن لمرسى عذاب عن غيره في العصور الوسطى، أولهما: سبب جغرافي، وهو أن عذاب أقرب موقع يقع قبالة جدة مباشرة. وهذا السبب أكده عدد من لرحالة والجغرافيين العرب في العصور الوسطى منهم الإدريسي^(٣) والحسن الوزان^(٤) وابن جبير^(٥) وأبو الفدا^(٦).

وثانيهما: سبب طبيعي، وهو اتساع الميناء وغزارة الماء ونسبة العمق، إضافة إلى خلوه من الشعاب المرجانية التي كانت تنساب في قعر البحر الأحمر وخاصة بالقرب من شواطئه مما زاد من أمانه. وهذا السبب يتطابق مع ما اقترحة كمرير من أسباب لاختيار مرسى بلا بأنه أحد مواقع عذاب القديمة.

وربما ما يؤكد صحة ما اقترحة كمرير من كون مرسى بلا أو رأس عذبة موقعا لعذاب، ما أشار إليه ابن جبير الذي وصل إلى عذاب عام (٥٧٩هـ / ١١٨٧م) والذي يفيد بأن عذاب تتصل بجبال قريبة منها^(٧) وليس في هذا الموقع إلا جبل عذبة الذي يطل على هذه المدينة من ناحية الغرب، إذ تقع هذه المدينة بين الساحل فوق خط عرض ٢٢ درجة بقليل^(٨).

- أما الموقع الثاني المقترح من العالم كمرير لوجود عذاب به فهما شرما أبو فاطمة والجودي، حيث يبعدان بمسافة ١٥ كيلو متر شمال غرب مرسى حلايب. ويقع شرم أبو فاطمة جنوب رأس أبو فاطمة بمسافة

(١) صلاح الدين القسامي : الموانئ السودانية ص ٨٧.

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٤.

(٣) نزحة المشتاق ج ١ ص ١٣٤.

(٤) وصف إفريقيا ج ٢ ص ١٨١ (وإن كان الحسن الوزان يكتم عن عذاب هنا بأنها مينة زبيدة المينية، وقد وهم في ذلك وهو أمر غير صحيح)

(٥) رحلته ص ٣٩.

(٦) تقويم البلدان ص ١٢١.

(٧) ابن جبير رحلته ص ٤٢.

(٨) عبد العظيم رمضان: الحدود المصرية السودانية ص ٢٣٠.

حوالي كيلو متر ونصف عند التقاء خط عرض ٢٢ درجة و ٢٧ دقيقة شمالا مع خط طول ٣٦ درجة و ٣٣ دقيقة شرقا، وإلى جواره مباشرة شرم الجودي عند التقاء خط عرض ٢٢ درجة و ٣٥ دقيقة شمالا وخط طول ٣٦ درجة و ٣٣ دقيقة شرقا. وكلاهما من الشروم التي تؤهلها صفاتها البحرية والأصاق فيها لاستقبال السفن في مرفأ محمي حماية كافية.

- ويبقى بعد ذلك الموقع الثالث، ويقترح أن يكون هو مرسى حلايب الذي يقع شمال غرب رأس علبة بمسافة ١٥ كيلو مترا بالتحديد، وعلى مسافة ٢٧ كيلو مترا من شرق جنوب شرق رأس أبو فاطمة. ولهذا الموقع من الصفات البحرية ما يؤهله أو يجعله صالحا لقيام ميناء لخدمة التجارة والملاحة، وذلك لأنه يتميز باتساع المرفأ وملأمة الأعماق عنده لرسو السفن، كما تقع أمامه جزيرتان هما جزيرة (حلايب) المتصلة بالبر بشريط ضيق من الرمال، وجزيرة (كولا لا) التي يوجد بينها وبين الساحل قناة ضيقة قليلة العمق هادئة، وبالرغم من وجود حاجز مرجاني خارجي على مسافة ستة أميال من خط الساحل تقع عليه هاتان الجزيرتان إلا أن الموقع صالح لرسو السفن في الموضعين، حيث تتراوح الأعماق فيها بين تسعة أو ثمانية أقدام^(٩).

- ومن وجهة نظري اتفق مع هذا الاقتراح أيضاً، لأن هذا الموقع يقع قبالة ميناء جدة مباشرة، وأقرب النقاط إليه على الساحل الغربي للبحر الأحمر، إضافة إلى ذلك ما أشار إليه ابن جبير من أن عذاب كان في بحرهما مغاص على الدؤلؤ في جزائر على مقربة منها^(١٠) وقد سبق القول أن أمام مرسى حلايب الحالية جزيرتين، هما حلايب وكولا لا، مما يرجح بان هذا المرسى هو نفسه ميناء عذاب.

وهكذا كان كمرير إيجابيا في نقده لاكتشاف مري لتحديد موقع عذاب، محتملا الخطأ في نتائجها، مقدما اقتراحاته لمواقع تواجدتها مستندا في ذلك للأدلة المقنعة. ومع ذلك فإن الأدلة المادية التي عثر عليها مري تنهض قوية لمجابهة كمرير.

وعلى أي حال فإن الموقع الذي حدده مري لا يبعد كثيرا عن المواقع التي اقترحها كمرير وخاصة حلايب، فربما كان موقع السكن في بلدة عذاب يبعد عن موقع المرفأ والمرسى، فيعني أن الكوم الأثري المكتشف من قبل بذت ومري هما بقايا المدينة وموقع السكن، وربما ما اقترحه كمرير أحد مراسي المدينة والتي يحتمل أن تنتقل من موقع إلى آخر بالقرب منه على مر السنين نتيجة لسبب ما.

ومهما كان موضع عذاب - فما السبب في قيام ميناء عذاب بهذا الموضع تحديدا، وخاصة من المعروف أن الموانئ في المناطق الحارة الجنوبية والدفينة تعاني من الشعاب المرجانية والتي تحول دون بدو السفن للنشاط؟

يرجع السبب المباشر لقيام هذا الميناء في هذا الموضوع تحديدا إلى سيادة الرياح التجارية لشمالية في

(٩) صلاح الدين القسامي : الموانئ السودانية ص ٨٨.

(١٠) جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٥.

النصف الشمالي من البحر الأحمر التي تهب طوال العام ويمتد نفوذها حتى دائرة عرض ٢١ درجة شمالاً، ومن ثم فإن السفن الشراعية القادمة من الجنوب تجد صعوبة في مواصلة الإبحار شمالاً، ومن ثم تصبح مضطرة لإفراغ حمولتها على الشاطئين في المراسي الواقعة في مثل هذه العروض (عيذاب من الغرب وجده في الشرق) وبهذا تتغير وسيلة أخرى للنقل لإيصال سلع الشرق إلى الغرب دون أن ينقطع الطريق. وفي ضوء هذا المبرر قامت ميناء عيذاب في العصور القديمة^(١).

إما بالنسبة للحواجز المرجانية في البحر الأحمر لم تكن عائقاً أمام بدو السفن نشاطاً عيذاب، وذلك لكون عيذاب مرفأً طبيعي صالح لرسو السفن، لأنه إذا ما كانت هناك أودية تقصر إلى النشاط فإن رواسيها تحدث ثغرة في نطاق الشعاب المرجانية مما يسهل وصول السفن إلى النشاط، وهذا ما حدث لعيذاب بفضل واديهما وما يحمله من رواسي تجذبها مياه السيول المتدفقة في أعقاب الأمطار التي تصيب الكتلة الجبلية المرتفعة في الداخل بحكم وقوعها على أطراف المنطقة المدارية الرطبة^(٢).

كما تبرز ميزة أخرى لهذا الميناء، وهو أنه مرفأً محمي طبيعياً من الرياح التي تعاذيها تلك المنطقة من البحر الأحمر والتي يكون من أثارها في الحيلولة دون رسو السفن ودفعها إلى خارج المراسي وتحطيمها، وتتمثل هذه الرياح في ريح باردة شديدة الهبوب تنأثر بطبيعة البحر الأحمر المستغلة، حيث تثير الأمواج وما يترتب عليها من بالغ الأذى والضرر وهي ما تعرف باسم ريح الأريب، ولعل تسميتها في الأصل بهذا الاسم يرجع إلى التسمية الفارسية حيث أن (أشيب) في اللغة الفارسية تعني الضرر والأذى^(٣) وهذه لقيمة أبرزها الرحالة المغربي التجديبي السبتي^(٤) في وصفه لعيذاب عند مروره بها في عام ٦٩٦ هـ / ١٣٠٤م إذ يقول "إنما سكنت عيذاب من أجل مرساها الجيد الذي يكن من الأرياح " وبذلك نكون قد : استعرضنا في القول السابق موقع عيذاب وأسباب أخياره، وبقي علينا الآن أن نعرف عوامل شهرتها أو نشاطها.

ومن المؤكد أن شهرة عيذاب ونشاطها ارتبط إلى حد كبير بنشاط الجماعات العربية التي انتقلت إليها منذ بداية القرن الثالث الهجري، حيث كانت تمثل في بدايتها في عهد العرب بمصر مركزاً حروبياً ضد قبائل البجة، وأوضح هذا في أول إشارته إليها في المصادر العربية، وذلك حين ذكرها البلاذري^(٥) في كتابه عند حديثه عن استعانة القمي بالميرة لآتي حملتها المراكب من القلزم إلى عيذاب، في التغلب على ملك البجة على بابا". وما أن لبث الوقت فترة من الزمن حين اشتهرت بلاد البجة باستخراج الذهب حتى أصبحت ميناء عيذاب منفذاً رئيسياً لبيعه، وقد ذكر هذا الدور اليمعوي في قوله: "بأن عن طريق ميناء عيذاب كان يأتي التجار لشراء الذهب والعاج"^(٦) وظل هذا الميناء يقوم بهذا الدور طيلة العصورين الثالث والرابع الهجري، كما ذكر

(١) جمال حمدان: شخصية مصر دراسة في عبقرية مكان، عالم الكتب، القاهرة ١٩٨٠ ص ٥٠٤-٥٠٥.

(٢) عبد الحال عبد المنعم: دراسات في جغرافية مصر طرق قوس عيذاب ص ٣٢

(٣) صورة الأرض ص ٥٧

(٤) مستفاه الرحلة والاعتراب ص ٢٠٦

(٥) فتوح البلدان ص ٢٣٩

(٦) اليعقوبي البلدان ص ٣٣٥

ابن حوقل^(١) والاصطخري^(٢).

ولما قذت عمليات استخراج الذهب في بداية القرن الخامس الهجري، ثم يفقد هذا الميناء قيمته فقد أخذ في الازدهار، مع تدهور طريق درب الحجاج المصري عبر سيناء وقد أكد ذلك ناصر خسرو^(٣) حين مر بعذاب في طريقة للحج عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م ومشاهدته كثرة السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن إليها، محمله بالسلع التجارية التي كانت تنقل إلى أسوان برا.

ولم تلبث عشرة سنوات منذ تاريخ زيارة ناصر خسرو لها حتى أصبحت ميناء مصر الأول، فقد أصبحت الطريق الوحيد للتجارة والحج ما يزيد عن مائتي سنة وذلك من بضع وخمس وأربعمائة إلى بضع وستين وستمائة^(٤) كانت خلالها أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائد عن مراكب الحجاج الصادرة والواردة ، وهذا قول ابن جبير عنها حين قصدها للحج عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٧ م^(٥). وبإعادة النظر إلى وصف المؤلفين العرب لميناء عذاب ذاكرين كيف أخذت تدرج عبر الزمن إلى أن وصلت في فترة منه إلى قمة مجدها، وقد نجد أن وراد ذلك مجموعة من العوامل التي ساهمت بدورها في علو شأن هذا الميناء وزيادة أهميته.

وكانت أول هذه العوامل هو الظهير الاقتصادي لها المتمثل في أرض المعدن "وادي العلاقي" وكانت القبائل العربية قائمة على هذا المورد الاقتصادي الذي يمثل أهم مناطق تعدين للذهب في العصر الوسيط، وبذلك أصبحت ميناء لتصديره وهذا القول ما أكدته اليعقوبي^(٦) وابن حوقل^(٧) والاصطخري^(٨) حتى قيل عنها أنها فرضة وادي العلاقي^(٩).

ومن العوامل الأخرى التي زادت في أهمية وشهرة ميناء عذاب هو توافر عنصر الأمن بها والذي يعتبر ضروريا لانتعاش الأحوال التجارية، وكان هذا الأمن موجودا بها منذ عصر المقدسي (ت ٣٨٠ هـ / ٩٨٧ م) والذي أشار إلى توافر هذا الأمن في منطقة عذاب^(١٠) وإضافة إلى ذلك ما أشار إليه ناصر خسرو عن توقف هجوم البجة ضد العرب وبالتالي توافر الأمن في المنطقة حين مر بها عام (٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) حيث

(١) صورة الأرض ص ٥٠

(٢) المسالك والممالك ص ٣٥ (رغم أنه لم يذكرها باسم عذاب صراحة وذكرها باسم عسب أو عست، كما لم يذكرها ضمن البلدان المصرية في ذلك الوقت، إلا أنه أشار إلى أن الذهب المستخرج من وادي العلاقي كان يمر بطريق البحر الأحمر من خلالها.

وقد أكد الباحثين أن اسم عسب أو عست ليس إلا تحريفا ظاهرا لكلمة عذاب - صلاح الدين (الاسامي : لموازين (السودانية ص ٨٠)

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٣٤

(٤) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢

(٥) رحلته ص ٣٩

(٦) البلدان ص ٣٣٥

(٧) صورة الأرض ص ٥٠

(٨) المسالك والممالك ص ٣٥

(٩) ابن سعيد : بسط الأرض ص ٥٠

(١٠) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ثلث ١٩٠٩ م. ص ٢١٥

قال عنهم "البيعة ليسو أشرار فهم لا يسرقون ولا يغشون"^(١)، وظل هذا الأمن يتوافر لمنطقة عيذاب ومينائها حتى عصر ابن جبر وقد أشار إلى ذلك حين مر بها في طريقه للحج عام ٥٧٩هـ / ١١٨٧م^(٢)، واستمر هذا الأمن حتى لاحظته الدجوبي السبتي أثناء مروره بها للحج في عام ٦٩٦هـ / ١٣٠٤م^(٣).

ومقابل هذه الفترة الطويلة التي تمتعت بها عيذاب بالأمن والاستقرار، سادت الأحوال السياسية السيئة في المناطق التجارية الأخرى، مما زاد من قيمة عيذاب وأهميتها التجارية، حيث فقد طريق درب الحجاج المصري الذي كان يمر عبر ميناء قيمته، وكذلك موانئ الجزء الشمالي من البحر الأحمر، وذلك بسبب الحركات الصليبية وسيطرتها على سواحل الشام وفلسطين، إضافة إلى ذلك سوء الأحوال في دلتا مصر أثناء الشدة المسندصرية التي دامت سبع سنوات (٤٥٧ - ٤٦٤ هـ / ١٠٦٤ - ١٠٧١م)، وما ترتب عليها أن تحولت طرق الحج والتجارة من مصر وبلاد المغرب إلى الجنوب خاصة قوص وأسوان ومنهما إلى عيذاب^(٤).

ولما كان لعامل الأمن والاستقرار دوره في شهرة ميناء عيذاب وأهميته، يرى الدكتور صلاح الدين الشامي^(٥): إن ثمة عامل آخر ترتب على هذا العامل، ساهم أيضاً في علو شأن عيذاب، وهو أن هذا الميناء ورث النشاط التجاري لميناء باضع، وذلك بعد انهياره في أواخر القرن الخامس الهجري، وذلك نتيجة للصراع الذي قام بين القبائل البجاوية التي كانت تقبع في ظهيره، مما عطل النظام وصول القوافل إليه سواء كانت برية أم بحرية، مما أدى هذا الوضع إلى نقص الغذاء وحدوث المجاعات بها حتى فر عنها أصحابها، ومن ثم تحول النشاط التجاري عن باضع إلى ميناء آخر يسود فيه الأمن والنظام. وكان هذا الميناء هو عيذاب الذي كان يتمتع بالأمن والاستقرار في ذلك الوقت، وبذلك انتقل إليه النشاط التجاري القادم من الجنوب عبر البحر الأحمر، والنشاط القادم من مصر عبر نهر النيل والصحراء الشرقية.

ومن العوامل الأخرى التي زادت في أهمية وشهرة هذا الميناء أيضاً، ذلك أنه أصبح يستقبل تجارة الكارم، تلك التجارة العابرة بين الشرق والغرب في عالم العصور الوسطى الإسلامية، حيث كانت السفن المحملة بسلع الشرق الأقصى وعالم المحيط الهندي بجانبية الأفريقي والعربي تنتهي إلى ميناء عيذاب بمعرفة تجار الكارم^(٦)، والذي بدا نشاطهم بها منذ عهد دولة الفاطميين، وما إن حلت دولة بني أيوب مكانها حتى

(١) سفر نامه ص ١٣٤

(٢) رحله ص ٣٨

(٣) مستفاد الرحلة والاعتبار ص ٢٠٤

(٤) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢

(٥) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٧٢-٧٣

(٦) (وقع الاختلاف في مدلول لفظ الكارم هل هو الخير الأصغر ومن ثم اشتهروا بالتجار في هذه المنطقة التي زاد الطلب عليها، أم أن اللفظ مشتق من اللغة الأهمرية بمعنى "الجهان" أي أنهم كانوا يتاجرون في هذه المنطقة، وهناك من يرى نسبة هذا اللفظ إلى التجار المبتدئين بهذه التجارة وأن أصلهم من منطقة الكلم وأنهم تجار اشتهروا بتجارة البهار ثم حرفت من الكانم إلى الكارم، وهناك من يرى إن الكلمة تعني تجار البحر ومنها تحريف الكلمة كالـ ريم في إحدى لغات ساحل الهند الغربي ومعناها حرفة التجار في البحر الأحمر، ومعنى ذلك لتسايرهم إلى البحر الذي كلو يسكنونه بين مصادر التوابل في الشرق الأقصى إلى مصر وعبر الديار المصرية حتى ميناء الإسكندرية، وعليه فقد رأى البعض أن لفظ الكارم أو الأكارم أو الكاريمي قد أطلق على جميع من مارس تلك التجارة بمصر سواء كان من المصريين أو من غيرهم، وكان الكارمية أشهر تجار المحيط الهندي، وتلك السلع هي التي أدت إلى ثراء دولة المماليك، وبالمثل فإن قياسهم بالنوخذة -

أصبح هؤلاء التجار أهم طبقة تجارية، إذ أصبحت لهم الهيمنة على تجارة البحر الأحمر بين الشرق والغرب^(١) وفي ظل هذا كانت عيذاب هي الميناء الرئيسي لهذه التجارة، والتي سجل أحوالها ابن جبير^(٢) خلال رحلته للحج بها، وما ذكره عنها من الجمع بين وظيفتين أحدهما دينية (الحج) والأخرى تجارية (القوافل العيذاوية - الكارم) وليس أدل على أثر هذه التجارة على عيذاب مما ذكره من استحداث مساكن الكارم (منازل الجبص) المغيرة لنمط المسكن السائد بها وهو (الأخصاص).

لما في زمن سلاطين المماليك فقد ازداد اهتمامهم بهذه التجارة اهتماما كبيرا، حتى أدت ثراء دولتهم، ومن ثم اهتموا بهذا الميناء الذي يستقبل هذه التجارة، وليس أدل على اهتمام سلاطين المماليك بها بأن خصصوا لها أسطولا يستقبل سفن الكارم، فيما بينها وبين سواكن وما حولها، خوفا عليها من قوم كانوا بجزائر البحر يقومون بالقرصنة والتعرض لها، وقد ذكر القلقشندي^(٣) "إن عدة هذه السفن خمسة ثم صارت ثلاث، وكان والي قوص هو المتولي لأمر هذا الأسطول، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه".

ومن الواضح من اهتمام المماليك بعيذاب هو إنها كانت الساحل - الميناء - الأول من أربعة سواحل بالبحر الأحمر، التي كان يأخذ بها المكوس من تجار الكارم، فضلا عن إنها كانت أكثر السواحل واصلًا لرغبة رؤساء المراكب في التغدية من جدة إليه^(٤).

وبذلك كان لكل هذه العوامل التي تضافرت فيما بينها دورها في شهره هذا الميناء وقيمته، حتى بات من أهم موانئ لبحر الأحمر في استقبال السفن وخدمة وسطاء التجارة. ولكن أين من حديثنا عن النشاط التجاري لعيذاب دور قبائل البجة ومشاركتهم فيه؟^(٥)

وفي نهاية الحديث عن النشاط التجاري لميناء عيذاب يواجهنا التساؤل، لماذا كان مصيرها التدهور والاضمحلال ثم الانهيار والزوال بعد أن وصلت إلى قمة مجدها خلال الفترات السابقة؟ وللإجابة على هذا التساؤل لابد من معرفة الظروف والأسباب السياسية والحربية والاقتصادية الخارجية وما يقابلها من اضطرابات داخلية خاصة فيما حول عيذاب والطرق المؤدية إليها.

ويمكن أن نجمال أسباب هذا التدهور والاضمحلال والخراب فيما يلي:

- أولا: الأسباب والظروف الخارجية:

و جاءت البداية في تدهور أحوال عيذاب نتيجة لتعرضها لحملة صليبية عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٥م على يد (أرنات) صاحب حصن الكرك الصليبي، وكانت حملته مباغته أدت إلى نهب المدينة وأخذ ما فيها من سلع

- التجارية بين الشرق والغرب نمت مكناتهم التجارية حتى أصبحوا يمتكون الرأسمالية التجارية في ذلك العصر - صلاح الدين الشامي : (الموانئ السودانية ص ٣٠)

(١) صبحي لبيب: التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة ١٩٥٢ ص ١١

(٢) ابن جبير: رحلته ص ٣٩

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٤

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ - ٤٦٩

(٥) عن مشاركة قبائل البجة في النشاط التجاري لعيذاب، انظر سليفاً، التجارة الداخلية، أهم المراكز التجارية، مدينة عيذاب

تجارية فضلا عن حرق عدد من المراكب وتدميرها^(١).

أما السبب الذي كان بداية النهاية لعذاب، فهو اقتصادي وكان هو تحول طريق الحج والتجارة إلى مسار الأصلي (درب الحاج المصري) بعد أن ظل طريق قوص - عذاب فيما بين ٤٥٠ - ٦٦٦ هـ / ١٠٥٧ - ١٢٧٣م هو المسار الرئيسي كما يقول المقرئزي "إنه خلال هذه الفترة انقطع طريق الحج البري عبر سيناء وأصبح البديل طريق قوص - عذاب للحج والتجارة مع لهند واليمن والحبشة، وظلت هذه الحالة حتى عام ٦٦٦ هـ / ١٢٧٠، إلى أن قام الظاهر بيبرس بكسوة الكعبة وإخراج قافلة الحج في البر - عبر وسط سيناء - فقل سلوك الحجاج لصحراء عذاب، وهذا فضلا عن انقطاع ورود السفن التجارية إليها عام ٧٦٠ هـ / ١٣٦٧م^(٢).

أما السبب الذي كذب النهاية لعذاب هو التطور الذي طرأ على مركز ميناء الطور على الساحل الشرقي لخليج السويس، فقد أصبحت منذ أواخر القرن الثامن الهجري الميناء الرسمي لتجارة مصر المملوكية في البحر الأحمر، وبذلك زالت أهمية عذاب وفقدت قيمتها كميناء تجاري وذلك منذ عام ٧٨٠ هـ / ١٣٨٧م، فصارت سفن اليمن تصل إليها بدلاً من عذاب^(٣).

كما لم يقتصر الأمر على منافسة ميناء الطور لعذاب فقط، لأنه في نفس الوقت أصبح الميناء المستقبل لسلع الشرق الأقصى هو ميناء عدن وبذلك أصبح ينقل منه هذه السلع إلى الطور وذلك حتى عام بضع وعشرين وثمانمائة للهجرة، ثم انتقلت الأهمية بالنسبة للسلع الوافدة من عالم المحيط الهندي إلى جدة فصارت أعظم مراسي الدنيا^(٤)، وكان هذا الازدهار لجدة ونمو حركة الملاحة فيها - دون شك - على حساب عذاب وقيمتها لتجارية.

ثانياً: الأسباب الداخلية: وهي التي تضافرت فيما بينها وبين الأسباب الخارجية لزوال عذاب ومنها: نضوب معدن التبر والذهب في ظهير عذاب، وذلك منذ أيام الخليفة العاضد الفاطمي^(٥) كما تعرضت للسلب والتهب من قبل ملك النوبة (داود النوبي) في عام ٦٧١ هـ / ١٢٧٨م^(٦).

و تعرض أيضاً طريق قوص - عذاب للاضطرابات نتيجة ثورات العرب ضد الحكم المملوكي في صحراء عذاب وذلك منذ عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦م^(٧)، وعجز هذا الحكم عن قمع هؤلاء العربان الذين ازداد عيشتهم في برية عذاب، حتى قتلوا حاكمها في عام ٧١٩ هـ / ١٣١٨م من قبل السلطان محمد بن قلاوون، مما دفعه للقيام بإرسال حملة لعقابهم على ذلك^(٨).

(١) ابن جبير : رحلته ص ٥٧ - ٥٩

(٢) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢

(٣) التكتلندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٦٩

(٤) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢

(٥) ابن بكرة : كشف الاسرار العنمية بدار الضرب المصرية ص ٣٩ .

(٦) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢

(٧) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٠٠ ، ج ٢ ص ١٦٢ (أحداث عام ٧١٦ هـ)

(٨) نفسه ج ٢ ص ١٩٢ (أحداث عام ٧١٩ هـ)

إضافة إلى الأسباب السابقة، سبب آخر وهو ما كان من الاشتباكات التي كانت تقوم دائماً بين حامدية الممالك في عيذاب والبيعة الساكنين فيها، وقد شاهد ابن بطوطة مثل هذه الاشتباكات عندما وصل إليها في عام ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥م وهو في طريقه إلى الحجاز فقال "لما وصلنا إلى عيذاب وجدنا (الحدرابي) سلطان البجة يحارب الأتراك (أي جذد الممالك) وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه، فتعذر سفرنا في البحر، فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد، وعدنا مع العرب الذين أكثرنا الجمال منهم إلى صعيد مصر"^(١).
وذلك الصراع أدى إلى اختلال الأمن في المنطقة، ودار أيضاً صراع آخر بين الأيوبيين وبنو الكنز وانتقالهم إلى بلاد النوبة منذ عهد صلاح الدين^(٢)

- وأخيراً جاءت النهاية لها وخرابها على يد السلطان الأشرف برسباي عام ٨٣٠ هـ / ١٤٣٧م حين سير حملة إليها خربتها تماماً، وقد ذكر أن هذا التخريب جاء من خلال أسطول وصل إليها فعاقب أهلها على ماحدث منهم من نهب للقافلة التي كانت تحمل السلع والأقوات إلى مكة^(٣)

وفي نهاية القول نذكر أن هذه الأحوال والظروف كلها أدت إلى تعطيل طريق التجارة البري والبحري اللذان كانا يربطان عيذاب بغيرها من الموانئ البحرية والنيضية، فتحوّلت التجارة عنها إلى مينائي جدة والطور كما سبق القول، وبذلك فقدت أهميتها وأصبحت مجرد ميناء محلي لا قيمة له، وكانت آخر خريطة تظهر فيها عيذاب كميناء ولكن في صورة خرائب، حينما ظهرت في خريطة لفريدوس عام ٩٠٥ هـ / ١٥١٣م، ومن ثم ضاع كل أثر لموقع خرائب عيذاب في كل الخرائط التي رسمت للبحر الأحمر وموانئه منذ نهاية القرن العاشر الهجري.^(٤)

وهكذا تضافرت العوامل والظروف فيما بينها لتضع النهاية لفصل آخر من فصول قصة أحد موانئ ساحل بلاد البجة، وكانت هذه النهاية من جانب آخر، بداية لفصل جديد من فصول قصة موانئ هذا الساحل، وكان هذا الميناء هو مينائي سواكن الذي ازدهر عقب نهاية عيذاب.

٣ - ميناء سواكن :

كان لانتهاء عيذاب وخرابها من غير شك، دور رئيسي في تطور هذا الميناء وشهرته، ويعني ذلك أن سواكن أصبحت منذ نهاية القرن التاسع الهجري - أوائل القرن الخامس عشر الميلادي الميناء الأول على الساحل الأفريقي فيما يقابل بلاد البجة، الذي ذاع صيته في خدمة الملاحة والتجارة العالمية. ولكن من جانب آخر: لا يعني هذا القول بأن ميناء سواكن ظهرت أو قامت في تلك الوقت، بل إنها قديمة وكانت معاصرة لأكثر من ميناء من الموانئ التي تعاقبت في قيامها وشهرتها على هذا الساحل. بمعنى آخر: أنها قامت بوظيفة الميناء وخدمة التجارة والملاحة قبل أن تمنحها الظروف الفرصة الملائمة لأن تلمع وتشتهر وتتحول إليها

(١) ابن بطوطة : رحلته ص ٥٣

(٢) عن الصراع الذي دار بين بني التتوز وصلاح الدين انظر عطية القوسي : دولة التتوز الإسلامية ص ٧١ - ٧٩

(٣) الحسن الوزان : وصف إفريقيا ص ٥٥٨

(٤) صلاح الدين القسامي : الموانئ السودانية ص ٩٥ - ٩٦

ولعل ما يؤكد قدم سواكن ومعاصرتها للموانئ الأخرى على هذا الساحل، ما ذكره المقرئ في أقدم إشارة عنها في بداية القرن الثاني الهجري - منتصف القرن الثامن الميلادي، حينما ذكرها هي وميناء باضع في حديثه عن اتجاه فلول الأمويين إليها هرباً من العباسيين^(٢) ويؤكد هذا القول أيضاً ابن حوقل في كتابه الذي وضعه في منتصف القرن الرابع الهجري - نهاية القرن العاشر الميلادي عن معاصرة ميناء سواكن لباضع على ساحل البحر الأحمر، خلال حديثه عن وادي بركة ونهره الذي يصب بينها^(٣).

وهكذا يكون هؤلاء المؤلفين قد أكدوا لنا ما ذكرناه سابقاً عن معاصرة سواكن للموانئ التي قامت على هذا الساحل، وإن موقعها كان يستخدم في التجارة والملاحة في تاريخ سابق لانهدار عذاب.

وقد نجد من الكتاب والباحثين ما ذهب بموقع سواكن إلى أبعد من هذا التاريخ، فقد أورد الدكتور صلاح الدين الشامي^(٤) أن عدداً من الكتاب والباحثين قد ذهبوا بموقع سواكن على أنه أقدم المواقع التي أقسم فيها ميناء على هذا الساحل، فقد ذكر أن الأستاذ الشاطر بصيلى أكد على أن موقعها قد مارس فيه اليونان البطالمة نشاطهم البحري والتجاري منذ قدومهم على هذا الساحل، كما ذكر أيضاً أن العالم كروفت craufoot افترض أن موقعها كان يقوم عليه ميناء بطلمي يسمى ليمن إيفنجليز، وذكر أيضاً أن العالم ليدين lyden رجح أن سواكن قد قامت في موضع الميناء البطلمي سوترليمن soterlimen .

ومهما يكن من قول فإن إصرار الكتاب والباحثين على أن موقع سواكن كان في خدمة التجارة والملاحة منذ أقدم العصور التاريخية، له إدراك تام بقيمة هذا الموقع ومميزاته، والتي لا يمكن أن يغفل عنها التجار القدماء.

وربما تكون بداية هذا الميناء كما ذكر قد أسست على أيدي العرب في فجر الإسلام، وذلك حينما بدأ استقرارهم على السواحل الأفريقية منذ القرن الأول الهجري بعد عام ٧٠٢ م لضمان سلامة التجارة العربية على هذه السواحل، وبالتالي قاموا بإنشاء عدد من المحطات التجارية عليها في نقاط متذبذبة ومتنقاة كان من بينها موقع سواكن^(٥) حتى قيل أن اسمها ينحدر في الغالب من أصل عربي أصيل، فمصدره مشتق من كلمة عربية وهي كلمة (سوق) كثرة ما بها من تعامل تجاري، ثم اشتق منها لفظ سواكن ثم حرف فيما بعد إلى سواكن^(٦).

(١) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٩٩

(٢) المواقف والاعتبار ج ١ ص ١٩١

(٣) صورة الأرض ص ٥٧

(٤) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ١٠٠

(٥) الشاطر بصيلى : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٨

(٦) (وقد وردت عدة تسميات عن اسم سواكن وأصله، فقد ذكر أن اسمها مصدره اسم مصري قديم وهو (شواخن) ويعني بذلك أنها كانت محطة شوا التي تعتبر أحد الأقاليم القبلية الحبشية، وعن التي تحولت إلى كن نظراً لثقل أجدية اللغات البجاوية من حرف الخاء، كما ذكر أيضاً أن اسمها اشتق من لفظ (سجون) جمع سجن إذ كان موقعها مستخدم سجوناً يضم الخارجين عن القانون والمجرمين، وذكر أيضاً أن اسمها مصدره جاء عن ارتباط موقعها بقصة طويلة تسمى قصة (السبعة جن) ثم جاء منها اسم سواكن. وهذه التسميات ما هي إلا آراء واقتراحات وقصصاً يتداولها الناس ويفكرها بعض الكتاب بتحليل الاسم . والواقع أنه ليس من السهل علينا القطع برأي معين في ذلك الموضوع، لأنه ليس ثمة دليل يمكن الاعتماد عليه في ذلك، ومهما يكن من أمر فمن لا نهتم كثيراً بتحليل الاسم أو الوصول إلى -

ونحن نؤكد صحة ذلك القول القائل بأن سواكن قامت بفضل العرب وربما أسست بأيديهم، لأن اسم سواكن ورد ذكره لأول مرة خلال القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي، وكان ذلك عندما مرت بها فلول أسرة بني أمية الهاربة من العباسيين^(١) وهذا التاريخ في واقع الأمر يتفق مع نشاط العرب الفازحين والمهاجرين من جنوب شبه الجزيرة العربية وإقبالهم إلى المواقع الملائمة على خط الساحل الغربي للبحر الأحمر من أجل التجارة وخدمة الملاحة.

وخلال الحديث عن فضل العرب ودورهم في قيام سواكن وربما تأسيسها يواجهنا تساؤل وهو - بما أنه كان للعرب فضل في قيام سواكن وربما تأسيسها ثم تحظى بالقدر الكافي من الاهتمام من ذكر قيمتها التجارية في كتابات مؤلفيهم التاريخية إلا بعد انهيار عيذاب؟

وقبل الإجابة عن هذا التساؤل لابد لنا من معرفة موقعها التي كانت توجد فيه، ربما يحمل الحديث عن ذلك في طياته بعضاً من الإجابة، وقد حدد المؤرخون العرب موقعها في العصور الوسطى بأنها تقع على ساحل البحر الأحمر كما ذكر ياقوت الحموي^(٢)، وقد حدد ابن سعيد أن موقعها يقع جنوب عيذاب، ويحدها جنوباً جزائر دهلك، أما غربها فيقع إقليم الناقة الذي يضم خور بركة، وحدد المسافة بينها وبين عيذاب في البر سبع مراحل^(٣).

أما ابن بطوطة فقد ذكر المسافة بينهما في البر مسيرة إحدى عشرة يوماً، ومسيرة سبعة أيام في البحر^(٤)، أما النويري فذكر أن المسافة بينهما في البحر عشرة أيام^(٥)، كما ذكر ابن بطوطة أيضاً أنها تبعد عن الساحل بمسافة ستة أميال^(٦)، وهي تقع على جزيرة من الجزائر القائمة في الساحل من جزائر بلاد البجة^(٧)، وقد قدر المقرئ مسافة هذه الجزيرة بأنها أقل من ميل في ميل^(٨) أما الآن فمن المعروف أن موقعها يقع على ساحل البحر الأحمر في السودان على خط عرض ١٩،٥ درجة شمالاً وخط طول ٣٧،٥ درجة شرقاً في وسط سهل ساحلي منخفض يحاذي البحر الأحمر، وهذا السهل يحده من الشمال كتلة جبليّة يزيد ارتفاعها عن ألف متر فوق سطح البحر، تندرج في أطرافها الجنوبية انحداراً تدريجياً حتى تنخفض إلى مستوى لا يزيد عن ثلاثمائة متر، وتستمر في الانحدار حتى تختلط بالسهل الذي توجد فيه سواكن، والذي ينخفض هو أيضاً تجاه الجنوب حتى ينتهي بفجوة تفصل بينه وبين هضاب إريتريا، وبداخل هذه الفجوة يجري

- مصدره الذي لحذر منه. وإن كنا نعتقد أنه لحذر في الغالب من أصل عربي أصيل - صلاح الدين التمامي: الموانئ السودانية ص ١٠١، ١٠٤ (١٠٥، ١٠٤)

(١) المقرئ: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩١

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٧٦

(٣) بسط الأرض ص ٥١

(٤) رحلته ص ٢٥٣ - ٢٨٩، ٢٥٤

(٥) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٣٠ ص ٢٤٠

(٦) رحلته ص ١٨٨ .

(٧) المشقى: نخبة الدرر في عجائب البر والبحر، نشر mf.mehran ١٩٢٣ ص ٢٦٩ .

(٨) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧

خور بركة^(١) وهذا ما يحدها شمالا وجنوبا، أما من الشرق فيحدها البحر الأحمر ومن الغرب فيوجد خور (أربعات) الذي يقع في منطقة الجبال الخلفية لها، وهو من أشهر الأودية في جبال البحر الأحمر لأنه يكاد يكون الخور الوحيد الذي تصل مياهه إلى البحر، وتبدأ احباسه العليا على مسافة حوالي ٨٠ كيلو متر جنوب غرب سواكن، في سلسلة من سلاسل البحر، ويمر بمسافة تبلغ ١٠٠ كيلو متر في قلب المنطقة الجبلية الوعرة قبل أن يغير اتجاهه العام تغييرا مفاجئا صوب الشرق لكي ينساب على المنحدرات الشرقية، وتقدر مساحة تجمع هذا الخور وروافده بحوالي ٤٠٠٠ كيلو متر مربع^(٢).

وهذا عن موقعها أما موضعها تحديدا فتوجد سواكن على جزيرة داخل خليج شبه دائري يكون بداخل الساحل وموازيا له، ويمكن الوصول إليها من عرض البحر من خلال اختراق ثغرة في امتداد مرجاني يكون محاذيا للساحل داخل البحر، وهذه الثغرة التي توجد في هذا الحاجز المرجاني تكون معقولة ومعدلة، حيث توفر العمق الملائم لمرور السفن إلى المرفأ بالداخل، وهذه الثغرة تتصل بذراع مائي طبيعي يمتد من الشرق إلى الغرب في هذا الحاجز المرجاني الخارجي، وتكون جوانب هذا الذراع منتظمة ومستقيمة حتى يتصل بقناة مائية تخترق الساحل لتكون امتدادا مائيا له، وهذه القناة المائية التي تخترق الساحل تتميز بطول المسافة فتبلغ مسافة ٢ ميل، ويبلغ أقل عرض لها ٢٠ ياردة، ثم تتصل بعدها مباشرة بذراع آخر تكون عمودية عليه، ويكون هو موازيا لخط الساحل يبدو في شكله شبه دائري غير منتظم توجد فيه جزيرة سواكن^(٣).

وبعد أن عرضنا موقع سواكن وما له من صفات ومميزات مناسبة تؤهله لاستقبال السفن منذ نشأته يزداد التساؤل أكثر إلحاحا في الكشف عن السبب الذي لم يجعل لها القدر الكافي من الاهتمام من ذكر قيمتها التجارية في كتابات المؤلفين العرب إلا بعد انهيار عيذاب.

ومن المؤكد أن قيمة سواكن التجارية خلال هذه الفترة كانت محدودة إذا ما قورنت بقيمة كل من باضع ومن بعدها عيذاب. ويرى السبب في ذلك الدكتور صلاح الدين الشامي^(٤) أن جزءا كبيرا من تجارة الأقاليم السودانية كانت تمر بطريق باضع ثم عيذاب لما لهما - على التوالي - من علاقات متزايدة مع التجارة الدولية، بالإضافة إلى أن سواكن لم تكن على صلة وثيقة بالسفن الملاحية الكبيرة القادمة من المحيط الهندي في ذلك الحين، ولذلك كانت باضع ثم عيذاب من خلال شهرتهم وطبيعة خدمتهم للتجارة والملاحة تقلل من دور سواكن وتحجبه فلم يكن لقيمتها ذكر في أي من مؤلفات العرب التاريخية إلا بعد انهيارهما.

ونحن نقبل هذا الرأي ونؤكد بان نضرب لذلك مثلا: فعند ذكر اسم سواكن لأول مرة ذكرت بجانب باضع، وكان ذلك في بداية القرن الثاني الهجري - منتصف القرن الثامن الميلادي كأحد موانئ البحر الأحمر

(١) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٨ - ١٠

(٢) السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي ، تأليف : د / محمود محمد الصياد - د / محمد عبد القوي سعودي ص ٤١ .

(٣) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ١٠٢ - ١٠٣

(٤) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ١٠٦

التي يمكن الوصول إليها من النيل^(١)، لكن في عام ٢١٦ هـ / ٨٤١ م لم يرد ذكر اسمها في عقد الأمان الذي أعطاه عبد الله بن الجهم إلى كانون بن عبد العزيز عظيم البجة ضمن بلاد البجة، في حين أن اسم باضع ذكر فيه^(٢).

وما أن جاء القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي ولمعت شهرتها وزادت قيمتها حتى عاد اسمها يذكر كأحد موانئ بلاد البجة الهامة، ولكن اسمها كان هذه المرة بجاذب عذاب كما أشار الدمشقي^(٣). ومن الواضح هنا أن اسم سواكن عندما ذكر لأول مرة ذكر بجاذب باضع، ثم اختفى خلال الفترة اللاحقة من جاذبها، وهذا يؤكد سيطرة باضع على تجارة هذه المنطقة خلال هذه الفترة مما أضعف من قيمة سواكن فلم يعد لها ذكر، وما أن انهارت باضع وتلاشت وقامت عذاب من بعدها حتى سيطرت هي الأخرى على تجارة هذه المنطقة وبالتالي استمر ضعف قيمة سواكن فلم تذكر أيضاً خلال هذه الفترة وما أن أخذت عذاب في الضعف والانحيار، بدأت قيمة سواكن من القوة والازدهار تسيطر على تجارة هذه المنطقة حتى عاد اسمها يذكر منذ ذلك الحين مرة أخرى.

ورغم تقبلنا لهذا الرأي وتأكيده، لا نمنى بذلك مطلقاً أن القيمة التجارية لسواكن - خلال الفترة التي سيطرت فيها باضع ومن بعدها عذاب على تجارة هذه المنطقة - قليلة الشأن، لأن قيمتها التجارية لم تكن محددة حينها إلا للنشاط التجاري العربي، أما للنشاط تجاري آخر كانت عظمة الشأن، وهذا النشاط هو النشاط التجاري النوبي المسيحي، فكانت سواكن خلال هذه الفترة أهم المراكز التجارية لدويلات النوبة المسيحية، لأنها بمثابة النافذة الوحيدة التي يطلون منها على التجارة العالمية، ولعل ما يؤكد قولنا ما أشار إليه يساقوت الحموي الذي حدد صفة سكانها بأنهم من البجة السود النصارى^(٤).

والواضح من هذا القول، إن المسيحيين المستقرين في سواكن هم في الغالب الممثلين للتجار الذين يستخدمونها، وهم الذين يتعاملون مباشرة مع دولتي النوبة المسيحية والحبشة، ولا شك كان لهذا أثره في اعتناق أهل سواكن النصرانية. ويبدو من ذلك أن النوبيين عملوا على تنصير أهل سواكن ونقل الثقافة النوبية المسيحية لهم لتقوية الروابط بينهم، حتى يضمنوا سلامة سير تجارتهم إلى الخارج، خاصة بعد سيطرة العرب على النشاط التجاري لهذا الساحل، فأصبحت سواكن منفذ تجارتهم الوحيد وبذلك كان لابد من توفير عامل قوي يضمن ولاء سكانها لهم.

وتقد أدرك العرب مدى القيمة التجارية لسواكن وأهميتها لدويلات النوبة المسيحية، حتى قبل انهيار عذاب بأكثر من قرن، فتوجهت أنظارهم إلى إحكام السيطرة عليها وخاصة دولة المماليك بمصر حتى عمل سلاطينهم على إحكام السيطرة عليها في النهاية.

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩١

(٢) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٥

(٣) الدمشقي : نخبه الدهر ص ٢٦٩ .

(٤) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٧٦ .

وربما كان الدافع وراء ذلك وضع الحد للتهديد المباشر أو غير المباشر الذي كان يعترض تجارة البحر الأحمر من قبل النوبيين من ناحية، وإحكام الرقابة على دويلاتهم لمسيحية وعلاقتها مع الخارج من ناحية أخرى، وربما كان الاهتمام منبثقاً من الرغبة الملحة في تقوية الروابط بين الدول العربية الإسلامية وبين الأعداء المتزايدين من العرب والعناصر العربية التي استقرت في السودان^(١).

ولقد حانت لهم الفرصة من السيطرة على سواكن في عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٤م حين تعرض صاحبها الشريف (علم الدين اسبغاني) للتجار وساء معاملتهم، وأخذ مال وميراث من مات منهم في البحر ومنع أولادهم منه، فأرسل إليه السلطان يطالبه بحسن معاملة التجار، فلم تُغن المكاتبات شيئاً، فاتبع ذلك بإيفاد حملة حربية بقيادة حاكم قوص (علاء الدين الخزندار) لتأديب صاحبها وسكانها، فتوجه إلى عيذاب ومنها إلى سواكن بأسطول بحري يزيد عن أربعين مركب، وحين وصلها كان صاحبها قد فر منها، فدخل سواكن وفدحها في هذا العام المذكور وأقام بها ومهدا وقرر أحوالها، وبعدها عاد إلى قوص، وما أن فارق الخزندار سواكن وعلم بذلك الاسبغاني حتى عاد إليها، وكان الخزندار قد ترك بها حامية اصطدم بهم فقاتلوه أشد قتال حتى هُزم وفر منها^(٢).

ومنذ ذلك الحين سقطت سواكن في قبضة المسلمين وكان لذلك مغزاه السياسي والتجاري بعيد الأثر، لأنه يعني إحكام السيطرة والرقابة العربية الإسلامية على المنفذ التجاري البحري الوحيد للنوبيين من ناحية، ومن ناحية أخرى يعتبر تهديد مباشر لمعازل المسيحية في السودان. وبذلك باتت آخر الطرق التي كانت تجد فيها دويلات النوبة منفذاً إلى العالم الخارجي قد فقد، مما يؤدي إلى الضرر بمصالحها الاقتصادية وعزلها عن العالم الخارجي، ولا سيما الاتصال بالأراضي المقدسة بفلسطين^(٣).

وبما أن سقوط سواكن أصبح في نظر مسيحي النوبة تهديداً مباشراً وخطراً محدقاً لمصالحهم الاقتصادية والتجارية؛ بأن رد الفعل المباشر لهم والذي تمثل في الهجمات الذي قام بها ملك النوبة (داود) على ثغر عيذاب ومدينة أسوان عام ٦٧١ هـ / ١٢٧٢م وعاث فيهما خراباً، كما امتنع عن دفع البقطة^(٤).

والواضح من هجوم ملك النوبة تجاه بلاد المسلمين التجارية وإلحاق الضرر بها، كان دافعه الرئيسي ناتج عن استيلاء المماليك على سواكن^(٥)، ولكن رغم محاولات النوبيين للسيطرة عليها والسعي إلى استردادها مرة أخرى، بذل المماليك كل ما في وسعهم لحمايتها وإقرار سلامة التجارة بها، ولتحقيق ذلك كانوا دائماً يرسلون إليها الحملات العسكرية، حتى يحفظوا السلام في ظهيرها وتثبيت السلطة بها، وكانت من بين تلك الحملات إلى ذلك، الحملة التي سيرها السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) في عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦م وذلك

(١) صلاح الدين القسامي : الموانئ السودانية ص ١٠٩

(٢) التويري : نهضة العرب ج ٣٠ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٣) مكي شيكدة : السودان عبر القرون، القاهرة ١٩٦٤ ص ٣٠

(٤) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٦٠٨

(٥) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٤٥

للقضاء على عبث العربان في برية عيذاب حتى سواكن، ولتثديت يدهم على هذه المنطقة وتأمين لتجارة المارة بها، وقد سلكت هذه الحملة الطريق البري من قوص إلى عيذاب، ومنها برا إلى سواكن، فخرج إليها صاحب سواكن بالطاعة والانقياد إلى أوامر السلطان، وقرر على نفسه قطيعة يحملها إلى الأبواب السلطانية في كل سنة، وهي ثمانون رأسا من الرقيق، وثلاثمائة رأسا من الجمال، وثلاثون قذطارا من العاج، وجعل نفسه نائبا للسلطان عليها^(١).

ونستنتج من هذا القول مدى التنافس القوي بين السلطة المملوكية والقبائل العربية من جانب، والسلطة المملوكية المسلمة ودويلات الذوبية المسيحية من جانب آخر، وسعى كل منهم لفرض نفوذه على سواكن والسيطرة عليها، وإن تلك يدلنا بطريقة عملية على مدى القيمة الاستراتيجية والاقتصادية لميناء سواكن آنذاك.

ولكن في ظل هذا التنافس القوي بين العناصر المختلفة للسيطرة على سواكن، سعى البجة إلى التمسك بها والاستمرار في إدارتها، وتمثل ذلك في إعلان صاحبها البجاوي الطاعة والولاء لسلطة المملوكية مقابل أن يظل حاكما عليها.

والمؤكد من تمسك البجة بإدارة سواكن لكثرة المكاسب والأرباح التي كانوا يحصلون عليها، وقد أشار ابن سعيد ما كان يقدمه البجة من مجهود حربي في هذه المنطقة لضمان سير التجارة إليها، فكثيرا ما كانت تقام للحرب بينهم وبين أصحاب الجزائر الأخرى في المنطقة وخاصة صاحب جزيرة دهلك، والواضح من سعي البجة من إقرار السلام في هذه المنطقة لتأمين الطريق أمام السفن التجارية التي كانت تفد إليها وخاصة مراكب الكارم التي كانت تأتي من بر العرب والحجاز وليمن عبر البحر^(٢) وكما سعى البجة إلى إقرار الأمن والسيطرة في البحر سعوا إلى تحقيق ذلك في البر، فقاموا بإخضاع لقبائل العربية القائمة في هذه المنطقة تحت طاعتهم وخاصة عرب جهينة وبنو كاهل، كما قاموا بالإشراف على الطرق البرية التي تصل سواكن بالمراكز التجارية وخاصة الطريق بينها وبين عيذاب وجعلوا أنفسهم حرسا عليه، هذا فضلا عن توفير مصادر المياه بها الممثلة في حفر الأبار^(٣).

والواضح من اهتمام البجة بتسيير الطريق أمام سواكن برا وبحرا، فهو دليلا على قوة الحركة التجارية بها وزيادة نشاطها، وما يترتب على ذلك من تحقيق أعلى المكاسب والأرباح، ولكن من المثير أن هؤلاء المؤلفين عن أهل سواكن يتضح لنا أن إدارة هذه الحركة التجارية وحصول الأفادة منها اقتصر على فئة معينة منهم.

فقد أشار المقرئ^(٤) أن أهل سواكن من البجة من العنصر الذي يقال له الخاصة، وقد ذكر الهمشقي^(٥) أن هؤلاء الخاصة ينقسمون إلى الخاصة السفلى وهم كفار، والخاصة العليا وهم مسلمين.

(١) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ١٦٢

(٢) بسط الأرض ص ٥١ .

(٣) ابن بطوطة : رحلته ص ٢٨٩

(٤) المواعظ والاعتبر ج ١ ص ١٩٧

(٥) نخبه الامر ص ٢٦٩

والراجع من هذا القول أن الخاصة المسلمين هم الذين كانوا يسيطرون على إدارة لحركة التجارية بسواكن، ولهم الغاذة من تجارتها دون غيرهم، ذلك وصفهم الممشقي بعزو الشأن.

وقد أكد ذلك ابن سعيد^(١) من خلال حديثه عن صاحب سواكن، وذكره بأنه من الذبة المسلمين، وهو المسئول عن جمع الضرائب من سفن الكارم وتجارته، وإدارة الحركة التجارية والسياسية بها. ويمكن القول بأن الدرجة العليا التي منحت للمسلمين من الذبة بسواكن قد أعطاها لهم الدولة الإسلامية بمصر، اعتباراً بأنهم من رعاياها ونوابها في إدارة سواكن وحكمها. ومنذ ذلك الحين أصبحت سواكن من أكبر الموانئ التجارية الإسلامية وأعلاها شهرة وأكثرها أهمية على خط الساحل الأفريقي.

وفي نهاية الحديث عن سواكن ومهما يكن من أمر فقد انتهت الفترة الأولى من تاريخ حياة سواكن، ولكن دون إغفال الحقيقة الواقعية وهي انتقال سواكن من حال إلى حال ترتب على المحنة التي تعرضت لها عذاب — كما ذكرنا من قبل — على يد سلطان المماليك، والتي ترتب عليها أن فر وهاجر عنها بعض أهلها إلى سواكن لاستئناف حياتهم في خدمة الملاحة والتجارة، لأنهم كانوا قد ارتبطوا فعلاً بذلك المورد من موارد الكسب، وتؤكد المصادر أنه في تلك الفترة بالذات والتي خربت فيها عذاب وصلت السفن التجارية الكبيرة المحيطية إلى سواكن من الهند والصين وجدة وقد أشار إلى ذلك كلا من ياقوت^(٢) وابن سعيد^(٣)، وكان ذلك كله بداية لعهد جديد لها، وتصدرت منذ ذلك الحين موانئ الساحل السوداني، واعتلت مرتبة ممتازة بين موانئ البحر الأحمر بصفة عامة.

وصفة القول أن قبائل الذبة ساهمت بشكل مباشر في النشاط الاقتصادي ودروبه، خلال الفترة التي برز فيها الإقليم على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي. ورغم ما اتصف الإقليم من جو جاف وبيئة صحراوية، فقد استطاع الذبة أن يزرعوا بعض المناطق التي توفرت فيها ظروف لزراعة، مستعينين في ذلك بمن جاوهم من الشعوب المزارعة. وفي ظل ذلك لم يغفلوا حرفة الرعي، فافقتوا أفضل الحيوانات وأنجوا أفضلها. أما التجارة فقد لعم صيتها في هذه البلاد؛ لما توافر لديها من المعادن النفيسة ذات القيمة العالية من ذهب وزمرد، فنشطت حركة التجارة وازدادت المراكز التجارية أهمية، وبالتالي كان للطرق المؤدية إليها دور كبير في هذه الحركة. وفي ظل هذه الحركة برزت الموانئ التجارية التي كان لها عظيم الأثر في إعلاء قيمة هذا الإقليم على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي، من خلال تعاقب الأدوار فيما بينها لتمنح هذا الإقليم فترة من النشاط الاقتصادي يتجاوز عشرة قرون من الزمان شارك خلالها الذبة شتى دروبه.

(١) بسط الأرض ص ٥١

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٧٦

(٣) بسط الأرض ص ٥١

الفصل الرابع:

مظاهر الحياة الاجتماعية عند البجة

أولاً: عناصر السكان وطبقات المجتمع:

أ- قبائل البجة قديماً وفروعها اليوم.

ب- العرب وقبائلها.

١ - العناصر العربية في بلاد البجة قبل الإسلام

٢ - قبائل العرب في بلاد البجة بعد الإسلام.

ثانياً: العادات والتقاليد البجاوية:

أ- المسكن. ب- الملبس.

ج- المأكل. د- العادات والتقاليد.

أولاً: عناصر السكان وطبقات المجتمع:

أ- البجة (لبجا) وفروعها اليوم:

تعد حفلات بلاد البجة في العصور الوسطى بعناصر بجاوية عديدة ومختلفة، والتي اختلفت فيما بينها من الرغبة في علو الشأن وفرض النفوذ والسيطرة على الأرض والعناصر السكانية الأخرى. ورغم انتشار الإسلام بين هذه العناصر لم تفقد الطبقة دورها بينهم، بل ظلت قائمة، بل وأصبح الإسلام نفسه أحد الأدوات التي استخدمت لتحقيق ذلك.

ويمكن ملاحظة ذلك من قول ابن حوقل الذي أشار إلى إسلام البجة في بداية دخول العرب بلادهم، حيث ذكر أن "أكثرهم أسلم إسلام تكليف، وضبطوا بعض شرائط الإسلام، وظاهروا بالشهادتين، ودانوا ببعض الفرائض وجرت أحكامهم على سنن كانت لهم جاهلية إلى بعض أحكام يستعملونها إسلامية".^(١)

وقد أشار ابن جبير خلال رحلته إلى إسلام البجة ولكنه وصفه بالضعيف فقال: "أن لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهاراً للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى ويحل".^(٢) ومن القولان نلاحظ أنهما متطابقان رغم الفترة الزمنية بينهم، ويتضح لنا أن الإسلام لم يكن له عميق الأثر في نفوس البجة رغم طول مدة اعتناقهم له، بل كان اعتناقه من أجل تحقيق أغراض معينة، كان في مقدمتها البحث عن علو شأن العنصر أو الطبقة.

ورغم هذا القول لا نقصد مطلقاً أن الإسلام لم يكن له أثره في هذه البلاد، فبفضل العناصر العربية التي استقرت ببلادهم جعلت منها مركزاً ثقافياً يربط الدين الإسلامي واللغة العربية في المنطقة والذي نتج عنه القضاء على الوثنية بين البجة والمسيحية في بلاد النوبة.

وبالعودة إلى حديثنا عن البناء الاجتماعي لبلاد البجة يتبين لنا أن مجتمعهم كان قائماً على النظام القبلي، فكانوا ينقسمون إلى قبائل وبطون كما للعرب كما ذكر المؤلفون العرب أمثال ليعقوبي^(٣) والمسعودي^(٤) وابن حوقل^(٥) والمقرئزي^(٦).

وسوف نتحدث عن هذه القبائل والبطون على أساس تجمعاتهم في كل منطقة، حسب الظهور والدور الاجتماعي في الهرم الطبقي، كل منهم على حدى.

وأولى هذه التجمعات القبلية كانت في المنطقة الشمالية من بلاد البجة، وهي التي تقع ما بين جنوب أسوان شمالاً، إلى شمال خور بركة جنوباً، ومن البحر الأحمر في الشرق إلى بلاد النوبة في الغرب وقد قامت بها قبائل الحدارب، وحجاب، والمعاصر، وكوبر، ومناسة، ورسقة، وغريبعة، والزنافج،

(١) صورة الأرض ص ٥٠، ٥١.

(٢) رحلته ص ٤٢.

(٣) تاريخه ج ١، ص ١٩٢.

(٤) مروج الذهب ج ١، ص ١٨.

(٥) صورة الأرض ص ٥٥.

(٦) المواعظ والاعتبار ج ١، ص ١٩٤.

١ - الحدارب (الحدارية):

هم أهم العناصر البجاوية عامة والتي لعبت دوراً هاماً في شتى جوانب الحياة عند البجة، ويقيم هؤلاء الحدارية ما بين حد أسوان شمالاً إلى حد خور بركة جنوباً، وعاصمتهم هجر^(٢) وهي التي تقع أقصى مواطنهم^(٣) ويقدر طول بلادهم بمسيرة شهرين، وعرضها من البحر إلى النيل، وهم يندقلون بين مناطقها من حين إلى آخر بحثاً عن المطر والمراعي والأراضي الصالحة للزراعة، فيقضون شتاءهم قرب ساحل البحر، والصيف في بطون الأودية، والخريف جهة الغرب من النيل^(٤). وفي هذه الجهات المترامية الأطراف مارس الحدارية مختلف الأنشطة لشتى جوانب الحياة.

وينظر البعض إلى أن الحدارية ليسوا بجة بل عرب، قدموا من حضرموت إلى السودان في عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، وكانوا يسمون بالحضارم ولكنهم قلبوا الضاد دالاً، والميم باءاً، فأصبحوا يسمون بالحدارب^(٥) كما ألحقوهم بالنسب إلى عمير بن سبأ، وربما عناصر شتى من أعقاب سبأ، نزلوا إلى بلاد البجة قبل مجيء ربيعة بزمان طويل يربو على ثلاثة قرون، وعندما صار لربيعة نفوذ في بلاد البجة، كان الحدارية قد توطنوها، وصاروا من أهلها فعدوا طائفة من البجة^(٦).

ونحن لا نقبل هذه النظرة التي ترى أن الحدارية عرب؛ لأن القبائل العربية في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٧٥ هـ وما بعدها كانت جميعها قد اعتنقت الإسلام، أما الحدارية فظلوا على وثنيتهن حتى زمن اليعقوبي في القرن الثالث الهجري والذي قال على وثنيتهن "إن الحدارية من البجة ليس لهم شريعة، إنما مذهبهم عبادة الأصنام، وكانوا يعبدون صنماً يسمونه "ححاخوا"^(٧).

وبهذا لا يقبل أن يرد العرب عن الإسلام مقابل إقامتهم مدة من الزمن بين عناصر ما وُذني مثل البجة حتى يصيروا منهم.

وعلى افتراض صحة جدل هذا القول بأن الحدارية عرب، وربما انتقلوا إلى بلاد البجة دون أن يعتنقوا الإسلام، فهذا لا يعنى أنهم تخلوا عن لغتهم العربية تماماً دون أن يكون لها أثر بينهم أو بين القبائل البجاوية الأخرى فقد أشار ابن حوقل إلى أن لغتهم لغة نعم البجة وجميعها أعجمية^(٨). ولذلك لا نقبل أيضاً من كون الحدارية عرب تخلوا عن دينهم وثقافتهم وأصبحوا مطموسي الهوية حتى تحوّلهم الثقافة البجاوية فيصيروا

(١) اليعقوبي: تاريخه ج ١، ص ١٩٢. ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٥.

(٢) اليعقوبي: البلدان ص ٣٣٦، تاريخه ج ١ ص ١٩٢.

(٣) المقرئ: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٦.

(٥) Mac michael. Op, II p. 319

(٦) المقرئ: البيان والإعراب ص ١٢٤.

(٧) البلدان: ص ٣٣٦.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٦.

جزءاً منها في مدة قليلة من الزمن. ومهما يرد من قول عن كون الحدارية عرب، فنحن لا نقبله رُدّاً، كقول العمري الذي يشير إلى أن الحدارية كانوا يعتبرون في سجلات الدولة المملوكية عرباً، قائلاً عنهم: "وشيخ الحدارية سمرة بن ملك، وهو ذو عدد جم وشوكة مكينة، يغزو الحبشة وأمم السودان، ويأتي بالتهاب والسبابة، وله أثر محمود وفعل مآثور. وفد على السلطان وأكرم مثواه، وعقد له ذواء، وشرف بالثشريف وقلد. وكذب السلطان إلى ولاية الوجه القبلي عن آخرهم، وسائر العربان القبلية بمساعدته ومعاضدته والركوب للغزو معه متى أراد. وكذب له منشور بما يفتح من البلاد، وتقليد بأمر العربان القبلية مما يني قوص إلى حيث غايته وتركز رايته. أما رسم المكاتبية إليه يشبه رسم المكاتبية إلى بقية أمراء العربان في مصر وغيرها".^(١) وأورد كذلك القلقشندي قولاً مشابهاً لهذا القول. قائلاً عنهم "أنهم عرب، وكان لرؤسهم مكاتبية على الأبواب السلطانية بالديار المصرية".^(٢)

ويأتي عدم قبولنا لهذا القول على أنه ليس دليلاً عن كون الحدارية عرب؛ لأن المكاتبات السلطانية المملوكية لم تكن للعرب فحسب، بل كانت لأي عنصر أعلن ولائه وطاعته لهم. ونحن نعلم حين أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون حملته في عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦م للقضاء على عبث العربان في برية عيذاب وسواكن، خرج إليها صاحب سواكن البجاوي بالطاعة والانقياد إلى أوامر السلطان وأقر على نفسه قطيعة يحملها إلى الأبواب السلطانية في كل عام^(٣) ومن الواضح أن العمري المتوفي في تاريخ لاحق للتاريخ المذكور عام ٧٤٩ هـ قد شاهد حدث مكاتبية المماليك للبيعة، وبما أن الحدارية هم الأعلى شأنًا وأصحاب اليد العليا في شئون البيعة جاءت المكاتبية باسمهم.

ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه ما ورد في قول العمري نفسه وهو "أما رسم المكاتبية إليه فيشبه رسم المكاتبية إلى بقية أمراء العربان"^(٤)، فلو كان الحدارية عرب ما كان هذا القول ورد من الأساس وخاصة لفظ "يشبه".

أما قول القلقشندي فلا نقبله على أنه دليل على كون الحدارية عرب، لأنه أورد عروبتهم مقترنة بما كان لرؤسهم من مكاتبية على الأبواب السلطانية، ونحن ذكرنا أن العمري أورد لفظ "يشبه"، وبما أن هذه المكاتبية شبيهة بمكاتبية العربان، فربما لذلك ظن أنهم عرب وخاصة أنه يبعد عن الحدث (٨٢١ هـ / ١٣٤٨م) فترة من الزمن، كافية لأن تجعل الأمور ملتبسة أمامه. وهذا أمر وارد في نصوص الكتابات التاريخية. وبالعودة إلى الحديث عن النظام الاجتماعي للحدارية نجد أنهم كانوا ينقسمون إلى عدة بطون فمنهم العريديكة والسوتباروا والحوثمة والعنكبيرا والنجويرا والجديديكة والواخيكة والحرييب. ويتفرع من هذه البطون مائة فخذ لكل بطن، ولكل فخذ رئيس أو رؤسان يكون مسؤولاً عن تنظيم أحوال الفخذ

(١) التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٣١٢ هـ ص ٧٧.

(٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٣.

(٣) المقرئ: السلوك ج ٢ ص ١٦٢.

(٤) التعريف بالمصطلح الشريف ص ٧٧.

وحلقة الوصل بينه وبين الأفخاذ والبطون الأخرى، وجميع رؤساء الأفخاذ تحت قيادة رئيسان للحدارب عامة، أحدهما مسؤولاً عن النظام الاجتماعي^(١). وقديماً كان لهم رئيس واحد يرجع جميع رؤسائهم لحكمه.^(٢) والملاحظ أنه رغم تعدد فروع الحدارب وكثرة عددهم إلا أنهم أكثر عناصر البجة تماسكاً وترابطاً، وهذا هو ما جعل منهم العنصر الأقوى والأعظم شأنًا بين سائر العناصر البجاوية، لذلك كانت جميع ناصر البجة الأخرى تقدم لهم الطاعة والولاء، وفي ذلك يقول المقرئ عدهم "وهم شوكة القوم ووجوههم ومنهم جنس آخر يعرفون بالزنافج وهم أكثر عدداً من الحدارب، غير أنهم تبع لهم وخفواؤهم يحموهم ويدبونهم المواسي، ولكل رئيس من الحدارب قوم من الزنافج في حملته فهم كالعييد يتوارثونهم".^(٣)

وبما أن الحدارية هم العنصر البارز بين البجة، ولطبيعة الحاكمة التي خضع لها معظم البجة، جعل من العرب النازحين إلى بلادهم التطلع إلى زيادة نفوذهم ومن المؤكد أن العرب حين نزحوا إلى بلادهم أدركوا النظام الاجتماعي القائم عندهم والمتمثل بحق الوراثية عن طريق الأم، فأسرع رؤساء العرب من التزوج من بنات رؤساء الحدارية، حتى ينال أبناء أولئك الرؤساء من العرب حقاً مشروعاً في السيطرة على قبائل البجة، حسبما يقتضيه هذا النظام الأموي^(٤).

وكانت أهم هذه الزيجات التي تمت بين العرب والحدارية هي تزوج رؤساء قبيلة ربيعة من بنات رؤساء الحدارية، ونتج عن ذلك أن ألفاً معاً حلفاً موحداً تحت زعامة ربيعة، وقوي كل من الطرفين بالآخر على أعدائه، وأصبح لكل منهم وزنه وثقله في المنطقة.^(٥)

ولعل أهم نتائج هذه المصاهرة هو إقبال الحدارية خاصة والبجة عامة على اعتناق الإسلام والتزود بالثقافة العربية ومن ذلك يقول المقرئ "حين كثر المسلمون في المعدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم، أسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب".^(٦)

وظل اسم الحدارب يتكرر عبر صفحات التاريخ حتى القرن التاسع الهجري، وبعدها لم نرى اسمهم في أي من النصوص التاريخية. والآن لم يبق من ذكرهم إلا منطقة تقع جنوب حلايب ما زالت تسمى إلى الآن رأس الحدارية^(٧).

أما عن عنصرهم فقد ارتبط باختفاء ظهور جماعة جديدة يقومون في نفس المناطق التي عاش بها الحدارب سابقاً، وتسمى هذه الجماعة الآن باسم البشاريون (البشارين)، ويرى الباحثين^(٨) أنهم أحد المجموعات الرئيسية لأسلاف البجة، في حين أن هؤلاء لبشارية يذهبون بأنفسهم إلى أصول عربية،

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٦.

(٢) المقرئ: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

(٣) المقرئ: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

(٤) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ٣٩.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ج ١ ص ١٨.

(٦) المواعظ والاعتبار: ج ١ ص ١٩٥.

(٧) عبد العظيم رمضان: الحدود المصرية السودانية ص ٢٣٦.

(٨) نعم شقير: تاريخ السودان ج ١ ص ٩٠ - محمد عوض: الشعوب والسلالات الإفريقية ص ٢٤٩.

ويزعمون أنهم من نسل كاهل^(١)، ويرجعون نسبه إلى الزبير بن العوام، ويقولون أيضاً أن أجدادهم كانوا يعيشون في جبل علبة الواقع على بعد عشرة أميال إلى الغرب من عيذاب، ويتفقون مع البشارين في ذلك الزعم الكواهنة الذين يعيشون الآن في السودان وخاصة كردفان، كما يتفقون مع البشارية في أن جدهم كاهل كان له ثلاثة عشر ولداً من الذكور، وأن أحدهم يدعى بشار، ويقول البشارين أن من هذا الاسم اشتق منه اسمهم المعروف الآن.^(٢)

ومن زعم البشارين (البجة) في انتسابهم إلى كاهل، الذي يتفق مع نسب الكواهنة (العرب) إلى أصولهم، اتخذ الدكتور محمد عوض من هذا الاتفاق الذي جمع بين شقين مختلفين عرب وبجة تصوراً وهو أنه من المرجح أن بعض أمراء العرب قد أصبح إلى بعض البجة، ثم ورث الإمارة والرئاسة فيهم، ومن الراجح أن أحد الذين أصبحوا إلى البجة على هذه الصورة كان فعلاً من ينتمي إلى بني كاهل وإلى أحد أبنائه المسمى بشار أو بشارة ومنه اشتق اسم البشارين.^(٣)

وبخلاف هذا التصور، هناك من تصوروا أن البشارية يرجع نسبهم إلى الرجل الذي يقال له بشر بن مروان بن إسحاق، الذي نزع إلى أرض البجة في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي، ويرجحون أنه صاهر البجة، ومن ذلك ظهر اسم البشارين انتساباً له، وهو اسم مزدوج ذو أصلين بجاوي وعربي.^(٤)

ويرى الدكتور مصطفى مسعد^(٥) أن هذين التصوران كليهما مقبول من وجه نظره رابطاً بينهما فيقول أنه ليس من المستبعد أن يكون أولئك البجة (البشارية) نسوا أصول نسبتهم البجاوية العربية القديمة إلى بشر بن مروان بمرور الزمن، ولم يحتفظوا إلا بصلتهم ببني كاهل. وربما كانت الوحدة البجاوية التي تولت إخضاع باقي الوحدات البجاوية الأخرى ولم تحتفظ بأصول النسبة البجاوية العربية القديمة لعدم تدوين تاريخها. ولذا كانت صلتهم ببني كاهل أقرب نسبياً، فإن صداها انتقل من جبل إلى جبل، وحفظها الخلف عن السلف، فاصطنعوا الانتساب لتأكيد.

وفي تصورنا أن البشارية لا ينتسبون إلى ذلك الرجل الذي يحمل اسم أبو مروان بشر بن إسحاق فنسبه البشاري - مفرد البشاريون أو البشارية - إلى بشر مصطنعة، فهي اللغة صحة النسبة إلى بشر هي البشري وليس البشاري، هذا من ناحية.

(١) كاهل هو كاهل بن أسد بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان - ويتفق مع رسول الله عليه الصلاة والسلام في خزيمه بن مدركة، فالكواهل عفانيون من عدنان الجد الأعلى لرسول الله عليه الصلاة والسلام (ابن حزم الأندلسي: جمهرة نساب العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٩٠).

(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٦٩.

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٧٠.

(٤) Trimingham, J. S.: Islam in Ethiopia, p8

- c/v: Crawford, G. S. "The stone Tombs of the N. e. Sudan, Kush, No. 2, 1954, p. 86

(٥) البجة والعرب ص ٥٢.

ومن ناحية أخرى فإن من بين شواهد القبور التي عثر عليها في جبانة أسوان، وجد شاهد يحمل اسم البشاري، نورد نصه كاملاً لأهميته: "بسم الله الرحمن الرحيم، إن أعظم مصائب أهل الإسلام مصيبتهم بالذبي محمد صلى الله عليه وسلم. هذا قبر أم سلمة ابنة محمد بن الحسن بن سليمان البشاري، توفيت في ٤٠٣ هـ — / ١٠١١ م".^(١) فإذا أخذنا في الاعتبار أن سليمان البشاري الذي يمثل الجد الأعلى لأم سلمة، ينتسب إلى قبائل البشارية، فإن الأمر يقتضي بنا لتسليم أن اسم البشارية سابق لأبي مروان بشر بن إسحق، وبعبارة أخرى، نستطيع القول أن سليمان البشاري كان حياً في منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

ويبدو أن الرأي الأقرب إلى الصواب هو ما تصوره الدكتور محمد عوض، وإن كان يحتاج إلى إلقاء بعض الضوء عليه، فكما نعلم أن قبيلة ربيعة باليمامة نزحت إلى مصر في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، نحت ضغط بني الأخيضر^(٢)، ثم سارت جنوباً إلى أسوان، ومن ثم إلى أوطان البجة بغية الحصول على معدن الذهب. ولا ريب أن قبائل أخرى دخلت أرض الممدن مع ربيعة، وليس بعيد أن قبيلة الكواهلة كان من بينها، خاصة إذا علمنا مدى صلة القرابة الوثيقة بين ربيعة وكاهل، فبني ربيعة من نسل حنيفة بن لجيم، وأم حنيفة هي صغية بنت كاهل بن أسد بن خزيمه.^(٣) ومن المحتمل أن من بين زعماء بني كاهل رجل يسمى بشار أو بشارة، شق طريقه إلى بلاد البجة، وهناك أسس إمارة هي التي ينتمي إليها قبائل البشارية. إذن فالثقة ليست بعيدة بين القبيلتين البجاوية (البشارية) والعربية (كاهل). ومما يؤيد ذلك الرأي ما ذكرناه من قبل أن سليمان البشاري كان حياً في منتصف القرن الثالث الهجري، وهي الفترة التي تتفق مع نزوح ربيعة وبعض القبائل الأخرى إلى أسوان، ثم بلاد البجة. ومما يجدر ذكره أن الرحالة ابن بطوطة^(٤) أثناء عودته من حجته الثانية عام (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) رأى قوماً من عرب الكواهلة في المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن، وذكر أنهم اختلطوا بالبجة وعرفوا لغتهم.

ومهما يكن من قول واختلاف الروايات في تفاصيل نسبتهم، فإن هذه الروايات جميعاً تكاد تتلقي حول ثلاث شخصيات بارزة كان لها الفضل في تأسيس قبيلة البشاريين، وهؤلاء هم بشار الجد الأول، ثم كوكا الجد الثاني، ثم عذقو الجد الثالث، وإلى هذا الأخير يرجع الفضل في تأسيس القبيلة بأقسامها لثلاثة التي نعرفها اليوم وهم بشاري أم علي، وأم ناجي، وهنار. وقد يسمون أنفسهم أحساناً باسم عنقوياباب.^(٥)

وجاء ارتباط قصة اختفاء عذصر الحدارب بظهور هذه الجماعة، هو حين أدى نضوب مناجم الذهب

(١) عبد الرحمن عبد الواب: شواهد القبور في جبانة أسوان، حفريات في ائمة من ديسمبر ١٩٦٠ _ منتصف ١٩٦٣ م (لم تشر).

(٢) بنو الأخيضر: هم ينتسبون إلى محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي نجح في أن يقيم دولة علوية عرفت باسم دولة بني الأخيضر، استقل بها عن الخلافة العباسية، وتم عزل بنو الأخيضر يقولون الملك باليمامة حتى طمع قرامطة البحرين في بسط سلطانهم على جزيرة العرب، فقتلوا علي اليمامة في أول القرن الرابع الهجري، وبذلك زالت دولة بني الأخيضر (محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧، ص ٥٥، ٥٦).

(٣) المقرئ: البيان والإعراب ص ١٦٣.

(٤) رحلته ج ١ ص ١٨٨.

(٥) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٧١.

والزمرد بالعلاقي، وتخريب ميثاء عيذاب، في حوالي القرن التاسع الهجري منتصف الخامس عشر الميلادي إلى ضعف شوكتهم واضمحلال نفوذهم؛^(١) فهاجر كثير منهم جنوباً إلى إقليم سواكن، ولم يبق منهم في إقليم العتابي سوى جماعات قليلة. وصادفت هذه التطورات، قيام البشارين واشتداد شوكتهم، بأن تولى زعامتهم سلسلة متتالية من المحاربين ذوي الكفاية والأطماع البعيدة، فأفضى تنازع البقاء إلى نشوب نزاع طويل بين البشارين وبين بقايا الحدارية، انتهى بطردهم أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، ومن بقي منهم اندمج في البشارين اندماجاً تاماً^(٢)، وبعدها لم نعد نسمع عن يسمون بالحدارب اليوم.

والمحفوظ أن ظهور مجموعات بجاوية حديثة مغايرة للمجموعات القديمة كاختفاء الحدارب وظهور البشارية هو أمر ارتبط ارتباطاً كثيراً بظاهرة مألوفة في الشعوب البدوية، فقد تبرز إحدى وحداتها الصغيرة في شكل أسرة يتصف بعض أفرادها بالشجاعة وقوة المراس، ثم لم تلبث هذه الأسرة أو قوادة الصغيرة أن تتغلب على بعض الوحدات الصغيرة الأخرى وتفرض سلطانها عليها ويذمج المظوب في الغالب ويعقد اللواء للوحدة التي استطاعت أن تفرض سلطانها وتوسع نفوذها على حساب غيرها^(٣).

ولم يتوقف البشارين عند هذا الحد، فقد استطاعوا أن يوسعوا نفوذهم إلى أبعد من هذا، ففي حوالي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي انتهز زعيمهم فرصة النزاع بين بعض قبائل البجة وبين عرب البطاحين، وغزا الأراضي الواقعة غربي نهر ترا وضمها إلى أملاك البشارين^(٤).

وفي الوقت الحالي يحتل البشاريون النصف الشمالي من أوطان البجة، متوغلين من جهة الشمال داخل مصر، وممتدين في الجنوب إلى سهل البطانة، في مساحة تقرب من ٥٠٠٠٠ ميل مربع، منها جهات تشرف على البحر الأحمر، ومنها ما يتصل بإقليم أسوان، وأخرى المعطبرة^(٥).

في هذه الأوطان المترامية الأطراف يعيش البشاريون، وهم ليسوا جميعاً متصلين بالنسب والقرابة، بل دخلتهم بعض العناصر غير البشارية واندمجت فيهم، ولا تزال آثار هذا الاندماج واضحة في أسماء بعض الجماعات الدخيلة، وذلك بسبب التوسع الحديث في القرون الثلاثة الماضية. وفيما عدا هذه الجماعات التي اندمجت في البشاريين ينقسم هؤلاء بوجه عام إلى قسمين: وهما: بشاريو أم علي، وبشاريو أم ناجي.

أما البشاريون المذتبسون إلى أم علي فيتمثلون على أربعة أقسام رئيسية، وهي العذيب والعمراب، وحمدوراب وشانظيراب، هؤلاء جميعاً في السودان، وهناك بعض فروع منهم في داخل حدود مصر، فللمساب حلة بجوار أسوان، وللحمدوراب جماعات أخرى بالقرب من دراو.

(١) Paul, a:op cit.p.76.

(٢) Paul, a:op cit.p.78.

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٧١.

(٤) Paul, a:op cit.p.96

- عرب البطاحين: يدعوا بنسبهم إلى قرش، ويقولون أن اسمهم مشتق من بطحاء مكة، ويرون أنهم هاجروا إلى مصر، ثم إلى غرب السودان، ولهم في كردفان آثار يعرفونها، وصلوا ينتجعون المراعي، فزوتوا بالنسبة الشرقية من تليل في المكان الواقع شرقي الجريدات اليوم إلى ما بعد شرقي الحلفاية شمالاً (المقريزي: البيان ص ١٦٦).

(٥) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٦٢.

فالعُباب يحتلون أعالي نهر العلاقي ومعظم المنحدرات التي تجري منها روافده، يذبحهم العمراب من جهة الجنوب في مساحة أصغر وأضيق. أما الحمودراب والشاذطيراب فيحتلون المنحدرات الشرقية، والسهول التي تليها على البحر الأحمر. (١)

أما البشاريون فمنتسبون إلى أم ناجي، فيحتلون جميع أقاليم العظيرة، والتمارب، والأجزاء الجنوبية والغربية من العذابي؛ ويمكن تقسيمهم إلى شعبتين: الشمالية في العذابي والتمارب وتشتمل على الإيراداب ويعيشون في الجاذب الغربي والمنصوراب في الشرق، والناقعاب، والعديلوباب، فيما بينهما، وفيما يليهما من الجنوب.

أما في الجنوب فيعيش القسم الآخر، بشاريو العظيرة، وهم حمدا، وإبراهيماب، وويلالاب، وبطران، وجاراب، ومشبولاب، ومدكر ... وهذه الثلاثة الأخيرة لا تعد بشارية بالمعنى الصحيح، ولكنها هي والعديلوباب، من القبائل التي اندمجت في البشاريين، وكانت بقايا لمجموعات أكبر.

وهذا القسم الجنوبي يطلق عليه أحياناً قسم العظيرة ولكنه يحتل إقليم العظيرة والنصف الجنوبي من إقليم تماراب. وإن كان الأمرار قد احتلوا جزءاً منه غرب مسمار، وعلى شواطئ النهر أيضاً.

وهناك جماعة من البشاريين: تسمى هنار، نتجت من اندماج بعض البشاريين والأمرار، وتعيش منعزلة على شاطئ البحر الأحمر حول دنجوناب والجبال التي تليها غرباً وهذه الجماعة تعد جزءاً من بشاريي أم ناجي، وإن بعدت مواطنها عن الأوطان الرئيسية لهم. (٢)

ورغم الأعداد الهائلة للبشاريين، تعد البشارية جمعياً قبيلة واحدة، فإن شواذتهم جميعاً تقع تحت عمدة واحد يعيش في بلدة "بعثوك" الواقعة على الجاذب الغربي لنهر العظيرة، وهذا هو الإقليم الوحيد في جميع الأقطار التي يسكنها البشاريون الذي نجد فيه قوى دائمة وحياة مستقرة في بعض الجهات. (٣)

وباقى البشارية يتنقلون بين شمال البلاد وجنوبها لأن عماد ثروتهم اعتمد على الإبل، وقطعان أخرى من الضأن والماعز، وأهم سلعة يتوجهون بها إلى الأسواق هي الجلود المدبوغة، ورغم أنهم يتركزون حول العظيرة وعلى ضفافه في أكثر من الأحيان إلا أن الزراعة عندهم قليلة الشأن. (٤)

وفي نهاية القول نذكر أن جميع قبائل البشارية تدين بالإسلام وتتحدث العربية إلى جانب لغتهم البدائية، والملحوظ بين قبائل البجة الحديثة والقديمة ليس اختفاء أسماء وظهور أسماء أخرى فحسب، بل هو ذهاب هذه القبائل الحديثة بأصولهم إلى الانتساب إلى عناصر عربية. ويمكن القول أن تلك أثر سلالي ناتج عن أثر ثقافي، وهو مما لا شك فيه أن الإسلام رفع من شأن ذلك النسبة ودعمها. وبذا طغى الإسلام والنسب

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٦٧.

(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٦٨.

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٨٥.

(٤) Salders, the Bisharin. Sudan notes and Records, vol, vii, 1929 p.145_146.

العربي الجديد على النسب الحامي القديم. وإذا كان يشك في صحة هذه النسبة العربية، فليس ثمة شك في تسرب نسبة كبيرة من الدماء العربية _ سواء شمالية أو جنوبية _ إلى الجماعات البجاوية، طوال العصر العربي^(١).

٢- الحجاب (الحباب):

قبائل الحجاب التي ذكرها اليعقوبي^(٢) هي ما تعرف الآن باسم الحباب^(٣) وهي إحدى القبائل البجاوية التي امتدت على سواحل البحر الأحمر شرق بلاد الحبشي عامر ويمتدون جنوباً إلى الإريتريا^(٤) لتغطي مساحات شاسعة من الأراضي الممتدة ما بين سواكن ومصوع من الشمال إلى الجنوب، وجبال البحر الأحمر في الشرق وخور عنصة في الغرب^(٥) وفي قلب هذه المنطقة بالذات تقع "هجر" العاصمة التاريخية للبحجة، وخاصة للجنس الذي يقال له نقيس، والحجاب أحد عناصره، وما تزال هناك منطقة أثرية تحمل هذا الاسم حتى تاريخ اليوم^(٦).

والحباب هي إحدى القبائل البجاوية التي تمتعت بالنفوذ والسطوة لمدة طويلة وامتد سلطانهم على امتداد سواحل البحر الأحمر خلال خمسة قرون، اعتباراً من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن العشرين الميلادي في الفترة من ١٤٧٠م حتى عام ١٩٤٨م، وذلك بحسبان أنها قد شملت عدداً كبيراً من القبائل التي عاشت مع بعضها، وتظاهرت فيما بينها واتحدت مصالحتها لتشكل كياناً متحداً عرف بالحجاب.

والنظام الاجتماعي عند الحباب: شأنه شأن الكثير من قبائل المنطقة، فكانت تتمتع بنظام طبقي خاص أشبه بذلك الذي كان سائداً في اليونان القديمة، فقد كانت هناك ثلاثة طبقات تدّفع كل واحدة منها بمهام محدودة لتكتمل في خاتمة المطاف مطلوبات الحياة باكتمال هذا الشكل مكوناً كيان الحباب، وقد كانت الطبقات على النحو التالي:

الطبقة الأولى: وكانت هذه الطبقة تتشكل من الحكام والمحاربين وقوام هذه الطبقة هم بين النظارة وإخوانه.

الطبقة الثانية: وتتكون من الرعاة والزراع، وهذه الطبقة كانت تضم عدداً كبيراً من القبائل المتفرقة الأصول، وكانت ذات أهمية قصوى في تدرج التنظيم الاجتماعي للحباب باعتبار أنها تعمل على سد ثغرة الأمن الغذائي لطبقة الحكام والأمراء.

الطبقة الثالثة: وهذه كانت تتكون من البيوت والعشائر العربية التي وصلت مؤخراً، وكانت تشرف على المناشط الدينية من الإمامة في الصلاة وعقود النكاح والدعاء بالذصر عند خوض المعارك وما شابه ذلك.

(١) Paul, a:op cit.p.79.

(٢) تاريخه ج ١ ص ١٩٢.

(٣) الشاطر بصيني: تاريخ وحضارات السودان ص ١٤٧.

(٤) صلاح القاب: تاريخ القبائل المصرية ص ٣٣٩ (عن بلاد الحبشي عامر _ أنظر فيما بعد).

(٥) محمد صالح ضرار: تاريخ قبائل الحباب والحماسيين بالسودان وإريتريا، ط ١، ١٩٨٤م ادار السودانية للكتاب، ص ٧٦.

(٦) الشاطر بصيني: معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ٢٣.

العربي الجديد على النسب الحامي القديم. وإذا كان يشك في صحة هذه النسبة العربية، فليس ثمة شك في تسرب نسبة كبيرة من الدماء العربية _ سواء شمالية أو جنوبية _ إلى الجماعات البجاوية، طوال العصر العربي^(١).

٢- الحجاب (الحباب):

قبائل الحجاب التي ذكرها اليعقوبي^(٢) هي ما تعرف الآن باسم الحباب^(٣) وهي إحدى القبائل البجاوية التي امتدت على سواحل البحر الأحمر شرق بلاد الحبشي عامر ويمتدون جنوباً إلى الإريتريا^(٤) لتغطي مساحات شاسعة من الأراضي الممتدة ما بين سواكن ومصوع من الشمال إلى الجنوب، وجبال البحر الأحمر في الشرق وخور عنصة في الغرب^(٥) وفي قلب هذه المنطقة بالذات تقع "هجر" العاصمة التاريخية للبحجة، وخاصة للجنس الذي يقال له نقيس، والحجاب أحد عناصره، وما تزال هناك منطقة أثرية تحمل هذا الاسم حتى تاريخ اليوم^(٦).

والحباب هي إحدى القبائل البجاوية التي تمتعت بالنفوذ والسطوة لمدة طويلة وامتد سلطانهم على امتداد سواحل البحر الأحمر خلال خمسة قرون، اعتباراً من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن العشرين الميلادي في الفترة من ١٤٧٠م حتى عام ١٩٤٨م، وذلك بحسبان أنها قد شملت عدداً كبيراً من القبائل التي عاشت مع بعضها، وتصاهرت فيما بينها واتحدت مصالحتها لتشكل كياناً متحداً عرف بالحجاب.

والنظام الاجتماعي عند الحباب: شأنه شأن الكثير من قبائل المنطقة، فكانت تتمتع بنظام طبقي خاص أشبه بذلك الذي كان سائداً في اليونان القديمة، فقد كانت هناك ثلاثة طبقات تتطلع كل واحدة منها بمهام محدودة لتكتمل في خاتمة المطاف مطلوبات الحياة باكتمال هذا الشكل مكوناً كيان الحباب، وقد كانت الطبقات على النحو التالي:

الطبقة الأولى: وكانت هذه الطبقة تتشكل من الحكام والمحاربين وقوام هذه الطبقة هم بين الانظار وإخوانه.

الطبقة الثانية: وتتكون من الرعاة والزراع، وهذه الطبقة كانت تضم عدداً كبيراً من القبائل المتفرقة الأصول، وكانت ذات أهمية قصوى في تدرج التنظيم الاجتماعي للحباب باعتبار أنها تعمل على سد ثغرة الأمن الغذائي لطبقة الحكام والأمراء.

الطبقة الثالثة: وهذه كانت تتكون من البيوت والعشائر العربية التي وصلت مؤخراً، وكانت تشرف على المناشط الدينية من الإمامة في الصلاة وعقود النكاح والدعاء بالنصر عند خوض المعارك وما شابه ذلك.

(١) Paul, a:op cit.p.79.

(٢) تاريخه ج ١ ص ١٩٢.

(٣) الشاطر بصيبي: تاريخ وحضارات السودان ص ١٤٧.

(٤) صلاح التايب: تاريخ القبل المصرية ص ٣٣٩ (عن بلاد الحبشي عامر _ أنظر فيما بعد).

(٥) محمد صالح ضرار: تاريخ قبائل الحباب والحماسيين بالسودان وإريتريا، ط ١، ١٩٨٤م دار السودانية للكتاب، ص ٧٦.

(٦) الشاطر بصيبي: معالم تاريخ السودان وادي القبل ص ٢٣.

ورغم التناقضات التي يطلقها البعض من أن هذا النظام كان نظاماً استعبادياً قهرياً إلا أن الدور الذي كان يلعبه أفراد القبائل المكونة لكل من الطبقتين الثانية والثالثة في شئون كيان الحباب في السلم والحرب جعلنا نقول بملء الفم أنهم كانوا شركاء لا أرقاء. (١)

٣ - العماعر (الأمرار):

والعماعر هي أحد القبائل البجاوية الصميمة، والتي تعرف الآن باسم قبيلة الأمرار (٢) وعلى الرغم من أنهم يمثلون عنصراً هامياً أصيلاً، إلا أنهم يزعمون الانسحاب إلى العرب - ولا سيما بني كاهل - فيزعمون أنهم يندحدرون من "نمر" أحد أبناء أو أحفاد كاهل. ويقال إنه كان لأمر ثلاثة إخوة: هم مرغم جد "المرغاب"، وكمال جد "الكمالاب"، وكميل جد "الكمالاب".

ولسنا نعرف عن والد أولئك الرجال الثلاثة شيئاً. وليس من المستبعد أن يكون هذا الرجل من إحدى القبائل العربية، واستطاع بمصاهرته إحدى الأسر البجاوية أن يؤسس هذه القبيلة البجاوية الهامة، حيث يقال أنه أنجب خمسة من الذكور منهم فضل ومحمد وشيب وهم أجداد قبائل "الفضلاب والمحمداب والشيباب"، وقبل أن شيب أنجب بنتان هما فاطمة التي تزوجت رجلاً يسمى محمد قل وكان مقره بسواكن، ومريم التي تزوجت رجل من عظماء الفنج في سواكن، فأنجبت منه ولداً سمي عثمان. وأن عثمان هذا تزوج امرأة من الأمرار، وأنجب منها أربعة أولاد: علي، ونور، وقرب، وجويلاي وهم أجداد قبائل "العلياب والنوراب والقرباب والجويلاي". (٣)

ورغم انقسام الأمرار إلى الفضلاب وإخوانهم، والعثمان وفروعهم الأربعة، إلا أنه في الاصطلاح العام يطلق هذا الاسم على القبيلة كلها، وعلى أقسامها المختلفة، وهذا هو الاصطلاح الذي اتفق عليه الكتاب، والذي يجري به اللسان عند الكلام عليهم، في الأوساط العربية ولمصالح الحكومية، ولكن القبيلة نفسها، بل وبعض جيرانهم من البجة، يقصرون اللفظ الأمرار على شعبة واحدة من القبيلة، وهي الشعبة المسماة الفضلاب، أما سائر القبيلة فيطلقون اسم "عثمان". (٤)

وفي الوقت الحالي يحتل الأمرار مساحة من الأرض تبلغ ٨٠٠٠ ميل مربع، وهي تتركز من الناحية الشرقية على البحر الأحمر، ابتداء من خط العرض ٢١ في الشمال إلى قرب بور سودان في الجنوب. وليست بور سودان داخلة في أوطانهم، وإن كان فيها عدد غير قليل منهم، والحد الغربي لبلادهم يمتد محاذياً لوادي دذيب، ويحتلون الجزء الأعلى منه. وفي الأطراف الغربية من بلادهم توسعوا جنوباً في الأزمنة الحديثة حتى احتلوا الأراضي الواقعة غرب بددة مسمار وجنوبها الغربي. ولكن هذا التوسع نحو الجنوب اتخذ صورة

(١) محمد صالح ضرار: تاريخ قبائل الحباب والحماسيين بالسودان وإريتريا. ص ١١٧.

(٢) الشاطر بصولي: تاريخ وحضارات السودان ص ١٤٧.

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٩٨: ٩٩.

(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٩٠.

لسان ضيق، يمتد من خط عرض ١٩ درجة جنوباً إلى ١٨ درجة، وفيما عدا ذلك نرى أن معظم أوطان الأمرار واقعة شمال خط عرض ١٩ وجنوب خط عرض ٢١ وهي أطول من الشمال إلى الجنوب، وعرضها من الحدود الشرقية يتراوح بين ٧٠ و ٨٠٩ ميلاً. (١)

ومركزهم يوجد في منطقة أرياب تمت قيادة زعماء من فرع الجويلي (٢) وفيما بعد انقل هذا المركز إلى مسمار بناء على رغبة الحكومة حتى تكون نقطة التقاء بين الأمرار والقبائل البجاوية الأخرى (٣). وأهم ما يمتاز به الأمرار اليوم أن لهجتهم التي يتحدثون بها هي أنقى اللهجات في اللغة البداوية. وجميع البجة يقررون لهم بالفضل في سلامة لسانهم، وتفوقهم في هذا الجمع. ومن المقرر أن نسبة الأشخاص الذين لا يعرفون العربية، ولا يتكلمون لغة سوى البداوية، وهي أعلا عند الأمرار منها عند أي قبيلة أخرى من البجة. وبعبارة أخرى إن الجهل بالعربية أكثر ذيوفاً وانتشاراً بين الأمرار منه في أي جماعة أخرى من البجة. ومعنى هذا أن النفوذ الثقافي العربي لم يتغلغل في ديار الأمرار وإن كانت الديانة الإسلامية قد استطاعت أن تبسط سلطانها على الجميع. (٤)

أما عماد ثروتهم فشأنه كسائر قبائل البجة، فيمكون قطعان كبيرة من الماعز وهي من الأنوع الجيد وكبير الحجم، ويدربون أيضاً أحسن أنواع الإبل الجبلية، وهي سلالة صغيرة الحجم نوعاً ما، خفيفة، بطيئة، وطبيعة بلادهم هي التي فرضت عليهم اقتناء هذا النوع من الإبل، حتى تستطيع أن تسلك بهم أوعر المسالك الجبلية وأشدّها انداراً، كما يملكون أيضاً قطعان من الأضأن وهي أنواعاً جيدة أيضاً. وليس في بلادهم أرض صالحة للزراعة، ويحصلون على حاجتهم من الحبوب من خارج موطنهم. (٥)

وفي نهاية القول عن الأمرار نذكر أنهم أحد الفروع لكبرى للبجة اليوم، رغم انتسابهم في أصولهم للعرب (٦) وشأنهم في ذلك شأن غيرهم من البجة كالبشارين والحباب.

٤ - كوير:

هي أحد قبائل هذه المنطقة لشمالية، ولم يذكر عنها أي معلومات، وذلك منذ أن ذكرها اليعقوبي ضمن قبائل هذه المنطقة في منتصف القرن الثالث الهجري (٧) وينطبق هذا القول على قبائل رسفة، وعرييرة. ومن الراجع أن هذه القبائل كانت وحدات صغيرة العدد وقبيلة الشأن، وما أن لبثت فترة من الزمن حتى تغلبت عليها وحدات أكبر فرضت عليها سلطانها، وبالتالي اندمجت فيها هذه الوحدات الصغرى ولم يعد

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٩١.

(٢) صلاح الدين: تاريخ القبائل المصرية ص ٣٣٩.

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٠٠.

(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٩٧.

(٥) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٠٠.

(٦) نعوم شقير: تاريخ السودان ج ١ ص ٩٠.

(٧) تاريخه ج ١ ص ١٩٢.

لها ذكر، وبالتالي لم يعقد إلا لهذه الوحدات التي استطاعت أن تفرض سلطانها وتبسط نفوذها على حساب غيرها. والملاحظ من ظهور مجموعات واختفاء أخرى في هذه الشعوب البدوية هي ظاهرة مألوفة لديهم^(١). وهذا القول ينطبق أيضاً على قبائل بيواتيكة التي ذكرها ابن حوقل^(٢) فعلى الرغم من أنه ذكرهم ضمن قبائل البجة الشمالية، وأنهم أكثر البجة عدداً في أعماق الصحاري، إلا أنها لم يكن لها ذكر ضمن القبائل الشمالية التي ذكرها اليعقوبي - وخاصة أن عددهم الكبير لا يغفل عن الذكر - وكذلك القبائل التي ذكرها اليعقوبي لم يكن لها ذكر عند ابن حوقل، رغم أن الفترة بينهم لا تتعدى قرن من الزمن، وهذا القول يؤكد ما ذكرناه عن الظاهرة المألوفة لدى هذه الشعوب البدوية من ظهور مجموعات واختفاء أخرى.

أما مناسبة: فما زالت موجودة حتى الآن في إريتريا، وتعرف هناك باسم (منسة) أو (منسع)، إلا أن أعدادها ليست كبيرة، وهي توجد في محافظة كرن وما حولها، وكرن هذه تقع شمال غرب العاصمة الإريترية أسمرة، وهم يدينون جميعاً بالإسلام^(٣).

٥ - الزنافج "الزنافجة":

وهم أكثر البجة عدداً، ولكن أقلهم قيمة، فهم يمثلون طبقة العبيد ويقومون بالأعمال الخدمية وخاصة للحدارب، وكانوا قديماً يمثلون الطبقة العليا في البناء الاجتماعي للبجة، ولكن في عهد دخول العرب بلادهم كانت الحداربة هم الطبقة البارزة وكان هؤلاء خدماً لهم^(٤).

وكان يقم هؤلاء الزنافج في قرى بدوية بمنطقة تغلين في دلتا الجاش ويقومون بأعمال الرعي في وقت المطر^(٥)، وتغلين هذه تبعد عن وادي العلاقي مسافة خمس وعشرين مرحلة، وكانت تمثل أحد نقاط التجارة الهامة في بلاد البجة وكانت دائمة الصلة بتجارة مكة وغيرها^(٦).

وتوقف اسمهم من الذكر في كتابات العرب منذ منتصف القرن الرابع الهجري، وهذا الأمر هو نتيجة حتمية لطبقة دنيا في أي مجتمع كان. ورغم تلاشي ذكرهم إلا أنه من المحتمل ظلت بعض أسماء بطونهم تذكر مثل بطون برقابات وحديبا، فمن المرجح أن هذه البطون من بقايا الزنافج لأن ذكرهم جاء بصورة عرضية بجانب الحدارب يقدمون أعمال الخفارة لهم^(٧) وهذا هو العمل الذي كان يقوم به الزنافج سابقاً، ونتيجة لاندحاطهم الطبقي تلاشي عدسهم وظلت بعض أسماء بطونهم حتى قابلت نفس المصير في النهاية.

• • •

وثاني هذه التجمعات القبلية كانت في منطقة الجنوب الشرقية التي تقع ما بين البحر الأحمر في الشرق

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٧٢.

(٢) صورة الأرض ص ٥٥.

(٣) الشاطر بصري: تاريخ حضرات السودان ص ١٤٧.

(٤) المقرئ: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٧.

(٦) اليعقوبي: البلدان ص ٣٣٦.

(٧) صورة الأرض ص ٥٥.

وخور بركة في الغرب، وقد استقرت بهذه المنطقة قبائل الجاسة وبارية ويطون قعصة وبرقابات وحنديبا وكديم^(١).

١ - الجاسة (الخالسة):

وقبائل الجاسة التي ذكرها ابن حوقل بأنها توجد على ساحل البحر في سهوله وأوديته^(٢) هي ما تعرف الآن باسم الخالسة^(٣).

وقد ذكرهم المقرئزي بأنهم يقيمون بميناء سواكن^(٤) وأضاف الدمشقي بأنهم كانوا ينقسمون إلى الخالسة العليا وهم مسلمون والخالسة السفلى وهم كفار^(٥). والآن يدن جميعهم بالإسلام إلا أنهم طائفة صغيرة من قبيلة البني عامر، وهم محدقرون ومن أمثال أهل السودان (البجة الخاس أرخص الناس)^(٦) ويعيشون الآن بالقرب من حدود الحبشة حول طوكر^(٧).

وقبيلة البني عامر المنتمية إليها طائفة الخالسة الآن هي أحد أفرع البجة الرئيسية اليوم^(٨) وتمتد بلادهم لتشمل جميع منطقة الجنوب الشرقية من بلاد البجة، وهي آخر بلادهم ومساحتها موزعة ما بين السودان وإريتريا مع الفارق في المساحة؛ لأن المساحة التي يحتلونها في السودان محدودة لا تزيد على خمسة آلاف ميل مربع، في صورة مثلث، أحد أضلاعه ساحل البحر الأحمر، من حدود إريتريا في اتجاه شمالي إلى جنوب سواكن بنحو ١٠ كم، والضلع الثاني خط يمتد من ساحل البحر الأحمر، في اتجاه شمالي جنوبي مخرقاً سلسلة جبال أدار ياباب إلى أن يلتقي بحدود إريتريا، والضلع الثالث هو الخط المتعرج الذي يمثل الحدود الإريترية السودانية في هذا الإقليم، أما مساحة بلادهم في الإريترية فتبلغ الضعف أو أكثر من مساحتهم في السودان وهي تقريباً تتركز حول وادي بركة وروافده، وهو الإقليم الذي يطلق عليه اسم (أعوردات)^(٩) وعلى الرغم من أن البني عامر من سلالة البجة القدماء الذين احتفظوا بكثير من الخصائص لاهمية، ووجد بينهم العالم سلجان خير أمثلة على لبجة النقيين، الذين يشبهون القدماء المصريين أقرب المشابهة^(١٠) إلا أنهم كغيرهم من قبائل البجة الأخرى يقفون بنسبهم عند أصول عربية، وتذكر رواياتهم أنهم ينسبون إلى رجل يدعى عامر من بني كاهل. وليس في هذه النسبة ما يدعو إلى نفيها أو استبعادها ولأن ذلك الإقليم الذي يحتله البنو عامر اليوم، كان مجالاً لنشاط عربي قديم لا ينكر^(١١).

(١) صورة الأرض ص ٥٠.

(٢) صورة الأرض ص ٥٥.

(٣) الشاطر بصوتي: تاريخ و حضارات السودان ص ١٥٥.

(٤) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٧٩.

(٥) نخبة الدهر ص ٢٦٩.

(٦) نعوم شقير: تاريخ السودان ج ١ ص ٩٠.

(٧) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٣٥.

(٨) نعوم شقير: تاريخ السودان ج ١ ص ٩٠.

(٩) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٢٥ : ١٢٦.

(١٠) Seligman: a:op cit p. (١٠)

(١١) المقرئزي: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩

والدليل على النشاط العربي في أوطان البني عامر، هو قيام مينا باضع بأوطانهم، وهو المينا الذي ظل مركزاً من مراكز النشاط العربي التجاري مدة خمسة قرون على الأقل^(١).

وهنا يواجهنا التناقض في القول: كيف لا نستبعد نسبتهم للعرب في حين أنهم يمثلون العنصر البجاوي

الحامي النقي؟

ويكون الفصل في هذا القول أن اختلاط العناصر العربية اقصر، فيما يبدو، على الطبقة الارستقراطية الحاكمة من أسلاف البني عامر، ولم يتناول عامتهم، وإذا حافظ هؤلاء على صفاء جوهرهم الحامي، وإن كانوا تأثروا بالموثرات العربية، ثقافية كانت أو اجتماعية^(٢).

لذلك نجد أن البني عامر ساد بينهم نظام طبقي صارم، فالعشائر والبطون المختلفة تتألف كل منها من طبقتين: الأولى الطبقة الارستقراطية الحاكمة، والثانية طبقة الموالي أو العبيد، وقد يبدو أن ثمة قيوداً كانت تحول دون اختلاط هاتين الطبقتين عن طريق الزواج، ومن ثم ظلتا طبقتين منفصلتين تماماً^(٣) وبما أنه انفرد البني عامر دون سائر البجة بالنظام الطبقي الإقطاعي يدعونا إلى التساؤل. ما هو مصدر هذا النظام الطبقي الصارم الذي ما زال يتبع حتى الآن؟

ويجيب د/ محمد عوض^(٤) عن هذا التساؤل مفترضاً أن غزواً منظماً قد حدث بواسطة جماعة بجاوية متماسكة، فرضت سلطانها على جماعة أخرى كانت تحتل هذا الإقليم من قبل، ويبدو أن هذه الجماعة تمتعت بشخصية مستقلة، وتأثرت بنظام خاص من المرجح مصدره الجزيرة العربية. ثم أخذت هذه الجماعة المعززة بوحدة وكيانها الخاص تغزو الأقطار التي تجاورها، حتى أسست دولة احتلت سواحل البحر الأحمر من جنوب مصوع إلى شمال سواكن، وامتدت في الداخل إلى المجرى الأوسط لخور الجاش؛ أي أنها احتلت مساحة تزيد كثيراً عن التي تحتلها البني عامر اليوم.

وكانت تسمى هذه الجماعة باسم (البلو)^(٥) وقد تمتعت بطبقتها الارستقراطية ونظامها الإقطاعي،

(١) انظر ما سبق عن مينا باضع..

(٢) مصطفى مسعد البجة والعرب ص ٥٧.

(٣) Paul, a:op cit p. 84:87 (٣)

(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٣٣.

(٥) (البلو): يذكر كراو فورد (Craw Ford) في كتابه: (The Fung Kingdom Of Semar. Glouse. Cter 1951)

ص ١١٠، أن أول إشارة وردت عن اسم البلو كانت على لسان قسيس برتغالي يسمى (ألفارز)، الذي زار الحبشة في ائمة من

١٥٢٠ إلى ١٥٢٧م، وقال عنهم: "أن جماعة من العرب تدعى (Balbos) البلو، يسكنون على حدود الحبشة، ويجاورهم من الشمال التوبيين، وهم على علاقة طيبة بملك الحبشة ويدعون إليه إناوة من الخيول".

ويرجح الدكتور مصطفى مسعد (البجة والعرب) ص ١٠، أن أولئك البلو من بقايا اثنين أشار إليهم الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق) المجلد الأول ص ٤٧ والذي قال عنهم "بأنهم قوم رحالة بين التوبة وأرض البجة، ولهم صرامة وعزم، وكل من حولهم من الأمم يهانونهم ويخافون ضرهم، وهم نصارى خولج على مذهب البعقونية". وقد أشار ابن الوردي أيضاً إلى نفس هذا القول في كتابه (خريدة العجذب) ص ٤٩. ومن ذلك القول يرى مسعد أن أولئك البليين انتكفوا في القرن الخامس عشر إلى الجنوب بعد أن اضمحل نفوذهم في الشمال، وأقاموا فيما هو معروف اليوم بأوطان البني عامر، ممثلة عرفت وقتذاك بـ"مملكة البلو" واشتهر أولئك البلو دون سواهم ممن جاورهم من البجة والحبشة باستخدام الخيول وبراعتهم في تربيتها. أما الدكتور محمد عوض فحسب غرار مسعد يرى أن هؤلاء البلو قبيلة بجاوية الأصل، مستتباً ذلك من مناقشته لقول القسيس البرتغالي. ومضيفاً من قول هذا البرتغالي القليل "بأن دولة البلو كدت قديماً تسمى -

وبينها لحاكم وملكها الوراثي، ولا شك أن القبائل المتفرقة والخاضعة لها كانت تتمتع بكثير من الاستقلال في ذلك الزمن كما هي اليوم، ولكنها كانت على الأرجح تدفع إتاوات للبيت الحاكم، وربما أدت له خدمة أخرى^(١) ومن هنا بدأ هذا النظام الطبقي الذي عم جميع عشائر وبطون البني عامر اليوم، ليكون طبقتان أحدهما الحاكم والأخرى المحكوم. ولكن رغم عدم استمرار نفوذ البدو وتوقف سيادتهم على قبائل البجة منذ القرن السابع عشر الميلادي، إلا أن هذا النظام الطبقي ظل قائماً إلى اليوم. فما السبب في استمرار ذلك النظام؟

تشير كتابات العلماء والباحثين^(٢) إلى أن دولة البدو بنظائرها الطبقي والإقطاعي وملكها الوراثي عاشت ما يقرب من ثلاثة قرون، من القرن الخامس عشر إلى السابع عشر الميلادي. غير أن بوادر الاضمحلال والتدهور أخذت تدب في أوصالها منذ القرن السادس عشر الميلادي. فقد أدى احتلال الأتراك العثمانيين لسواكن سنة ١٥٢٠م إلى الضغط على مملكة البدو الإسلامية من ناحية الشرق، ومشاطرتها في جباية رسوم السفن المارة بسواكن، فضلاً عن مشاركتها في الإتاوات المفروضة على القوافل الصاعدة إليها والمنحدرة منها إلى داخلية البلاد، أما في الغرب فقد ظهرت قوة الفونج^(٣) وحلفائهم العبد اللاب^(٤) وهؤلاء

- نجران". مقترضاً من ذلك أن قبيلة أو بيتاً من نجران (عسير الآن شمال اليمن) نزحت بين قبيلة البدو البجاوية، وقامت بنشر الإسلام فيهم ذلك سميت في أول الأمر بدولة نجران، وبعده فترة عاد اسم الشعب الأصلي بعد ذلك ليصبح اسمها دولة البدو، لذلك يرجح أن البدو جماعة بجاوية تسربت إليها مؤثرات عربية، وبسطت نفوذها على جماعات أخرى بجاوية تكاثفتها بعض الدماء الأجنبية (السودان الشمالي ص ١٣٢ - ١٣٣).

(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٣٥.

(٣) Paul, a:op cit.p. 84:87 (٣)

(٤) الفونج: وهم الذين أسسوا أول سلطنة إسلامية واسعة النفوذ في السودان، وحكموا أكثر من ثلاثمائة سنة، منذ أول القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). وهؤلاء الفونج ينسبون إلى بني أمية. ومسألة موطنهم السابق الذي خرجوا منه إلى قلب السودان حيث أسسوا عاصمتهم سنار (شمال سنار الجديدة بنحو ثلاثة أميال)، وهي مسار خلاف واسع بين الباحثين، ففريق يرى أنهم جاءوا من الحبشة، وفريق يرى أنهم من منطقة بحيرة شاد حيث التلم ويرنو، وآخرون يرون أن لهم أصلاً زنجياً. والرأي الأخير ثم بعد ذلك ما يؤيده في الوقت الحاضر. أما عن الرأيين السابقين، فلا ينبغي أن يؤيد أحدهما إلى الخلف بين الموطن والأصل العربي، وسواء أكان موطنهم السابق بلاد الحبشة أم بلاد البرنو، فهذا لا يمنع من أن يكونوا ذوي صلة بأعقاب بني أمية الذين استوطنوا هذه الجهة أو تلك لأن هذه المنطقة شهدت هجرات أعداد من بني أمية. (المقريزي: البيان والإعراب ص ١٦١).

ويرجع الفضل في استيلاء الفونج على السفلة وقيام دولتهم إلى زعيمهم المسمى (عمارة دنقس) وهو الذي الذي تحالف مع قبيلة العبدلاب ضد مملكة علوة المسيحية في سوبا حتى أسقطها، وبذلك حذت محلها مملكة إسلامية هي مملكة الفونج وعاصمتها سنار، وامتدت هذه المملكة في أوج قوتها من كسلا إلى جبال التوبة. (السودان الغرض الطبيعي ص ١٦٢).

(٥) العبدلاب: وهم قبيلة من شعبة القويمدة من قبيلة رفاعة بالسودان، وهم في الحقيقة أسرة عظيمة كبيرة العدد والخطر، وتركز اليوم حول حلفاية الامنوك والخرطوم بحري، ومنها جماعات موزعة على ضفاف النيل الأزرق ما بين رفاعة والخرطوم، حيث يمارسون الزراعة ولهم قطعان صغيرة من الماشية والنعمة.

ويرجع الفضل في تأسيس هذه القبيلة إلى رجل يدعى (عبد الله جماع) وهو الذي ساعد (عمارة دنقس) زعيم الفونج على القضاء على مملكة سوبا التوبية، وتأسيس مملكة سنار. وكان أصله من (كرى) وهي شرق خلق سبتوقة شمال الجندل السادس بالنيق السوبي، وظلت قرى عاصمة لهم فترة من الزمن، ثم انتقل مقرهم بعد ذلك إلى حلفاية الامنوك، وكانت هذه الأسرة تتوارث الحكم في أثناء مملكة سنار على الإقليم الشمالي تقاسم الفونج في سلطنة هذه المملكة. (محمد عوض: السودان الشمالي ص ٢١٨).

حاولوا مد نفوذهم شرقاً على قبائل البجة، لكن محاولاتهم في هذا الاتجاه لم يقدّر لها النجاح تماماً، بسبب المقاومة العديدة من جاذب البشارين وغيرهم من البجة. لكن استمرار ضغطهم على مملكة البلو أدى إلى انتزاع بعض أقاليمها، وإن لم يؤد إلى زوالها.

غير أن تحولاً خطيراً قد حدث لهذه الدولة في أوائل القرن السابع عشر. فقد زال اسم البلو الذي عرفت به الدولة، وادّعت الطبقة الارستقراطية الحاكمة من البلو، وحل محلها طبقة ارستقراطية حاكمة جديدة تعرف باسم الذبتاب، ويلاحظ أن تلك الطبقة الارستقراطية الحاكمة الجديدة ورثت عن البلو نظامهم الطبقي المعروف، وليس من المعروف تماماً كيف حدث هذا الانقلاب المفجائي. (١)

غير أن لم يرد عن هذا الحادث الخطير سوى رواية تكاد تشبه الأساطير، يرويها بنو عامر إلى وقتنا هذا، وهذه الرواية - على علاقتها - تحدثنا أن فقيهاً عائماً ورعاً من قبيلة الجعليين، وفد من النيل الأبيض ونزل في ديار بني عامر، وكان يدعى علي أبو القاسم، وما لبث فترة حتى ألّف حوله خلق كثير، وأصبح يتمتع بنفوذ كبير بين أدبائه وأنصاره؛ بل في البلاط الحاكم للبلو نفسه. ومن ثم تزوج هذا الفقيه الورع بابنة ملك البلو، بيد أن هذه الزيجة لم يرض عنها فريق من البلو، وأغار هذا الفريق الساخط على هذه الزيجة على الفقيه فقتلوه، ولادّت الزوجة بالفرار. ثم تجري بعد ذلك القصة في مجراها المألوف، فإن هذه الأميرة البذوية ما لبثت أن تلد فتى يفوق الفتيان بأساً وعزماً أسمته عامراً، فلا يذبح أن يبلغ أشده حتى يعرف ما حل بأبيه، فيبادر إلى طلب الثأر، واستعان بأقاربه من الجعليين على حرب البلو، وما زال يحاربهم حتى أوقع بهم هزيمة ساحقة بالقرب من عقيق. وينتهي به الأمر إلى تأسيس طبقة حاكمة جديدة عرفت باسم (الذبتاب) نسبة إلى أبيه الذي كان يلقب نفسه بأنه نبت من الأرض. وغدت الدولة كلها تعرف باسم دولة بني عامر نسبة إلى عامر بن أبي القاسم لتحل محل دولة البلو، وتصبح لها السيادة والزعامة في جميع قبائل بني عامر وشعبها في إريتريا والسودان. (٢)

وكيفما كانت الوسائل التي وصل بها الذبتاب إلى الحكم، فالمعروف أن النظام الطبقي الإقطاعي القديم ظل قائماً، وكل ما حدث هو تغيير اسم الطبقة الحاكمة، وهي الطبقة المعترف لها بالسيادة والحكم بين جميع بني عامر. أما الرئيس الأعلى المعترف له بالزعامة على جميع هذه القبائل فقد عرف باسم الدقلال، أما بقية الشعب وكلهم من البجة أهل البلاد الأصليين، فإنهم ظلوا طبقة الموائى الخاضعين لسيادة الذبتاب. (٣)

ومما سبق نستنتج أن أوطان البني عامر كانت مسرحاً لنشاط الجماعات العربية في شتى المجالات سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، وإذا كان العرب الذين وفدوا إلى هذه الأوطان واختلطوا بالبجة وتزوجوا مذهبهم وتعلموا لغتهم. فإن هذا الاختلاط فيما يبدو اقتصر في الغالب على الأسر الحاكمة. وذلك لارتفاع

(١) مصطفى مسعد البجة والعرب ص ١٣٨.

(٢) - c.f: Crawford, a.g.s "The ston Tombs of the N. e. sudan, kush, No. p. ١١٢

(٣) Paul, a: op cit p. 84:87

بنظام وراثته الأم عند البجة والسيطرة عليهم، ومن ثم يمكن القول أن نفور البجة من كل غريب يظاً بلادهم، وصعوبة بلادهم وبيدتهم لم تساعد على اختلاط أوسع بين العنصرين لذلك مثل البنو عامر خير دليل على أسلاف البجة النقيين.

وإذا وقفنا بقولنا السابق على نقاء هؤلاء البجة - بنو عامر - وصفاء عنصرهم، لا نعني بهذا القول أنهم لم يتأثروا بمؤثرات خارجية عربية لأن موقع بلادهم المقابل لبلاد العرب من جهة الشرق الساحلية وهضبة الحبشة من جهة الجنوب الحدودية، كان لابد أن يترك أثره في ثقافتهم وتقاليدهم. ولا سيما أن الهضبة الحبشية كانت هي أيضاً عرضة لمؤثرات عربية في المقام الأول من جزيرة العرب وإقليم اليمن. لذلك كان لابد للثقافة العربية أن تترك آثارها في هذه البلاد، ونذكر آثار الثقافة العربية في هذه البلاد الآن تحدث أكثرهم بلغة (تجرة) وهي ما تسمى أحياناً بلغة الخاسة، وهي خليط من الحامية (التبداوية) والسامية (التجريدية) وهذه التجريدية مشتقة من لغة (لجيز) وهي لغة حميرية يمنية من أقدم اللغات السامية التي دخلت هضبة الحبشة، والواضح أن هذه اللغة الوليدة نقلت في البداية من عرب اليمن إلى هضبة الحبشة، ثم انتقلت عن طريق الهجرات الجماعية نحو الشمال في لتنتشر في وادي بركة وروافده حتى وصلت إلى إقليم طوكر وسواكن. وأثر آخر لا يمكن إغفاله من مؤثرات الثقافة العربية في هذه البلاد وهو اعتناق الإسلام فثنين هذه الشعبة جميعاً بالدين الإسلامي. (١)

أما حالهم في أسلوب المعيشة فلا يختلف عن حال سائر القبائل البجاوية، فلا تزال حرفة الرعي هي الحرفة السائدة بينهم، ولهم انتقالات موسمية في طوب الكلاً. وعلى الرغم من أن أوطانهم الرئيسية متجمعة حول خور بركة وروافده، إلا أن ممارسة الزراعة عندهم محدودة واقتصرت على منطقة كسلا. (٢)

٢- بارية (جارين):

قبيلة بارية التي ذكرها ابن حوقل (٣) هي أحد القبائل التي قامت في هذه المنطقة لاجنوبية، والتي كانت تقيم ما بين ميناء باضع وخور بركة، وكانت توصف بأنها من القبائل المحاربة والمزارعة. وقد اتفق اليعقوبي (٤) في هذا الوصف على ما سماه بمملكة (جارين).

ورغم تطابق الوصفان في الموطن والعادات بين بارية وجارين؛ والراجح أن أحد هذين الاسمين كُتب بصورة خاطئة، ويبدو أن هذا مرجعه النقل الخاطئ لبعض الحروف. وخاصة أن اللفظان متشابهان في الرسم الكتابي. ومهما يكن من قول حول اتفاق أو اختلاف لهاتين القبيلتين فإنهما الآن غير موجودتين، ولكن الذي لا يمكن إخفاءه من قول هو الوصف المشابه لهما بأنهما كانتا ذات نشاط حربي، وهذا يؤكد أن منطقة بنو عامر كانت مسرحاً للنشاط السياسي منذ العصور الوسطى وهذا يمثل قاعدة لنشاط سياسي ظل يتكرر حتى العصور الحديثة.

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٢٨، ١٣٥.

(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٤٠.

(٣) صورة الأرض: ص ٥٥.

(٤) تاريخه ج ١ ص ١٩٢.

وينطبق هذا القول أيضاً بصورة كاملة على قبيلة قصعة لذي نكرها ابن حوقل^(١) ومملكة (قطمة) التي ذكرها اليعقوبي^(٢).

أما بطون برقابات وحديبا التي ذكرها ابن حوقل^(٣) بأنها تقيم في هذه المنطقة، فقد ذكرنا سابقاً أنهم مثلاً عنصراً من بقايا الزناج خاصة وأنهم كانوا يقومون بالأعمال الخدمية للحدارب.

وبطون كدبم التي عرفت (ببعجات) هي أيضاً من البطون التي قامت في هذه المنطقة، وجاورت قبائل الخاسنة من الشرق وكان في غربها خور بركة^(٤) ولم ترد عنها معنومات أكثر من هذا في أي من المؤلفات التاريخية.

وفي نهاية القول عن هذه المنطقة لا نرى قبيلة أو بطن ظل محتفظاً باسمه القديم غير الخاسنة، وكل القبائل والبطون الأخرى اختفت لتسمى الآن بنو عامر. ولكن النظرة الدقيقة لشعبة الخاسنة توضح لنا أن القبائل والبطون المندثرة صبغت نفسها بصبغة العرب وذهبوا بأصولهم وعنصرهم للعرب، لذلك تركوا أسمائهم البدائية لتحل محلها أسماء عربية، وهذا يوضح لنا مدى تأثير قبائل بنو عامر بالمؤثرات الثقافية والاجتماعية العربية منذ بداية انتقال العرب إلى بلادهم.



وثالث هذه التجمعات القبلية كانت في منطقة الجنوب الغربية من بلاد البجة، وهي التي تقع ما بين خور بركة في الجنوب وجبل مسمار في الشمال^(٥)، وبتنا خور بركة في الشرق وبتنا خور الجاش في الغرب^(٦)، وقد استقرت بهذه المنطقة قبائل بازين والماتين وذهر وسكراب وغركاي وحدثت^(٧).

١ - بازين:

هي أحد القبائل التي قامت في هذه المنطقة لوسطى ببلاد البجة، وكانت تقيم تحديداً جنوب بتنا الجاش، وشرق مملكة علوة النوبية^(٨) وتجري مياه خور بركة بأرضهم^(٩).

والملاحظ في منطقة بازين أنها مثلت منطقة زراعية في المقام الأول وهذا بخلاف باقي أوطان البجة، أضف إلى ذلك أنهم كانوا جيراناً لعنصر احترف الزراعة منذ القدم ألا وهم النوبة. وكان لذلك أثره في أسلوب معيشتهم ونمط حياتهم، فهم من القبائل المستقرة لأن حرفة الزراعة تتطلب الإقامة الدائمة وهذا بخلاف الرعي، لذلك نجد أن منازلهم كانت تقام في شكل أخصاص كالقري، كما أدت هذه الحرفة أيضاً في اقتناء

(١) صورة الأرض ص ٥٥.

(٢) تاريخه ج ١ ص ١٩٣.

(٣) صورة الأرض ص ٥٥.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٥.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٥.

(٦) اليعقوبي: تاريخه ج ١ ص ١٩٢.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٥.

(٨) اليعقوبي: تاريخه ج ١ ص ١٩٢.

(٩) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٧.

الحيوان المناسب لها وهو البقر، وذلك لما له من دور في حراثة الأرض وغيرها من أعمال الزراعة^(١)، وأهم محاصيلهم التي كانوا يزرعونها هو محصول (الدخن) فكان يمثل غذائهم فضلاً عن اللبن.^(٢)

ومن أبرز العادات التي ظهرت عند هذه القبيلة أنهم كانوا يسمون الرجال باسم واحد، وكذلك النساء^(٣) والإسلام عندهم قليل الأثر فلا دين لهم ولا هم متصلون بشريعة غير الإقرار بالله وحده والتسليم له واسمه جل وعز عندهم (أذنه)^(٤).

ورغم أن قبيلة بازين كانت من العناصر البارزة بين البجة إلا أنها كحال معظم قبائل البجة اختفت من كتابات المؤلفين العرب منذ منتصف القرن الرابع الهجري، آخر العاشر الميلادي ولم يكن لها دور على الساحة البجاوية بشئ أنواعها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، والراجح أن هذه القبائل حين زاد أثر الإسلام عندهم تخلصوا عن أسمائهم البجاوية لتتخذوا أسماء عربية بدلاً منها لكي يربطوا أصولهم بالعرب. ولعل ما يؤكد قولنا أن التاريخ الذي اختفت فيه أسماء قبائل البجة هو تاريخ هجرة العرب الكبرى لبلادهم وانتشار الإسلام.

وينطبق هذا القول على قبائل الماذن ودهر وسقراب وغركاي ودمنت التي لم يذكر عنهم غير أنهم كانوا يقيمون بين وادي بركة وجبل مسمار.^(٥)

والقول عن هذه القبائل يجري في مجراه المؤلف، فتختفي هذه القبائل لتحل محلها الآن قبائل بجاوية تدعي النسبة بأصولهم إلى العرب، والقبيلة التي تحل هذه المنطقة الآن بشكل كامل هي قبيلة الهندوة والباحثين^(٦) يرون أنها من القبائل الرئيسية الكبرى للبجة اليوم إلى جانب البشارين والأمرار وبنو عامر.

وتمتد أوطان الهندوة اليوم لتشمل هذه المنطقة بشكل كامل، من الشمال إلى الجنوب، من شمال خط العرض التاسع عشر إلى جنوب خط الخامس عشر، وتزيد هذه المسافة على ٢٨٠ ميلاً، ومن الشرق إلى الغرب مسافة تبلغ المائة ميل أو تزيد من الشمال، ولكنها تضيق في الجنوب بين حدود الإريتريا ونهر العظيرة، فهي إذن في صورة مستطيل ينتهي في الجنوب بما يشبه المثلث، وليس لهم على البحر الأحمر سوى مساحة قليلة تبلغ نحو خمس وثلاثين ميلاً، تتوسطها مدينة سواكن. وتبدأ الحدود الشرقية لبلاد الهندوة جنوب سواكن بنحو عشرين ميلاً ثم تمتد نحو الجنوب إلى بين خور بركة وخور لانجب، حتى تصل إلى الحدود الإريترية، ثم تتبع هذه الحدود في انحراف نحو الجنوب الغربي إلى منطقة تسمى خشم القربة (تقع غرب منطقة كسلا) وهذا الحد الجنوبي لأوطان الهندوة، أما الحد الشمالي فيبدأ شمال سواكن ثم يمتد غرباً

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٧.

(٢) البعوي: تاريخه ج ١ ص ١٩٢.

(٣) المقرئ: المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٦.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٧.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٥.

(٦) نعيم شقير: تاريخ السودان ج ١ ص ٩٠.

إلى شمال سنكات، إلى نقطة في شمال شرق آرياب. ومن هنا تتصل بنهر عطبرة عند خور رجب، ثم تلازم هذا النهر إلى خشم القربة. (١)

والملاحظ في أوطان الهدندوة أن عناصر الزراعة توافرت فيها بشكل متكامل، فموارد الماء تكثر عندهم والتي تمثلت في أحد جوانب نهر العطبرة، أضف إلى ذلك خور الجاش ودلتاه يقع ببلادهم، وفضلاً عن هذا أن خور لا نجب أحد روافد خور بركة يجري ببلادهم أيضاً. كما ازدادنا عندهم المنخفضات الصالحة للزراعة والتي تمثلت في النصف الجنوبي من أوطانهم بشكل عام وسهول كسلا بشكل خاص. ونتيجة لذلك نجد أن الزراعة عند الهدندوة لاقت اهتماماً بشئونها وهذا بخلاف سائر البجة لثبت أنهم احترفوا هذه الحرفة منذ عهد سابق كما ذكرنا عن قبيلة بازين، وتأكيداً على أن هؤلاء الهدندوة من صميم البجة.

وعلى الرغم من أن الهدندوة من صميم البجة، فإنهم نهجوا نهج جيرانهم من العناصر البجاوية الأخرى مثل البشارين والأمرار والبنى عامر في الانتماء إلى أصول عربية. ولابد أن لهذه النسبة العربية أساساً تاريخياً. خاصة وأن هذا الإقليم الذي نشأت فيه هذه القبيلة يقع بالقرب من سواكن، ذلك المركز الذي يعد من أهم مراكز النشاط التجاري الذي محل لواءه العرب منذ القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي (٢). غير أن أثر الجماعات العربية التي هاجرت إلى هذا الإقليم، قبل القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي، فيمن اختلطت بهم من البجة كان ضئيلاً، بالقياس إلى أثر الجماعات العربية التي وفدت إلى هذا الإقليم بعد هذا التاريخ. ويبدو أثر الهجرات العربية المتأخرة نسبياً واضحاً في نشر الإسلام والعروبة في هذا الإقليم، مما يرويه الهدندوة أنفسهم بصدد الوقوف بنسبهم عند جماعة الأشراف، وهي الجماعة العربية التي ذكر ابن بطوطة أنها كانت تسكن جزيرة سواكن عارفة بلسان البجة ومصاهرة لهم. (٣)

وتذكر رواية الهدندوة في انتسابهم إلى العرب أن شريفاً عربياً يدعى محمد هدا ب هاجر من الحجاز إلى أرض البجة، ثم تزوج هذا الأمير العربي أميرة من أحفاد أمير بجاوي يدعى (شكايتل) أو (شكايتلو). وأنجب هذا الشريف العربي من الأميرة البجاوية فتى يدعى محمد مبارك، وهو الذي عرف عند الهدندوة باسم محمد براكوين أي محمد الجريء الذي لا يهاب شيئاً، ثم تزوج محمد براكوين هذا من فتاة عربية شريفة الأصل تدعى هدا ب. وقد أنجبت هذه السيدة سبعة أولاد تأصلت فيهم الدماء العربية عن طريق أمهم هدا ب وجدهم هدا ب.

ويستدل من روايات الهدندوة أن عهد محمد براكوين، لا يرجع إلى أبعد من أواخر القرن السابع عشر أو أوائل القرن الثامن عشر، وهو الوقت الذي بدأ منه اسم (هدندوة) في الظهور على مسرح الحوادث في الوطن البجاوي. ويقال أن اسم (هدندوة) هذا مشتق من لفظ (هداب ندوة) أي قبيلة الأسد، أو من قبيلة (هدات ندوة) أي قبيلة هدا ب. (٤)

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٠٧ : ١٠٨.

(٢) عن نشاط العرب ببناء سواكن - نظر فيما سبق ميناء سواكن.

(٣) رحلته: ج ١ ص ١٨٨.

(٤) Paul, a:op citp.٧٧

وليس من شك أن القرن السادس عشر الميلادي، شهد صراعاً عنيفاً بين قبائل البجة نفسها من ناحية، وبينها وبين مملكة الفونج لوقف امتداد نفوذها إلى أوطانهم من ناحية أخرى، ودرج سبيل الهندودوة في التوسع إما عن طريق مصاهرتهم لجماعات بجاوية أخرى أو عرب أو فونج، وإما عن طريق شن الغارات على جيرانهم بما فيها من سلب ونهب. ففي أوائل القرن السابع عشر استطاعت هذه الجماعة أن تطرد بقايا البلو مما هو معروف في الوقت الحالي باسم إقليم أركويت وسنكات نحو الجنوب^(١) واستطاعت شعبة أخرى أن تزيج البشارين نحو الغرب. كما انتهز (ويلالي) أحد السبعة أبناء لمحمد براكوين اضمحلال مملكة الفونج في القرن أواخر الثامن عشر، وأخذ التوسع على حسابها ناحية الجنوب. ثم تغلب ابنه وحفيده على جماعات كثيرة من البجة ممن يسمون بالحاندقا والمهلتكناب، حتى تم له احتلال دلتا لاقاش.^(٢)

وبذلك يمكن القول أن الربع الأول من القرن التاسع عشر، آخر مرحلة من مراحل توسع الهندودوة وإدماج وحدات صغيرة من البجة، أو من غير البجة، حتى أضحووا قبيلة من أعظم قبائل البجة وأكثرها عدداً، وهي الآن تشمل عدة فروع منها جريلاب وسمرار وكالولاي وسمرنداب وسجولاب وويلالياب وشارياب وقوهباب وحامداب وشارعاب وهيكتوماب وشبوديناب وقرعيب وحكولاب. هذا بالإضافة إلى المجموعات القبلية التي تقيم معهم وتقدم ولاءها لهم من الحاندقا والمهلتكناب.

وتعد الزعامة الدينية لهذه الفروع جميعاً لشعبة السمرندواب وهم جميعاً يدينون بالإسلام، أما زعامة القبيلة المدنية والعسكرية فكان لواءها دائماً - ولا يزال إلى اليوم - معقوداً لشعبة الويلالياب، ومع أن لكل شعبة شيوخها ورؤسها، فإن الهندودوة لا يستلموا بزعامة القبيلة إلا لأحفاد (ويلالي) فواء فروع الهندودوة لهذا الفرع ولاء لا يتزعزع^(٣)

أما حالهم في المعيشة فلا يختلفون عن حال البجة فهم يعتمدون على حرفة الرعي، إلا أن الاختلاف بينهم وبين سائر البجة أن معظم قطعانهم التي يمتلكونها لا تكون من الإبل بل من الماشية وخاصة من البقر والغنم وذلك ناتجاً عن طبيعة أوطانهم الغنية بالأمطار وموارد الماء التي تسمح بذلك، هذا فضلاً عن زراعة المناطق الصالحة لذلك وإقامة القرى المستقرة^(٤).

وبذلك تكون قبيلة الهندودوة آخر تقسيم لمواطن البجة اليوم؛ لأن مواطن البجة اليوم انقسمت إلى أربعة أقسام رئيسية كل قسم يحمل اسم قبيلة، فالقسم الأول وهو الشمالي يحمل اسم البشارين، ثم يليهم جنوباً الأمرار، ثم يليهم جنوباً الهندودوة، وأخيراً نجداً في الجنوب الشرقي جماعة الابني عامر. ولكن لا يعني هذا القول أن البجة انقسمت إلى هذه الجماعات فقط، فهناك جماعات أخرى أو قبائل صغيرة عاشت في فلك هذه الجماعات وبداخل هذه الأوطان وتحت لواء هذه القبائل وهم قبائل الأشراف والأرتيدقا والكميلاب والحاندقا ولكن

(١) Paul, a:op cit p٧٧:٨٨

(٢) Paul, a:op cit p٧٩

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١١٣.

(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٢٠ : ١٢١.

رغم أنهم مجموعات صغيرة وقليلة الشأن يدعى أكثرهم الاستقلال ويحاول أن يثبت ما له من الأهمية والخطر، ويحدث عن أبطاله القدماء، وما كان لهم من علو الشأن وسمو المقام في العصور الغابرة^(١). وليس في دعواهم هذه وجه غريبة، لأن نظام القبائل من طبعه عرضة للتقلب والتطور على مدى الأزمنة، فيعضو شأن بعضها حيناً من الزمن، ثم لا تلبث بعد ذلك أن يدركها الضعف بسبب الحروب أو الأمراض، أو سوء القيادة، فيضعف أمرها، يقل عدوها. وهذه الظاهرة واضحة في تاريخ القبائل العربية نفسها في جزيرة العرب، ولا عجب إذا رأينا لدى البجة أيضاً.

وفي نهاية القول عن قبائل البجة، نذكر أن هذه الجماعات عاشوا في هذه البيئة القاسية منذ عصور طويلة، وقد نظموا حياتهم على المنوال الذي تفرضه خصائصها الطبيعية، فأصبحوا عصور جزءاً لا يتجزأ منها. وليس معنى هذا أن الطبيعة الجغرافية هي الوحيدة التي تركت أثرها في نفوس هؤلاء القوم، فكان للأحداث المتنوعة من سياسية واقتصادية واجتماعية عبر العصور دورها في كيانهم البشري.

ب- العرب

يمثل العرب أحد عناصر البناء الاجتماعي لبلاد البجة في العصور الوسطى، فقد حفزت هذه البلاد بعناصر عربية عديدة كانت لها أثرها في شتى جوانب الحياة؛ لأن هذه البلاد كانت قادرة على امتصاص واستيعاب القبائل الوافدة عليها، والجيوش والجماعات التي رافقتها، والتي جاء في أثرها أن غيرت تكوينها العرقي والثقافي والحضاري.

١ - العناصر العربية في بلاد البجة قبل الإسلام:

لم تكن العصور الوسطى هي الفترة الوحيدة التي استقبلت فيها بلاد البجة العناصر العربية، فلهذه البلاد صلات بالجزيرة العربية ترجع إلى الزمن القديم أي قبل الإسلام^(٢) فلم يكن البحر الأحمر حاجز يمنع الاتصال بينهما، إذ لا يزيد اتساعه على المائة والعشرين من الأميال عند السودان، وليس من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة، أما في الجنوب فيضيّق ضيقاً واضحاً عند بوغاز باب المندب، حيث تبلغ مساحته خمسة عشر ميلاً، وهذه الطريق هي التي سلكتها السلالات والأجناس العربية الجنوبية إلى القارة الإفريقية منذ عشرات الآلاف من السنين.^(٣)

ولعل التجارة كانت أهم أسباب انتقال العرب الجنوبيين إلى أوطان البجة عن طريق البحر قبل الإسلام، خاصة بعد أن نشطت حركة تجارة العاج والصبغ واللبان والذهب، بين الجزيرة العربية من ناحية، وبين

(١) محمد عوض: السلالات والشعوب الإفريقية ص ٢٥٠.

(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٣٠.

(٣) مصطفى مسعد البجة والعرب ص ١١.

موانئ الساحل الإفريقي من ناحية أخرى ^(١) واتخذ العرب من بعض النقاط على الساحل الإفريقي مركزاً لهم، يتوغلون منها بسلمهم وبضائعهم في قلب القارة الإفريقية، ومن ذلك استوطن العرب الجنوبيين السواحل الإفريقية ومونوا هذه السواحل بالعناصر السامية ^(٢).

وما أن لبثت هذه العناصر فترة من الزمن حتى توغلت في قلب القارة الإفريقية، إلى وادي النيل، مخترقة بذلك الصحراء الشرقية وبلاد البجة لتستقر في بلاد الصعيد، وقد بلغت هذه الانتقالات أقصاها في عهد دولتي معين وسبأ في الفترة ما بين ١٥٠٠ - ٣٠٠ ق. م ^(٣) ولا شك أن هذه الجماعات قد اختلطت بالبجة أو على الأقل تركت وراءها جماعات سكنت بالقرب منهم.

ومن جانب آخر وفي فترة متوسطة للتاريخ المذكور لهجرة السبائيين إلى مصر، هاجرت جماعات سبائية أخرى إلى منطقة الحبشة (إريتريا) وقد كونوا مستوطنات لهم، وخاصة على الساحل وكان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد. ^(٤) وهذا يوضح أيضاً مدى اقتراب العرب من أوطان البجة من جهة أخرى. ولابد من وجود اتصال في أي من جوانب الحياة؛ خاصة وإن العرب يمتلكون روح الفضول والاختلاط بالعناصر البشرية المختلفة.

واستمراراً لتدفق هجرات العرب إلى إفريقيا عبر البحر، انتقل عدد غير قليل من الحميريين في القرنين السابقين للميلاد إلى الحبشة، بعد أن عبروا مضيق باب المندب، فاستقر بعضهم في الحبشة، وتحرك بعضهم الآخر متتبعاً النيل الأزرق ونهر العظيرة، ليصلوا عن هذا الطريق إلى بلاد النوبة ^(٥) وسكن هؤلاء في أول الأمر في منطقة العتبات من بلاد البجة، ويحتمل أن مواطنهم قد امتدت إلى سنكات وأركودت ^(٦).

وهناك أيضاً ما يدل على انتقال الحميريين إلى هذه الأوطان قبل الإسلام، تلك الأخبار التي وردت في القصص العربي القديم عن قيام الحميريين بحملات عسكرية في وادي النيل الأوسط وشمال إفريقيا، وأن هذه الحملات تركت وراءها جماعات استقرت في بلاد النوبة وأوطان البجة وشمال إفريقيا. ^(٧)

ومن هذه الروايات العربية القديمة التي نتحدث عن تلك الحملات العسكرية للحميريين على السودان. رواية أوردها ابن خلدون ^(٨) عن حملة قادها أبرهة الحب ذي المنار بن ذي القرنين الحميري على بلاد النوبة، وبلاد المغرب، حوالي أوائل القرن الأول الميلادي.

ولم يقتصر تقدم العرب قبل الإسلام نحو أوطان البجة عند هذا الحد؛ لأن العرب الشماليين جاءوا إلى هذه الأوطان قبل مجيء العرب الجنوبيين إليها، وكان ذلك عن طريق مصر من خلال قدومهم عبر جزيرة

(١) جرجي زيدان العرب قبل الإسلام، (بيروت - بدون تاريخ) ص ٢١٢.

(٢) جواد العلي: الفصل في تاريخ العرب ج ٣ ص ٤٥٠.

(٣) عبد الله البري: القبائل العربية في مصر خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، دار الكتاب القاهرة ١٩٧٦، ص ١١٩.

(٤) جواد العلي: الفصل في تاريخ العرب ج ٣ ص ٤٥٠.

(٥) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ١١.

(٦) الشاطر بصيلي تاريخ وحضارات السودان ص ١٦٦.

(٧) Macminichae, H. A., op. cit. p. 3:4

(٨) ابن خلدون: المعبر ج ٢ ص ١٥٢.

سِيناء ثم برزخ السويس. وهذا الطريق الشمالي هو الطريق الثاني لآذي اتجه منه العرب إلى أوطان البجة^(١)، وهذا طريق ذو دور خطير في تاريخ العلاقات بين العرب ومصر منذ فجر التاريخ، فلم تخلوا الآثار المصرية القديمة من الإشارة إلى العرب الشماليين منذ عهد الأسرات الأولى إما تجاراً أو غزاةً أو لاجئين^(٢). ولم تنقطع صلة هذه العناصر العربية سواء كانت شمالية أو جنوبية بأوطان البجة زمن البطالمة والرومان. فقد ورد في كتاباتهم عن مدى تكاثر العرب على أيامهما في أعالي الصعيد، وخاصة مدينة فقط، واشتغال هؤلاء العربان بنقل المتاجر عبر الصحراء الشرقية في ما بين النيل والبحر الأحمر^(٣) وإذا كان من غير المعروف من أي العرب هؤلاء؛ فالراجح أنهم أو معظمهم على الأقل من قبيلة بني القحطانية، لأنها من أشهر القبائل العربية التي هاجرت إلى مصر قبل الإسلام، وسكنت صحراء مصر الشرقية في المنطقة الوسطى من تلك الصحراء الواقعة بين قنا والقصور، وكان عليها الاعتماد في نقل التجارة قبل ظهور الإسلام^(٤) لتنتشر بعد ذلك في الجزء الجنوبي من الصحراء الشرقية، حتى قيل أنهم ملئوا المنطقة الواقعة بين صعيد مصر وبلاد الحبشة^(٥) ثم انتهى بهم الأمر إلى أن اختلطوا بالبجة، وسيطروا على الجزء الشمالي من أوطانهم وعرفهم البطالمة والرومان باسم Plemmyes أي بليميين^(٦).

وما يشير إلى أن أولئك البليميين كانوا عرباً ومن قبيلة بني؛ أن البجة تسمى اللغة العربية في لغاتهم التبدوية باسم Balawit. بلاويت^(٧) ويعني هذا أن الجماعات العربية من قبيلة بني كانت من من القوى والكثرة العددية في بلاد البجة بحيث غدا اسمها في اللغة البجاوية مرادفاً للفظ عرب أو عربي.

وهذا عن وجود العنصر العربي في بلاد البجة قبل الإسلام، أما قدومهم إليها بعد الإسلام كان من الكثرة له تأثيره الواضح في التركيب الاجتماعي لبلاد البجة في العصور الوسطى، إلى جانب ما سبق أن عرضناه في ثنايا الفصول السابقة، من حوادث تتصل بالحياة السياسية والاقتصادية لتلك البلاد.

٢- القبائل العربية التي استقرت ببلاد البجة بعد الإسلام:

كانت أولى الفرص لدخول العرب إلى بلاد البجة بعد الإسلام وإلقاء نظرة على بلادهم، ف عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م حين قام عبد الله بن الحبحاب بمصالحاتهم وعقد لهم عقداً بعد أن غزاهم واندنصر عليهم^(٨) فكان هذا العقد ضماناً لحق العرب في العبور بأمان إلى بلاد البجة، وبدأ منذ ذلك الوقت نشاط العرب في الدخول إلى

(١) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ١٢.

(٢) المقرئ: البيان والإعراب ص ٧٧: ٧٨.

(٣) جرجي زيدان العرب قبل الإسلام ص ٢٣٠.

(٤) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ١٢.

(٥) عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب قديماً وحديثاً، ج ١ ص ١٠٥.

(٦) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ١١.

(٧) Crawford, o G. s: op. cit. pp. 110

(٨) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٩.

أوطانهم بعد الإسلام والاستقرار فيها.^(١)

غير أنه لم يكد يمضي نحو قرن من الزمن على هذه المعاهدة، حتى بدأ نشاط العرب في الظهور بالبناء الاجتماعي للبيعة والانتشار ببلادهم، وكان أثر ذلك واضحاً في بنود عقد الأمان الذي أعطاه عبد الله ابن الجهم لكادون بن عبد العزيز عظيم البيعة عام ٢١٦ هـ / ٨٤١ م^(٢) والتي كان أبرزها تأمين العرب القائمين بهذه البلاد وعملاً بالتجارة، فضلاً عن حفظ المساجد التي ابتنوها في أهم بلدانهم مثل صنجة وهجر. وبذلك باتت هذه المعاهدة رأس حربة لفتح هذه البلاد لنفوذ العرب وحرية التنقل حولها والاستقرار فيها، كما أمنت مصالحهم لتجارية وحريةهم الدينية وسلامتهم الشخصية^(٣).

والملاحظ من انتقال القبائل العربية إلى أوطان البيعة أنه اتخذ مظهراً عسكرياً في بادئ الأمر، وهذا واضح سابقاً في الفصل السياسي. فلا شك أن لحملات الحربية التي وجهها ولاة مصر إلى أوطان البيعة أن تترك جزءاً منها كمقاعد حربية لحفظ النظام وتأمين الحدود. وبذلك أعطت الفرصة لكثير من القبائل العربية المشاركة فيها أن تستقر في هذه الأوطان.

ولم يلبث هؤلاء العرب فترة من الزمن بهذه الأوطان حتى اجتذب بريق المعادن أنظارهم، وهذا الأمر جعلهم غير راغبين في ترك هذه الأوطان للحصول على مزيد من الثروة^(٤) ومن ذلك ازداد دخول العرب إلى هذه البلاد ليتخذ بعدها مظهراً تجارياً. وهذا ما أوضحناه أيضاً في الفصل الاقتصادي. وبذلك شكلت القبائل العربية التي وفدت إلى هذه الأوطان في العصور الوسطى، جزءاً هاماً من النسيج الاجتماعي للبيعة في شتى جوانب الحياة، ومن هذه القبائل التي نردها بالذكر من المجموعتين الأولى العدنانية: الأمويين، العلويين، العمريين، ربيعة، مضر، قيس عيلان، بني تميم، بني هلال. والمجموعة الثانية القحطانية: جهينة، بني، سعد العشيرة.

أ- الأمويين:

بطن من قريش ترجع إلى بني عبد شمس بنو عبد مناف^(٥). وهي أول العرب الذين دخلوا بلاد البيعة وذلك حين انهارت خلافتهم عام ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) فتعقبهم العباسيون بالقتل والنفي والانشريد، فهربت جماعة منهم إلى بلاد البيعة فراراً من المذابح، واستقروا بميناء باضع من جهة اليمن^(٦) ومما لا شك فيه أن بني أمية قد

(١) ممدوح الحويري: أسوان في العصور الوسطى ص ٦٢.

(٢) عن بنود عقد الأمان انظر الفصل السياسي حمدة ابن الجهم.

(٣) وبيّام ي. آدمز: القوبة رواق إفريقيا، ترجمة محبوب التجاني محمود ط١، القاهرة ١٩٤٨ م، ص ٤٨٦.

(٤) ابن حوقل: ص ٥٣.

(٥) القحطاني: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت ط ١٩٨٧ م ج ١ ص ٤١١.

(٦) ينكر المسعودي أنه بعد فك مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في منطقة بوصير بالقيوم عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م وتفرق

بنو أمية في البلاد هرباً من مذابح العباسيين، وكان من بين الهاربين، أبناء عبد الله وعبد الله، وكذا وثيا عهده، فهربا فممن تبعهما من أهلتهما ومواليهما وخواصهما من العرب ومن انحاز إليهم من أهل خراسان من شعبة بني أمية، فساروا إلى أسوان، ومنها ساروا على شاطئ النيل حتى بلاد القوبة، ثم توسعوا أرض البيعة بمسكن باضع، وكثرت لهم مع من مروا بهم من القويين والبيعة والناع وحروب، ونالهم جهد شديد، وضر عظيم. فهلك عبد الله في عدة من كان معهم قلاً وعطشاً وضراً. وشاهد من بقي منهم التشدد والعجب، ووقع عبد الله في عدة ممن نجا معه إلى باضع من ساحل أرض البيعة" (التبليغ والإشراف: نشر دي خويه، لندن ١٨٩٧، ص ٣٠).

من السلطة المركزية في مصر^(١) ويذكر العالم Bloss^(٢) أنه عثر على مقابر أولئك الأمويين على طول الطريق الذي يسلكوه من بلاد الذوبية حتى ميناء باضع. فضلاً عن هذا أن ثمة أبحاث تدبّت وجود جاليات إسلامية في منطقة خور نبت - الواقعة على بعد ٧٠ ميلاً غربي سواكن - عثر على شواهد قبور عربية، يرجع تاريخها إلى ١٤٢هـ - (٧٦٠م)، وهو تاريخ يتفق مع هجرة الأمويين إلى أوطان البجة، مما يدعونا إلى الاعتقاد أن هذه القبور تنسب إلى أولئك الأمويين الهاربين إلى هذه الأوطان.

ب- العلويين:

وهم فرع من قريش من البيت الهاشمي ممن ينتمون إلى ذرية علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله عليه الصلاة والسلام^(٣)، فمنهم من انتسب إلى الحسن، ومنهم من انتسب إلى الحسين - رضي الله عنهما - فمن نسل الحسن قوم هاجروا إلى صعيد مصر بقيادة علي بن عبد الله في عام (١٤٤ - ١٤٥هـ / ٧٦٢ - ٧٦٣م)^(٤) ومنهم ابن الصوفي الذي كان يعرف بإبراهيم ابن محمد بن يحيى بن عبد الله بن علي بن أبي طالب، صنّوات الله عليهم أجمعين. الذي قام بثورة ضد أحمد بن طولون عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩م، وانتهت ثورته بأن تفرق عنه أصحابه بأرض البجة بعد هزيمته على يد الغمري بهذه الأوطان، ولا شك في أن بعض أصحابه استقروا بأرض البجة ليصبحوا جزءاً من النسيج الاجتماعي للبجة. وباقي قبائل بني الحسن أقامت في بلاد منفلوط وأكندم - بلدة بالصعيد تابعة لأعمال الأشمونيين - وما حولها من بلدان الصعيد، أما بني الحسين فقد عاشوا في الصعيد ومن المؤكد أنهم أقاموا مع أبناء عمومته خلال ثورة ابن الصوفي^(٥).

ج- الغمريين:

هم بطن من قريش، ترجع إلى بني عدي بن كعب بن لؤي بن غالب، ومنهم عمر بن الخطاب الذي ينتمون إليه الغمريين^(٦) وقد سبق أن رأينا الدور الكبير الذي قام به أبو عبد الرحمن الغمري، من نشر الإسلام والثقافة العربية في بلاد الذوبية والبجة، ويحدر عبد الرحمن من ذرية عمر بن الخطاب، ويكنى بأبي عبد الرحمن الغمري العدوي القرشي^(٧) وقد نزع إلى أرض البجة في منتصف القرن الثالث الهجر عام ٢٥٥هـ / ٨٦٨م. ومن المحتمل أن ذريته استقرت في بلاد البجة لتنتشر بعد ذلك في المنطقة لتصل إلى أسوان، وقد عثر على شاهد قبر بأسوان نقش عليه اسم أم أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الغمري المتوفاة سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م.^(٨)

(١) محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى ص ١٩٧.

(٢) Bloss, J.F.E, the story of suakin" S. N. XX, part II, 1936, p.279 (٢)

(٣) القفّاشدي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج ١ ص ٤١٣.

(٤) المقرئ: البيان والإعراب ص ٤٠ - ٤١.

(٥) البتوي: سيرة أحمد بن طولون ص ٦٥.

(٦) القفّاشدي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١ ص ٤٠٧.

(٧) عن دور الغمري في بلاد البجة انظر سلفاً الفصل السياسي.

(٨) محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى ص ١٩٢.

والمؤكد أن ما قام به العلويين والعمريين ممن ينتمون إلى قبيلة قريش من حركات تمرد وخروج على الولاة العباسيين في مصر من الطولونيين والإخشيديين؛ كان مرجعه نظرة الريبة والشك تجاههم على أساس أنهم يريدون الاستيلاء على الحكم والسيطرة على المناصب، فنبعهم أولئك الولاة بالطرد والقتل، ففروا إلى بلاد الصعيد لبعدها عن مركز الحكم، فكونوا أحلافاً خرجوا بها على الحكام، واتخذوا من بلاد البجة وما حولها مركزاً لعملياتهم الحربية^(١). وكيفما كان الأمر فقد انتهت هذه الحركات والأحلاف بأن تفرق أصحابها في بلاد الصعيد والبجة ليكونوا في النهاية جزءاً من النسيج الاجتماعي للبجة.

د - ربيعة:

تأتي قبيلة ربيعة في مقدمة القبائل العدنانية التي لعبت دوراً هاماً في الأحداث التي ألمت ببلاد البجة، وتفرع تلك القبيلة مباشرة من نزار بن معد بن عدنان، وكانت مساكنها الأولى تمتد من مرتفعات نجد من مهبط الجبل إلى الغور من تهامة^(٢) ومن بطونها: أسد، تغلب، شيبان، حنيفة، عنزة، لجيم، عبد لاقيس، النسر، زحل، بني يونس^(٣).

وقد ظلت هذه البطون تقيم في بلادها حتى وقعت الحرب بينها، مما كاد يؤدي إلى هلاكها، ففترقت. وارتحلت بطونها إلى بقاع مختلفة، فانتشر بعضهم في اليمامة، وبعضهم فيما بينها وبين البحرين إلى أطراف سواد العراق، وبعضهم إلى إقليم الجزيرة في الشمال الغربي^(٤) أما عن ربيعة التي نزلت اليمامة، فقد أجبرها بنو الأخيضر إلى الجلاء عنها، فنزحت إلى مصر في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله، وعلى وجه التحديد سنة ٢٣٨هـ، في أعداد كثيرة من بني حنيفة وبني يونس^(٥) ثم نزلت أعداد من بني حنيفة بوادي - العلاقي، وبعضها في أسوان، وابتدأوا بظواهرها بلدة أخرى عرفت بالمحدثثة^(٦) أما بنو يونس فقد استقروا في ثغر عذاب^(٧).

واستطاع حذف بني ربيعة من بني حنيفة أن يفرض نفوذه في وادي العلاقي على جميع القبائل العربية القائمة آنذاك، حتى أصبحت لهم السيادة المطلقة في عام ٢٤٥هـ بعد قتلهم القائد لقمي^(٨) ومنذ ذلك استولت ربيعة على معدن الذهب بالعلاقي فكثرت أموالهم واتسعوا في أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة، واخذوا قرية تعرف بالنمامس وحفروا بها الآبار^(٩)، وبعد أن استولت ربيعة على العرب اتجهت إلى السيطرة على البجة، وأدركوا أن هذا لا يتحقق إلا بالسيطرة على الحداربة، وهم الطبقة الحاكمة التي يخضع لها البجة،

(١) المقرئ: البيان والإعراب ص ١١٩ - ١٢٣.

(٢) عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، طبعة دمشق ١٩٤٩م، ج ٢ ص ٤٢٤: ٤٢٥.

- وتنسب قبيلة ربيعة إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وكان يعرف بريئة الفرس (ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العربي، القاهرة ١٩٥٣م، ج ٢٣ ص ٢٥٧).

(٣) الكفكفندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١ ص ٣٩٠: ٣٩١.

(٤) ابن الخطيب: الآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة، مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات العربية، برقم ٢، ورقة ٤.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٤.

(٧) المقرئ: البيان والإعراب ص ٤٤.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٤.

(٩) المقرئ: البيان والإعراب ص ٤٤.

فلجأوا إلى وسائل مختلفة للتقرب منهم، منها: أنهم تحايّلوا على كهانهم للدعوة بطاعة ربيعة والانطواء تحت لواءها، لتتخذ منهم أعواناً ضد منافسيها من العرب، للإغتراف بحكم هذه البلاد.^(١) ومما دعم هذه الصلة وقواها مصاهرة زعماء ربيعة لرؤساء البجة^(٢) ولابد أن أدركوا قيمة حق الوراثة عن طريق الأم، أي نظام الأمومة في وراثة الملك، فتزوج رؤساء العرب من بنات البجة، لينال أبناء أولئك العرب حقاً مشروعاً في السيطرة على قبائل البجة، حسبما يقتضيه هذا النظام الأموي.

ولعل ما أورده ابن حوقل، ما يوضح طبيعة المصاهرة العربية البجاوية. فذكر في زمنه، أي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري كان يرأس الحدارب رئيسان هما: كوك وعبدك. أما كوك فهو خال أبي القاسم حسين بن علي بن بشر. وأما عبدك فهو خال ولد أبي بكر إسحاق بن بشر صاحب العلاقي^(٣) وبهذه المصاهرة تمكنت ربيعة من السيطرة على وادي العلاقي من عرب وبجة تحت قيادة إسحاق بن بشر من ناحية^(٤)، ومن ناحية أخرى توثقت صلة ربيعة بالبجة إلى حد كبير بحيث أصبحت هي والبجة كالثمين الواحد^(٥).

وظل إسحاق بن بشر رئيساً لواءي العلاقي ورعاياه من العرب والبجة مدة إلى أن خرج عليه بعض أهله وقتلوه، وحين وقعت الحروب بين بني بشر وقتل فيها إسحاق اختارت القبيلة بعد مقتله ابن عم له الشيخ أبا عبد الله محمد بن علي بن يوسف. المعروف بأبي يزيد بن إسحاق وكان من فرع ربيعة الذي نزل بالحواف الشرقي عند بذييس^(٦). وبهذا الإجراء لم تعط قبيلة ربيعة فرصة للأحداث أن توسع الخلاف بين أبنائها مما يقضي على نفوذ القبيلة ويطمع فيها أعداءها. وهذا يثبت لنا مدى ترابط القبيلة برغم عوارض النزاع بينها ومدى حرصها على الاستمساك بحكم قبائل البجة^(٧)، وقد آثر أبو يزيد أن ينقل مقر رئاسة ربيعة إلى مدينة أسوان. وهناك عظم مركزها وزادت ثروتها. كما أصبح لإمارة ربيعة دور ممتاز في ميدان السياسة والاقتصاد، في ميدان العلاقات بين بلاد الذوبة المسيحية وبين مصر الفاطمية وعرفوا في ذلك الوقت بدني الكنز^(٨).

ومنذ انتقال مقر إمارة ربيعة إلى أسوان، في حوالي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) ولم نعرف شيئاً بنو ربيعة في العلاقي. والواضح أنهم تغلغلوا في البجة وأصبحوا جزءاً منهم، وبالتالي أخذوا عنهم اللغة البداوية، بعد أن طعموها بكثير من الألفاظ العربية، وأنهم أعطوهم الدين الإسلامي الذي يربطهم بالنسب العربي^(٩) ولعل الآن ما يدل على استقرار ربيعة في بلاد البجة أنه تم اكتشاف

(١) المقرئزي: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٦.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ١ ص ١٨.

(٣) صورة الأرض ص ٥٥.

(٤) المقرئزي: البيان والإعراب ص ٤٤.

(٥) ابن فضل الله العمري: مسائل الإبصار مخطوطة مصورة، ق ٢ ص ٤١٩.

(٦) المقرئزي: البيان والإعراب ص ٤٤، ٤٥.

(٧) عطية القوسي: تاريخ دولة الكنوز ص ٣٧.

(٨) عن دولة بني كنز انظر سابقاً الفصل السياسي.

(٩) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ٤١.

أربعة شواهد قبور من الحجر لحكام ربيعة، بعد إجراء حفريات عند منطقة الريح على البحر الأحمر، كتبت بالخط الكوفي ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع الهجري. ^(١)

هـ - مضر:

هي أحد القبائل العدنانية وتحدث من مضر بن نزار بن معد بن عدنان ^(٢) وكانت منازلها بإيمامة شرقي شبه الجزيرة العربية، وقامت إلى أوطان البجة في وادي العلاقي - مع قبيلة ربيعة - تحت ضغط بني الأخيضر وذلك في عام ٢٣٨ هـ. ^(٣) وقد نزل عليهم العمري عند دخوله أرض المعدن، وبايعوه على حرب البجة والنوبة ^(٤) وبعد مدة من مساندته تخلوا عنه حين دعاهم لحرب البجة الذين قتلوا أخاه، وذلك خشية من وقوع الحرب بينهم وبين ربيعة التي رفضت أيضاً مساندته نظراً للعلاقة القوية التي ربطت بين ربيعة والبجة. فتقاتل معهم جميعاً، نتج عن ذلك أن قتل زعيم ربيعة في تلك البلاد، مما أثار سخط رئيس مضر وهو محمد بن هارون فقام باغتياله ^(٥). وهذه الأحداث تدل على مدى القوة والنفوذ التي تمتعت بها مضر في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، ولا شك في أن العناصر المضرية الكثيرة التي استوطنت أرض البجة استطاعت أن تتغلغل في هذه الأوطان لتصبح جزءاً من بنائها الاجتماعي.

و - قيس عيلان:

قيس هو فرع من مضر جمع عدة قبائل، وقد اختلف في نسبه فقيل قيس بن عيلان، وإسماء الناس بالنون بن مضر، وقيل هو قيس بن مضر، وعيلان المضاف إليه قيل فرسه، وقيل كذبه، وقد بلغ لقيس من الكثرة والعدد حتى غلب اسمه على سائر القبائل العدنانية، حتى جعل في المثل في مقابل القبائل عرب اليمن (العرب القحطانية)، فيقال قيس ويمن ^(٦)، وقد وفدت إلى مصر في عام ١٠٩ هـ على يد عبيد الله بن الحبحاب فأُنزلهم بالحوف الشرقي وفرقهم فيه ^(٧) وبعد ذلك دخلوا أرض البجة تحت قيادة قائدهم حكم النابغي في عام ٢١٢ هـ بعد أن استجار به أهل فقط لرد هجوم البجة عنهم، وأتى من الحوف الشرقي إلى فقط بألف رجل من قبيلة قيس عيلان وغزا البجة وأعاد السبي، وأقام ببلادهم ثلاثة سنين ^(٨). وليس من المستبعد أن تكون جماعات من قيس عيلان استقرروا في العلاقي حيث توجد آثارهم. فيقول ابن حوقل إن المكان الذي اتخذته حكم النابغي مركزاً لعملياته الحربية ضد البجة، كان لا يزال يعرف في زمنه باسم (ماء حكم) وهو على مرحلة من عذاب، وعلى

(١) Arkel. I; A. j.: History of Soudan from the earliest Time to 1821, London, 1961, p. 189.

(٢) الفلأشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١ ص ٣٩٢.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(٤) المقرئ: المقياس الكبير ج ٤ ص ٤٠٤.

(٥) المقرئ: المقياس الكبير ج ٤ ص ٤١٤.

(٦) الفلأشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١ ص ٣٩٢: ٣٩٣.

(٧) المقرئ: البيان والإعراب ص ٦٦.

(٨) عن حملة حكم النابغي في بلاد البجة انظر سابقاً الفصل السياسي.

أربع مراحل من العلاقي.^(١) بالإضافة إلى ذلك فقد جاءت هذه القبيلة إلى أرض البجة كأعوان العمري في حربه ضد البجة والنوبة، في منتصف القرن الثالث الهجري^(٢) وفي هذه المرة أدت قيس عيلان إلى أرض البجة رغبةً في الحصول على الذهب والبرص عنه، ومن المحتمل أنهم جاءوا عن رغبة من أبناء عمومهم المستقرين سابقاً في هذه الأوطان لتفاسم ثرواتها، ولا يستبعد أن هذه الأعداد القيسية قد اختلطت بالبجة وساعدت في نشر الإسلام والثقافة العربية بهذه الأوطان.

ز- بنو هلال:

وهم بطن من عامر وهي تنسب إلى هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان^(٣) قد نزلت مصر في ظل الدولة الفاطمية، واستقروا بالصعيد في الجانب الشرقي^(٤) وبعد فترة قصيرة من قدومهم إلى مصر استطاعوا أن يدخلوا أرض البجة حتى ملأوا المنطقة ما بين بلاد الصعيد إلى عذاب^(٥) وحين نشب النزاع بين القبائل العربية في بلاد البجة انتقلت غربي النيل^(٦) وهذا لا يعني أن القبيلة انتقلت بشكل كامل فلابد أن بعض الأشخاص كان لهم من المصالح أن تبقىهم في هذه البلاد.

ح- بنو تميم

ينتسبون إلى تميم بن مر بن مرء بن طانجة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وكانت منازلهم بأرض نجد والبصرة واليمامة، وامتدت إلى العذيب من أرض الكوفة، ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر، وورثت مساكنهم قبائل أخرى،^(٧) وفي اليمامة أجبر بنو الأخيضر قبيلة تميم على الجلاء، فاتخذت طريقها إلى مصر في القرن الثالث الهجري، مثلما فعلت قبيلتي ربيعة ومضر، ثم انتقلت بعد ذلك إلى أسوان، ومنها إلى العلاقي، وكانوا أحد القبائل الموالية للشمري تقدم له المدد من أسوان من مر به على البجة والنوبة، وكان يقيم بذلك رجل يعرف بعثمان بن حجلة التميمي^(٨) وعندما نشب النزاع بين القبائل العربية في بلاد البجة، تركتها لتستقر بجموعها إلى شرقي النيل حيث استقرت هناك^(٩) واستقرارها بالجانب الشرقي بالنيل لا يبعدها كثيراً عن بلاد البجة فلابد أن بعض أفرادها أخذ يتردد إلى بلاد البجة، والبعض الآخر استقر بها ليقوم بالدور العربي في نشر الإسلام والثقافة العربية.

وبذلك نكون قد عرضنا القبائل العربية من المجموعة العدنانية التي استقرت بأرض البجة في العصور

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٢

(٢) المقرئ: المقي الكبير ج ٤ ص ١٠٠

(٣) الفلكسندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١ ص ٣٩٤

(٤) المقرئ: البيان والإعراب ص ٢٨

(٥) الفلكسندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١ ص ٣٩٤

(٦) المقرئ: المقي الكبير ج ٤ ص ١١٣

(٧) الفلكسندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١ ص ٤٠١

(٨) المقرئ: المقي الكبير ج ٤ ص ٤٠٦

(٩) المقرئ: المقي الكبير ج ٤ ص ٤١٠

الوسطى، لتكون جزءاً من عناصر السكان التي نسجت كيانه الاجتماعي. وبقي علينا الآن عرض المجموعة القحطانية.

المجموعة القحطانية:

أ- جهينة:

تنسب تلك القبيلة إلى جهينة بن زيد بن ليث بن سوه بن الحافي بن قضاة^(١) وقد وفدت إلى مصر مع الجيش الفاتح، واتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط^(٢) ثم انتقلت بعد ذلك إلى بلاد الصعيد لتنتشر فيه^(٣) وكان دخولها في أرض البجة في عام ٢٥٥هـ / ٨٦٨م تحت قيادة قائدهم وهو رجل يعرف بعثمان بن سعد أحد حلفاء الغوري في حربته على البجة^(٤) وقد ساهمت هذه الحملة الحربية في انتشار بني جهينة في أرض البجة، وبعد انتهاء الحرب استقرت في مكان يعرف (بوحم) على ثلاث مراحل من خربة معدن الزمرد، للعمل بالتجارة واستخراج المعادن^(٥) وبذلك انتشرت في بلاد البجة لتكون في برية عذاب، مما أدى إلى تجريد الحملات إليهم من جهة الممالك بسبب عبتهم في هذه المنطقة، فطردهم الممالك حتى بلغوا سواكن^(٦) وقد شاهد ابن بطوطة منازلهم في عذاب، وقد اختلطوا بالبجة في هذه المنطقة وقاموا ببناء منازلهم على شاطئ البحر الأحمر، وفضلوا حياة البداوة في هذه الأطراف على حياة الحضر.^(٧)

ولكن بعد أن طردهم الممالك إلى جهة سواكن أصبحوا من القوة والعظمة، حتى غلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم، وأزالوا ملكهم، وحاربوا الحبشة فأرهمهم.^(٨)

ومن خلال هذا النشاط الحربي الواسع لابد أن بعض أعضائها امتزج مع البجة، وهذا لا ينكر أن الجزء الأعظم من هذه القبيلة الكبيرة المتماسكة بشكل استثنائي تمسك بخصائصه ولغته المنفصلين، واستأذف سيره فيما هو بادئ من بلاد البجة إلى المراعي المفتوحة وراء النيل.^(٩)

ب- بلي:

تعد قبيلة بلي التي تنسب إلى بلي بن عمرو بن الحافي بن قضاة^(١٠) من أشهر القبائل القحطانية التي هاجرت إلى مصر قبل ظهور الإسلام^(١١) وبعد ظهور الإسلام نزلت لأول مرة مع عمرو بن العاص، واتخذت

(١) القحطندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١ ص ٣٦٨.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ١٤١.

(٣) المقرئ: البيان والإعراب ص ٢٧.

(٤) المقرئ: المعقلى الكبير ج ٤ ص ٤١٢.

(٥) البغدادي: البلدان ص ٣٣٣.

(٦) المقرئ: السلوك ج ٢ (أحداث ٧١٦هـ) ص ١٦٢.

(٧) رحلته: ج ١ ص ٢٢٢.

(٨) ابن خلدون: المعبر ج ٢ ص ٢١٦.

(٩) ويليامز أي آدمز: القوية روى إفريقيا ص ٤٨٦.

(١٠) القحطندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١ ص ٣٦٧.

(١١) انظر العناصر العربية في بلاد البجة قبل الإسلام.

لها خطة بمدينة الفسطاط^(١) وفي عهد عمر بن الخطاب وفدت أعداد هائلة منها إلى مصر، وتفرقت في أنحائها، وأقام فريق ببلاد الصعيد على ضفتي النيل، امتدت منازلها على الضفة الغربية من سوهاج شمالاً إلى غرب قمونة (بمحافظة قنا) جنوباً، وعلى الضفة الشرقية من عقبة فالحراب شمالاً إلى عيذاب جنوباً^(٢) في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري دخلت أرض البجة لاستخراج الذهب والزمرد والتجارة فيهم، واستقرت بمنطقة (رحم) على بعد ثلاث مراحل من خربة معدن الزمرد^(٣) وظلت تعمل بالتجارة حتى زمن ابن جبير الذي يذكرهم أثناء رحلته من عيذاب في عام (٥٧٩هـ) بأنهم أصحاب طريق عيذاب، يقومون بأعمال نقل الحجاج من خلال جمالهم.^(٤)

وهذا يوضح لنا مدى تنوع العمل التجاري للبلويين في بلاد البجة، ففي فترة استخراج المعادن كانوا يعملون بها، وبعد توقف عمليات التعدين عملوا بنقل الحجاج في فترة ازدهار الطرق البجاوية، وهذا يدل على مدى تغلغل هذه العناصر في هذه البلاد ومحاولة السيطرة على مصادر الكسب، ولا يكون هذا إلا من خلال اختلاط عميق بعناصر البجة يكون في مقاماتها الاختلاط الاجتماعي.

ج- سعد العشيرة:

وهي تنسب إلى سعد العشيرة بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، ويسمى سعد العشيرة بذلك الاسم، لأنه لم يمت حتى كان عدد أولاده وأحفاده ثلاثمائة رجل، فكان إذا سئل عنهم يقول هؤلاء عشيرتي خوفاً من الحسد، وأشهر بطونها بنو أوذ بن مصعب، وبنو جعفر، وبنو منبه بن صعب^(٥) ونسبتل من حروب العمري في أرض البجة عام ٢٥٥هـ بأنهم كانوا أنصاره، ولكن ما يؤكد أنهم استوطنوا في هذه المنطقة، حين شب النزاع بينهم وبين قيس عيلان، واتهموا العمري بالحدياره نقيس، وإزاء ذلك انتهز ملك النوبة الفرصة، بمناصرتهم فاستمالوا إليه فرد إليهم أرضهم التي استولى عليها من قبل وأضاف لهم عليها أرضاً في هذه المنطقة^(٦) وهذا يدل على أنهم من القبائل العربية التي جعلت لها من أرض البجة موطناً لها في العصور الوسطى.

وبذلك نكون قد عرضنا العناصر العربية من المجموعتين العربيتين، اللتان اتخذتا من أوطان البجة موطن لهما في العصور الوسطى لتكون جزءاً من البناء الاجتماعي لهذه الأوطان، والتي كان لها تأثير مباشر خاصة بالقبائل البجاوية التي صاهرتهم، وتبنى لأولئك العرب أن ينشروا الإسلام والثقافة العربية بين أفرادها بنسب مختلفة، تتفاوت عمقاً وسطحياً من إقليم إلى آخر، حسبما تمليه ظروف هذا الاختلاط^(٧) وقد لاحظنا أن أقوى اختلاط عربي كان بالبجة هو اختلاط (ربيعة)، حيث تزوج بني ربيعة من (الحداربة) من البجة، فقويت

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ١٦١.

(٢) المقرئ: البيان والإعراب ص ٢٩ : ٣٠.

(٣) البعوي: البلدان ص ٣٣٣.

(٤) رحته: ص ٣٧.

(٥) الفلكسندري: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١ ص ٣٧٩.

(٦) المقرئ: المقفى الكبير ج ٤ ص ٤١٠.

(٧) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص ٤٥.

الحدارية بهم على سائر قبائل البجة بعد إسلامهم، كما قويت ربيعة بهم على من جاورها من القبائل العربية^(١) وترتب على ذلك أن من أسلم من البجة وهم (الحدارب) أن تسيطر على غيرهم ممن لم يسلم وهم (الزنافج)^(٢) فأدى ذلك إلى تسارع قبائل البجة الباقية إلى اعتناق الإسلام حتى تصبح لها نفس امتيازات الحدارب، وأدى ذلك في النهاية انتشار الإسلام بين قبائل البجة ونشر الثقافة العربية بينهم^(٣).

وهكذا انتشر الإسلام بين أغلبية هؤلاء البجة سواء كانوا في صحراء مصر الشرقية أو في بلاد السودان، كما أيضاً انفعوا بالإسلام انفعالاً كبيراً، إذ تعربت أسمائهم كما نكرنا سابقاً، بل وزاد انفعالهم عن هذا الحد وقالوا بانتمسابهم إلى العرب وأنهم منهم. كما لم يؤدي هذا إلى انتشار الإسلام بينهم فحسب، بل أدى إلى انتشار اللغة العربية فتكلموها حتى يستطيعوا تأدية شعائرهم الإسلامية والدينية، وحتى يستطيعوا التفاهم مع التجار العرب، وحكامهم الذين كانوا أيضاً من العرب، وكان لانتشار الإسلام واللغة العربية أثره الكبير في ظهور ثقافة عربية بجاوية مشتركة في هذه الأوطان.^(٤)

ثانياً: العادات والتقاليد البجاوية:

انتشرت الطباع ذات العادات والتقاليد البدوية في مجتمعات البجة خلال العصور الوسطى في الاحتياجات الضرورية للحياة اليومية، كسائر المجتمعات التي تتخذ الصحاري والجبال موطناً لها. وهذه الطباع ورثها الخلف عن السلف؛ لأن البجة عموماً يفسون كل ما هو موروث ويحتفظون به، ورغم الطباع البدوية التي يغلب عليها التسامح والتساهل في اتخاذ الأصدقاء من الأجانب، إلا أن البجاوي محب للعزلة، قليل الكلام. وهذا ما جعل بعض زائريهم من الرحالة العرب يتوهم أن تلك راجع إلى طبع متوحش يغلب عليه البجة، وهذا الوصف نجده في قول الرحالة ابن جبير إذ يقول: "إنهم فرقة من أضل من الأنعام سبيلاً وأقل عقولاً"^(٥) ويكرر هذا الوصف ابن تغري^(٦) في قوله نقلاً عن ابن فضل الله العمري فيقول عنهم: "لا فرق بينهم وبين الحيوانات الوحشية".

والواقع أن حب البجاوي للعزلة وقلة الاحتكاك بغيره لم يرجع ذلك إلى طبع وحشي أو ولید الخوف، أو أنه غريب عن سائر الناس، بل هو خلق يرجع إلى طبيعة البيئة الجبلية، التي لا تساعد على التجمع والاختلاط، فهو ليس مبغضاً للغرباء والأجانب، بل ألف العيش بنفسه، فلا يجد لهم مكاناً في دائرة حياته.^(٧)

غير أن هذا القول لا ينطبق على سائر عناصر البجة، فلا ينطبق إلا على العناصر التي اتخذت من المواضع الجبلية الوعرة ملجأ لهم، أما غالبيتهم فهم ذو طباع اجتماعية متسامحة، وقد تلقى عدد من

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ١ ص ١٨.

(٢) المقرئ: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٥.

(٣) عطية القوسي: دولة الكنوز ص ١٢٣.

(٤) رمضان عبد العظيم: الحدود المصرية السودانية ص ٢٤٩ : ٢٥٠.

(٥) رحلته: ص ٤٢.

(٦) الجوم الزاهرة ص ٢٩٦.

(٧) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٢٨.

المؤرخين قدراً حسناً من هذه المعاملة كابن الوردي الذي قال عنهم: "هم أهل أنس، وحسن وتلطف مع التجار"^(١)، وذكر عنهم الرحالة ناصر خسرو بأنهم "ليسوا أشرار"^(٢)، وأضاف ابن سعيد بأنهم: "أهل لمانة"^(٣). وأضاف المقرئزي^(٤) عن طباعهم بأنهم أهل حق ولهم عادات في طلبه فقال: "هم أصحاب ذمة (حق) فإذا غدر أحدهم، رفع المغدور به ثوباً على حربته، وقال: هذا عرش فلان (يعني أبا الغادر)، فتصير سيئة عليه إلى أن يتراضاه". وأضاف إلى ذلك بأنهم أهل ضيافة وكرم وقد يبالغون في ذلك إلى حد كبير، فيقول: "وهم يبالغون في الضيافة، فإذا طرق أحدهم ضيف، ذبح له، فإذا تجاوز الثلاثة نفر، نحر لهم من أقرب الأنعام إليه، سواء كانت له أو لغيره، وإن لم يكن شيء، نحر راحلة الضيف وعوضه خيراً منها".

وهكذا عاش البجة في مجتمعاتهم بهذه الطباع والصفات الحسنة السمحة، وفيما يلي أوصاف لحياة البجة في الاحتياجات الضرورية للحياة اليومية، من مسكن وملبس ومأكل وعادات وتقاليد.

أ - المسكن:

تقتضي معيشة الإنسان بأن يكون مسكنه مطابقاً لها، لذلك نرى تنوع المسكن بين البجة، خيام من شعر أو جلد أو بيوت من أخصاص. وبما أن الحياة البدوية هي السائدة في الأغلب، نرى أن البيت السائد هو بيت الشعر، وذلك لما تقتضيه هذه الحياة بأن يكون المسكن خفيفاً، سهل نقله وبنائه^(٥). وقد أشار إلى هذه الخيام ابن حوقل بقوله: "هم أصحاب أذبية شعر"^(٦) ويؤكد هذا القول المقرئزي نقلاً عن الهمداني بقوله: "هم أصحاب أذبية شعر"^(٧). وهذه الخيام تتكون عادة من شعر الماعز أو صوف الغنم بعد غزله يندصب على عيدان من الحطب. وعلى خلاف هذه الخيام، كانت أيضاً تقام خيام من الجلد والتي أشار إليها اليعقوبي بقوله: "البجة ينزلون خيام جلود"^(٨) وأكد هذا القول المقرئزي نقلاً عن ابن سليم الأسواني بقوله: "إنهم بادية بأذبية جلود"^(٩). وهذه الخيام كانت تقام من جلود الحيوانات التي يكتنوها من إبل وغنم وما عز بعد دباغتها، ثم تخاط لتندصب منها.

والواضح من التنوع الملحوظ في مكونات هذه الخيام - شعر وجلد - هو تأثير بيئي حتمي فمن المعروف أن بيئة البجة تنقسم إلى أجزاء صحراوية سهلية جافة، وأجزاء صحراوية جبلية مطيرة، لذلك تحتم على ساكني المناطق الصحراوية الجافة اقتناء الخيام المكونة من الشعر فهي تعمل على حمايتهم من أشعة الشمس الحارة نهاراً، وصقيع البرد ليلاً. بينما تحتم على ساكني المناطق المطيرة استخدام خيام الجلود والتي تعمل

(١) خريدة العجلب ص ٤٨ .

(٢) سفر نامه ص ١٣٤ .

(٣) بسط الأرض ص ٤٨ .

(٤) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤ .

(٥) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٢٨ .

(٦) صورة الأرض ص ٥١ .

(٧) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧ .

(٨) البلدان ص ٣٣٦ .

(٩) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧ .

على عدم تسريب المياه داخلها.

وبما أن البيئة الزراعية نالت حظاً من أوطان البجة وإن كانت قليلة، فإنها تقضي بأن يكون المسكن مناسباً لها، فسادت في هذه البيئة بيوت الأخصاص، وهذا ما لاحظته ابن حوقل في بيئة قبدية بازين المزارعة، فذكر "أنهم كانوا يقيمون في أخصاص كالتقى"^(١). والملاحظ من قول ابن حوقل عن المسكن وإن كان بسيط يتكون من سيقان الذرة أو الحطب الجاف أو غيرها. يكاد يكون دائم، وذلك لما تقتضيه حياة الزراعة من الاستقرار بجانب المحصول لرعايته وحصاده، وهذا بخلاف حياة الرعي البدوية التي تعتمد على التنقل والترحال، والذي كان أثره واضحاً في استخدام خيام الشعر أو الجلد.

ب - الملابس:

بما أن بيئة البجة يغلب عليها الطابع البدوي، كان لابد أن ينتشر الزي المماثل للمجتمعات البدوية الأخرى كالعرب، وقد لاحظ ابن حوقل ملابسهم وقال عنها: "هم في زي العرب"^(٢)، وقد أكد هذا القول المقريري - نقلاً عن الهمداني بقوله: "إنهم يتزبون بزي العرب"^(٣). ولا غرابة في ذلك، فمظاهر التضاريس في كلا البيئتين - العربية والبدوية - تكاد تكون واحدة.

وقد جاء قول ابن بطوطة^(٤) بوصف توضيحي لهذا الزي بقوله: "إنهم يلتحفون ملاحف (عباءات) صفراً، ويشدون على رؤسهم عصائب (عمامات) يكون عرض العصابة منها أصبعاً". والملاحظ من هذا الزي المماثل لزي العرب، قد أملت عليهم بيئتهم البدوية فإنه يتكون من عباة وعمامة، وهما يعملان على وقاية البدوي من أشعة الشمس الحارقة بالنهار، وصدقيع البرد ليلاً.

ج - المأكول:

اعتمد البجة في غذائهم على منتجات بيئتهم، وبما أن الإبل والأغنام كانت الحيوانات الأكثر انتشاراً، اعتمد قوام هذه الغذاء على منتجاتها من الألبان واللحوم، فضلاً عن قليل من الحبوب. وقد لاحظ العديد من المؤلفين العرب نوعية الأطعمة التي اعتمد عليها البجة، ومن هؤلاء المؤلفين اليعقوبي الذي أشار إلى أنهم يأكلون الذرة وما شابهها^(٥)، ويذكر في موضع آخر أنهم يأكلون حبوب الدخن واللبن^(٦). بينما أشار ابن حوقل أن طعامهم اعتمد على اللحم واللبن^(٧) وقد اتفق المقريري في ذلك وأضاف أنهم قد يأكلون الجبن ولكن بكميات قليلة^(٨). وذكر كذلك ابن بطوطة أن طعامهم اعتمد على ألبان الإبل^(٩).

(١) صورة الأرض ص ٥٧.

(٢) صورة الأرض ص ٥٠.

(٣) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧.

(٤) رحلته ج ١ ص ٥٣.

(٥) البلدان ص ٣٣٦.

(٦) تزيده ج ١ ص ١٩٢.

(٧) صورة الأرض ص ٥٦.

(٨) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧.

(٩) رحلته ج ١ ص ٥٣.

والملاحظ في نوعية الطعام الذي اعتمد عليه البجة، نجد أنه يمنح أجسامهم الصحة ويجعلها تمتاز بالدحول والرشاقة، وهذا ما جعل المقرئزي^(١) يصفهم بصحة أبدانهم، وخصاص (ضمور) بطونهم، وسرعتهم في الجري.

د - العادات والتقاليد:

لقد انتشرت العادات والتقاليد بين البجة كسائر المجتمعات الأخرى، وكانت أبرز هذه العادات هي العلامات التي تتعلق بالأجسام. وهذه العادات تنتشر في جميع المجتمعات الإفريقية الحامية. وفيما يلي هذه العلامات وتقاليدها:

- منها نذف اللحية، وقد لاحظ هذه العادة اليعقوبي منتشرة بين البجة^(٢) ولكن لاحظها أكثر انتشاراً في منطقة تغلين^(٣).

- ومن هذه العادات أيضاً نزع فلك ثدي الغلمان، وفلك الثدي هو الانتواء البارز في صدور الرجال، ويبررون فعل هذه العادة بقولهم: لئلا يشبه ثديهم ثدي النساء^(٤).

- وعادة أخرى هي قلع الثنايا، وهي الأربعة أسنان في مقدمة الفم، إثنان في الأعلى وإثنان في الأسفل، وقد لاحظ اليعقوبي^(٥) وابن حوقل^(٦) هذه العادة منتشرة بينهم خاصة في المنطقة الواقعة بين باضع وخور بركة، ويذكر المقرئزي أنهم يبررون هذه العادة بقولهم: لا تشبه بالحمير، لذلك لا يكون لنا أسنان كأسنانهم^(٧).

- عادة بحر الآذن، وهي شقها، وقد لاحظ ابن حوقل أن هذه العادة تنتشر بكثرة في المناطق الجنوبية من أرض البجة وخاصة قبائل بارية^(٨)، ومن العادات المتعلقة بالآذن أيضاً خرقها، وانتشرت هذه العادة بكثرة بين نساء ميناء باضع، وربما تجاوز عدد هذه الخروق بأذانهم خروفاً كثيرة، وقد بلغت إحداهن أن خرقت آذانها عشرين خرقاً^(٩).

- الختان، وهي العادة الأكثر انتشاراً بين البجة، وهي في الأولاد عملية سهلة يسيرة لا تكاد تختلف عما يحدث اليوم. ومن الجائز أنها تعمل والطفل في حوله الأول أو الثاني، ويظهر مكان العملية بالشحم الساخن^(١٠)، أما ختان الفتيات عندهم فهو عملية قاسية، وهي تؤشك أن تكون عملية جراحية، وقد تدعى هذه

(١) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٤.

(٢) البلدان ص ٣٣٦.

(٣) تاريخه ج ١ ص ١٩٢.

(٤) اليعقوبي: تاريخه ج ١ ص ١٩٣.

(٥) تاريخه ج ١ ص ١٩٢.

(٦) صورة الأرض ص ٥٥.

(٧) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٥.

(٨) صورة الأرض ص ٥٥.

(٩) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٤.

(١٠) محمد عوض السودان الشمالي: ص ٤٣.

العملية في السودان باسم "الختان الفرعوني"^(١)، وقد لاحظ هذه العادة بين البجة اليعقوبي^(٢) وقد وصف كيفية إجرائها المقرزي^(٣).

وظلت هذه العادات تدب، رغم انتشار الإسلام، فقد ذكر عن ذلك ابن حوقل فيقول: "جرت أحكامهم على سنن كانت لهم في الجاهلية إلى بعض أحكام يستعملونها إسلامية"^(٤). ويؤكد هذا القول أيضاً المقرزي بقوله: "إن منهم جماعة على هذه المذاهب، ومنهم من يتمسك بذلك مع إسلامه"^(٥). وإذا دل هذا فإنما يدل على مدى تمسك البجة بكل ما هو موروث والمحافظة عليه.

وفي نهاية القول نذكر أن البجة نظمت شؤونها بهذه الطرق في مختلف جوانب الحياة، وهذه الصبغة قد صبغتهم بها يبدت لهم القاسية، وتمرسوا بها، حتى أصبحوا جزءاً منها، بعد أن عاشوا فيها آلاف السنين. فأصبحوا ولهم جذد كثير على تحمل الشدائد وشطف العيش، يتجزئون بالقليل من الزاد إذا تيسر، ويصبرون على الحرمان إذا جاءت سنوات الجهد والمشقة. ومما أكسبهم عادات مختلفة تقلدوها، جعلت من مظهرهم الطبيعي مظهراً يتفق مع ظروف يبدت لهم في العصور الوسطى.

وصفوة القول أن إقليم البجة كان مستودعاً هائلاً للعناصر البشرية، ممن اتخذوه وطناً أصيلاً له، وماوى لمن هاجر إليه لظروف مبادنة، فتعددت القبائل والأجناس في بلاد البجة لتكون في النهاية طبقات اجتماعية نافس بعضها البعض، وانطوى غيرها تحت لواء غيره بما سادت لها الفرصة.

وقد أثر العنصر العربي في هذا الإقليم تأثيراً مباشراً في عناصر البشرية، سواء أكان هذا قبل الإسلام أو بعده، غير أن الدور العربي كان له بارز الأثر في هذا الإقليم بعد الإسلام، لتدفل آثارهم عاتقة إلى اليوم في أذهان البجة، ثم يصبح هذا الإقليم أهم مراكز التجارة والثقافة العربية في المنطقة.

ورغم ما طرأ على البجة في كل ما هو جديد، إلا أنهم احتفظوا بما لهم من عادات وتقاليد ظهرت ملامحها في ضروريات الحياة ومظاهرها الاجتماعية.



(١) عن كيفية إجراء الختان الفرعوني انظر (٥) سهام عبد السلام: التنويه الجنسي للإناث _ الختان _ اوهام وحقائق، القاهرة

(١٩٩٦م)

(٢) تاريخه ج ١ ص ١٩٢.

(٣) انظر المقرزي: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٥.

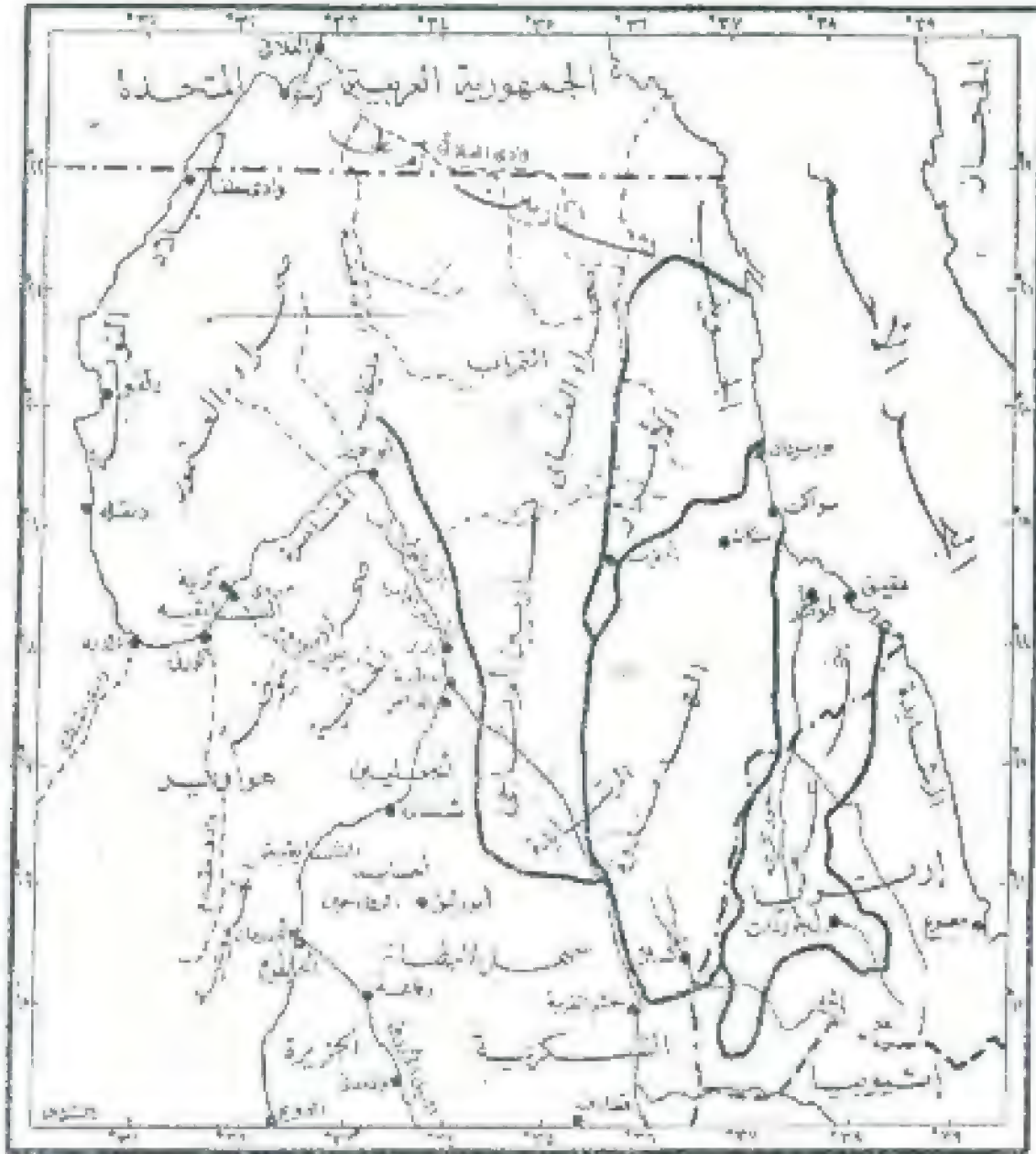
(٤) صورة الأرض ص ٥١.

(٥) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧.

الملاحق والصور

الملحق الأول:

خريطة للمواطن الرئيسية للبحجة^(١):



نقطة الرسم

الحدود السياسية

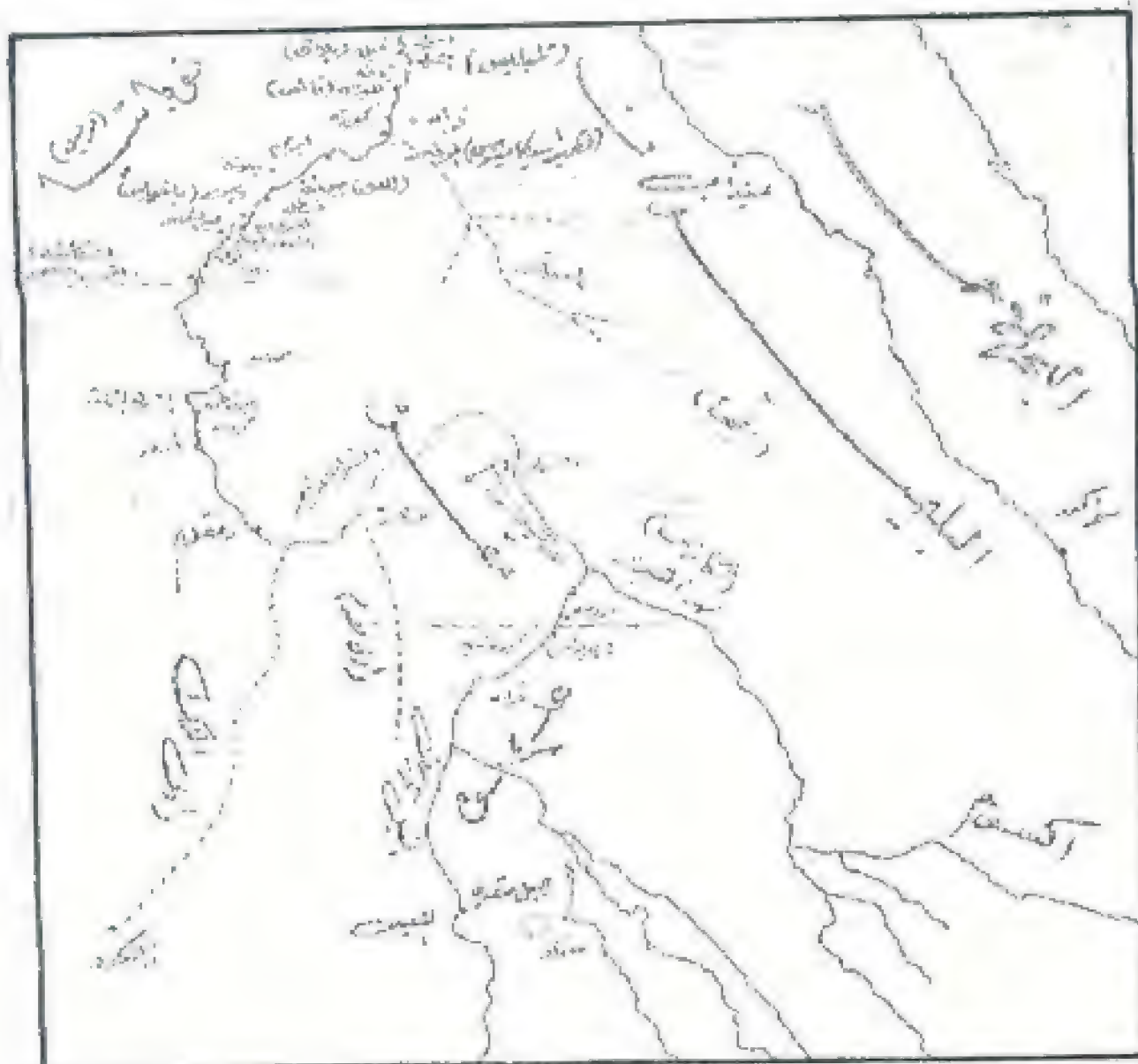
الأقسام الرئيسية للبحجة

(في السودان الشمالي شرقي)

(١) محمد عوض: الشعوب والسلالات الأفريقية. ص ٢٥٨.

الملحق الثاني:

خريطة لبلاد النوبة وممالكها المسيحية^(١)



(١) مصطفى مسعود: *أنوبة في العصور الوسطى* ص ٢٨٧.

الملحق الرابع

نسخة مصورة من كتاب المقرري المواعظ والاعتبار لمعاهدة لُبَقَط^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم
 بعد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم الأنوية ولجميع أهل مملكته عهد عقد على الكبير والصغير من النوبة من حد
 أرض اسوان الى حد أرض علوة أن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين من جاورهم
 من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة أنكم معاشرة النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد
 النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تخافوهم ولا تنهبكم ولا تغزواكم ما أقمت على التزامنا التي يتناوبكم على
 أن تدخلوا بلادنا بمجازين غير مقيمين فيه ولا تدخل بلادكم بمجازين غير مقيمين فيه وعليكم حفظ من نزل بلادكم
 أو يطرده من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم وإن عليكم رد كل قنبر يخرج اليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه الى
 أرض الاسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تمنعوا من المسلمين فهدده وحاوره الى أن يصر فيه عنه وعليكم
 حفظ المجد الذي ابتداء المسلمون بفناء مديتكم ولا تمنعوا منه مصلياً وعلانيكم كنس وأسرابه وتكرمه وعليكم
 في كل سنة ثمانية وستون رأساً تدفعونها الى امام المسلمين من أوسط وقرين بلادكم غير المعيب يكون فيما
 ذكرنا وانا ان ليس فيها شيء حرم ولا يجوز ولا مطلق لم يبلغ المسلم تدفعون ذلك الى والي اسوان وليس على
 مسلم دفع عدد عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة الى أرض اسوان فان آمنتم أو يمت عبد المسلم أو قتلتم
 مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسيح الذي ابتداء المسلمون بفناء مديتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس
 والستين رأساً قد برئت منكم هذه الهدنة والامان وعدنا نحن وأنتم على سوا حتى يحكم الله بيننا وهو خير
 الحاكمين علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولنا عليكم بذلك أعظم
 ما تدعون به من ذمة المسيح وذمة الخواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وحملكم الله الشاهد يتناوبكم
 على ذلك كتيبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة احدى وثلاثين *

(١) المواعظ والاعتبار، ج ١ ص ٢٠٢.

لملحق الخامس

نسخة مصورة من كتاب المقرري المواعظ والاعتبار لنعمة الأمان (١)

كتبنا بالخط هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الفرائد عامل الأمان في
أصق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله في شهر ربيع الأول سنة ثمان مائة وعشرين لكون بن عبد العزيز
عظيم الجاه بأصق أنك سألني وطلبت أن أؤتمنك وأهل بلدك من الجاه وأعتدك ولهم أمانا على وعلى
جميع المسلمين فأجبتك أن أعقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استغفرت واستغفروا على ما أعتدني
وشرطت في كل هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين
ذلك ويأمن ملكا للأمان عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى وأنت وجميع أهل بلدك عبد لا أمير
المؤمنين إلا أنك تكون في بلدك ملكا على ما أنت عليه في الجاه وعلى أن تؤذي إليه الفرج في كل عام على ما كان
عليه سابق الجاه وذلك ما يضمن الأهل أو تلتزمه ديوار الزنة داخله في بيت المال والخبار في ذلك لا أمير المؤمنين
ولولا أنه وليس لك أن تغرم شيئا عليك من الفرج وعلى أن كل أحد منكم أن ذكر محمد رسول الله صلى
الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره أو قتل أحد من المسلمين حر أو عبد اقتدرت منه الذمة
ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وذمة جماعة المسلمين وعلى دمه كما يصل دم
أهل الحرب وذوارهم وعلى أن أحد منكم أن أعان الفجارين على أهل الإسلام بما لا يؤدله على عورته من عورات
المسلمين أو أثر لعزتهم فقد تنقض ذمة هذه وعلى أن أحد منكم أن قتل أحد من المسلمين حمدا أو سهوا
أو خطأ حر أو عبدا أو أحد من أهل ذمة المسلمين أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم ما لا يلد الجاه
أو يلا أو الإسلام أو يلا أو النوبة أو في شيء من البلدان أو أوجع أو فعله في قتل المسلم عشر ديات وفي قتل العبد
المسلم عشر قيم وفي قتل الذممة عشر ديات من دياتهم وفي كل مال أصبغوه بالمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه
وان دخل أحد من المسلمين بلاد الجاه تاجرا أو مقبلا أو مجتازا أو حيا فهو آمن فبكم كما حدكم حتى يخرج
من بلادكم ولا تؤثروا أحد من أتى المسلمين فان أتاكم آت فليكن أن تردوه إلى المسلمين وعلى أن تردوا أموال
المسلمين إذا أصابوا في بلادكم بلاء أو تملزهمهم في ذلك وعلى أنكم أن تزلتم ريف سعيد مصر للعبادة أو مجتازين
لا تظهرون سلا حوالا تدخلون المدايق والقرى بحال ولا تقهوا أحد من المسلمين الدخول في بلادكم والتجيرة
فيهايز ولا تجيروا ولا تخفروا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة ولا تفسدوا مسلم
ولا ذميا ما لا وعلى أن لا تهدموا شيئا من المساجد التي أبنها المسلمون بحصنه وهجر وسائر بلادكم طولا
وعرضا فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم ريف سعيد مصر وكيلا في
المسلمين بما شرط لهم من دفع الفرج ورد ما أصابه الجاه للمسلمين من دم ومال وعلى أن أحد من الجاه
لا يعترض هذا القصر إلى قرية يقال لها إقنا من بلاد النوبة حقا لا عدا عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين
لكنون بن عبد العزيز كبير الجاه الأمان على ما صيغنا وشرطنا في كتابنا هذا وعلى أن يوافق به أمير المؤمنين فان راح
كنون أو عات فلا عهد له ولا ذمة وعلى كنون أن يدخل عبال أمير المؤمنين بلاد الجاه لقبض صدقات من أسلم
من الجاه وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم وأخذ ذلك عهد الله بحماية باعظم ما أخذ على خلقه من
الوفاء والميثاق ولكنون بن عبد العزيز وجميع الجاه عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمان
أي أصاق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم
ما وفق كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه فان غير كنون أو بدل أحد من الجاه فذمة الله جعل اسمه وذمة
أمير المؤمنين وذمة الأمير أي أصاق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين برتبة منهم
وترجم جميع ما في هذا الكتاب حرقا فترك ابن صالح الفزوي من سكان جندة عبد الله بن الصديق القرشي
ثم نسق جماعة من شهود أسوان مقام الجاه على ذلك

لملحق السادس
فرد من قبائل البجة^(١)



WWW.Rookn.com (١)

الملحق لسابع
صور حديثة لأفراد من قبائل البجة^(١)



[http: //beja.topgoo.net](http://beja.topgoo.net) (١)

الملحَق الثامن^(١)
عمليّة الحصول على الماء من الآبار



فرد من البجة يعدّ القهوة المخصوصة (الجبنة)



الملحق لتاسع
تنقلات البجة (١)



[http: //beja.topgoo.net](http://beja.topgoo.net) (١)

الملحق العاشر
الإبل البدجارية^(١)



[http: //beja.topgoo.net](http://beja.topgoo.net) (١)

لملحق الحادي عشر
مساكن النجعة^(١)



أفراد من قبيلة البشاريين (حنفا) التقطت الصورة في لفترة ما بين ١٨٦٠ - ١٩٢٠ م.^(٢)



WWW.Rookn.com (١)

http://beja.topgoo.net (٢)

وسوف أعرض فيها ما توصلت إليه خلال بحثي من نتائج وهي:

- ١- قدم مصطلح البجة حدث يرجع إلى زمن الفراعة ولا زال يستعمل حتى الآن.
- ٢- أن قبائل البجة من أولى القبائل الحامية التي استقرت في إفريقيا ومارست النشاط الإنساني.
- ٣- بفضل العرب اعتنق البجة الإسلام واللغة العربية فنشروها في المنطقة.
- ٤- أن بلاد البجة كانت مستودع للعناصر البشرية المختلفة والمتعددة والتي أثرت فيهم وأثروا فيها.
- ٥- اتبع البجة النظام القبلي في تنظيم شئون الحكم والإدارة.
- ٦- استفاد العرب من نظام وراثته الحكم السائد عند البجة مما ساعدهم على وراثته حكم المنطقة، وساعدهم هذا على نشر الفكر والثقافة العربية في المنطقة.
- ٧- أن قبائل البجة كثيراً ما كانت تختلف وتتنازع فيما بينها لفرض الهيمنة والسيطرة على المناطق.
- ٨- عدم مساندة البجة للروم ضد العرب في بداية الفتح وبالتالي عدم وجود صلة عدائية مبكرة بين البجة والعرب.
- ٩- الهجوم المتكرر من البجة على المسلمين ترجع أسبابه إلى ضعف الحكومة المركزية في القاهرة.
- ١٠- أن عقد الأمان الذي عقده ابن الجهم مع كانون بن عبد العزيز في عام ٢١٦هـ / ٨٤١م مثلت بنوده فتح بلاد البجة على مصراعيها لاستقرار العرب.
- ١١- أن العمري من أهم وأقوى الشخصيات التي أقرت السلام بالمنطقة وحماية حدود الدولة الإسلامية.
- ١٢- في عام ٣٩٧هـ / ١٠٠٤م صار إقليم البجة إمارة إسلامية بقيادة ربيعة لتبدأ في توطيد الثقافة العربية ونشرها في المنطقة.
- ١٣- أن البجة من الشعوب التي مارست الزراعة في بعض المناطق مستعينة في ذلك بمن جاورهم من الشعوب المزارعة.
- ١٤- أن البجة من أقدم الشعوب لرعوية في القارة ومن أوائل الذين اقتنوا الإبل وعذوها برعاية خاصة، حتى أصبح أفضل الأجناس لديهم إلى الآن.
- ١٥- أن البجة مارست مجموعة من الحرف التي كثر طلبها على المستوى العالمي وهي حرفة استخراج الزمرد.
- ١٦- أن إقليم البجة احتوى على أهم المراكز التجارية وأعظم الأسواق التي ربطت مصر بمن جاورها من البلدان كالمغرب والسودان والحبشة والحجاز واليمن.
- ١٧- أن ساحل بلاد البجة شهد على أقدم نشاط تجاري عبر مراحل التاريخ.
- ١٨- أن ميناء باضع هي أولى الموانئ التي أسسها العرب على ساحل بلاد البجة منذ القرن الأول الهجري الثاني الميلادي
- ١٩- ساهم البجة في نشاط حركة التجارة بميناء باضع من خلال نقل التجارة عبر صحراء مصر الشرقية وتقديم الخدمات المختلفة للتجار.

- ٢٠- أن ميناء عيذاب من أقدم الموانئ التجارية على ساحل البجة حيث يرجع زمن إنشاءها إلى الفراعنة وازدادت قيمتها في ظل العرب لتحصل بعدها على قيمة عالمية.
- ٢١- أن ميناء سواكن اشتهرت في نهاية القرن التاسع الهجري وأوائل القرن الخامس عشر الميلادي ولكنها كانت قائمة منذ قيام باضع العربية.
- ٢٢- أن ميناء سواكن هي الميناء الوحيد على ساحل البجة التي أداروا تجارتها دون غيرهم، وهذا بخلاف ما قاموا به في ميناء باضع وعيذاب والذي أقتصروا دورهم على تقديم الخدمات للتجارة والتجار.
- ٢٣- أن إقليم البجة شهد تجمعات قبلية في مناطق مختلفة مارست فيما بينها النظام الطبقي.
- ٢٤- أن بعض النتائج السابقة ذهبت إلى أن الحداثة عرب وأدبنا من خلال البحث على أنهم أحد فروع البجة.
- ٢٥- أن انتساب الكثير من القبائل البجاوية إلى العنصر العربي مرجعه التأثير العميق بالثقافة العربية والإسلام خلال العصور الوسطى، وقد أكدنا مدى انتساب هذه القبائل للبجة وفروعها الحديثة.
- ٢٦- أن هجرة القبائل العربية إلى بلاد البجة قبل الإسلام بفرض التجارة كان لها عظيم الأثر. غير أن الهجرة العربية بعد الإسلام كان لها الفضل في نشر الإسلام والثقافة العربية في المنطقة.
- ٢٧- احتفاظ لبجة بمجموعة من العادات والتقاليد تخص بيئتهم رغم ما طرأ عليها من مختلف الثقافات.

أولاً المصادر العربية المخطوطة:

- (١) ابن الدنبلي: (رضي الدين محمد إبراهيم) ت ٩٧١هـ:
"الآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة"، مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات العربية فهرس المخطوطات المصورة، ج ١ رقم ٢ تاريخ.
- (٢) ابن فضل الله العمري: (أبو العباس أحمد بن يوسف) ت ٦٥١هـ:
"مسالك الإبصار في ممالك الأمصار" مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية، رقم ٥٥٩ معارف عامة.
- (٣) المقرئزي: (تقي الدين أحمد بن علي) ت ٨٥٤هـ:
"السلوك لمعرفة دول الملوك"، حققه الدكتور محمد مصطفى زيادة حتى نهاية عام ٧٥٥هـ، وحقق باقيه د/ سعيد عبد الفتاح عاشور.

ثانياً المصادر العربية المطبوعة:

- (١) ابن الأثير: (علي بن أحمد بن أبي الكرم) ت ٦٣٠هـ:
"الكامل في التاريخ ٩ أجزاء، بيروت ١٤٠٢هـ.
- (٢) ابن بطوطة: (شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) ت ٧٩٩هـ:
"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" جزءان، القاهرة ١٩٦٤م.
- (٣) ابن بكرة: (منصور الذهبي الكامل) توفي في النصف الأول من القرن السابع الهجري:
"كشف الأسرار العلمية بدار الدرب المصرية". القاهرة ١٩٦٦م.
- (٤) ابن جبير: (أبو الحسن محمد بن أحمد) ت ٦١٤هـ:
"تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" تحقيق حسن مؤنس، القاهرة ١٩٠٨م.
- (٥) ابن حزم: (أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي) ت ٤٥٦هـ:
"جمهرة أنساب العرب"، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٨م.
- (٦) ابن حوقل: (أبو القاسم أحمد لانسبي) توفي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.
"صورة الأرض" نشر كرامرز، ليدن ١٩٣٨م.
- (٧) ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن جابر) ت ٨٠٨هـ:
"المبر وديوان المبدأ والخبر" القاهرة ١٩٧٩م.

- (٨) ابن رسة: (أبو علي أحمد بن محمد بن إسحاق) ت ٢٩٥هـ:
"الأعلاق الذهبية" ليدن ١٨٩٢م.
- (٩) ابن سعيد المغربي: (علي بن موسى المغربي) ت ٦٧٣هـ:
"بسط الأرض في الطول والعرض" تحقيق قرنيط خندس، تطوان ١٩٥٨م.
"المغرب في حلي المغرب" تحقيق زكي محمد حسن، وسيدة الكاشف، القاهرة ١٩٥٣م.
- (١٠) ابن عبد الحكم: (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم القرشي) ت ٢٥٧هـ:
"فتوح مصر" تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦١م.
- (١١) ابن فضل الله العمري: (شهاب الدين أحمد بن يحيى) ت ٧٤٩هـ:
"التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٣١٢هـ.
- (١٢) ابن النديم: (محمد بن إسحاق) ت ٣٨٣هـ:
"الفهرست" تحقيق رضا تجدد بن علي بن زين العابدين، طهران ١٣٩١هـ.
- (١٣) ابن الوردي: (زين الدين أبو حفص عمر) ت ٧٣٩هـ:
"خريدة المعاجز وفريدة الغرائب" القاهرة ١٣١٦هـ.
- (١٤) أبو الفدا: (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل) ت ٧٣٢هـ:
"تقويم البلدان" باريس ١٨٤٠م.
- (١٥) أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف بن تغري بردي) ت ٨٧٤هـ:
"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ١٦ جزء القاهرة ١٩٣٢م.
- (١٦) الإدريسي: (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد العزيز) ت ٥٦٠هـ:
"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" بيروت ١٨٦٦م.
- (١٧) الإدقوي: (كمال الدين جعفر بن ثعلب) ت ٧٤٨هـ:
"الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الأصعب" تحقيق محمد سعد حسن، وراجع طه الحاجري،
القاهرة ١٩٦٦م.
- (١٨) الاصطخري: (أبو القاسم إبراهيم بن محمد) توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري.
"المسالك والممالك". تحقيق محمد جابر عبد العال، القاهرة ١٩٦١م.
- (١٩) البغدادي: (صفي الدين بن عبد المؤمن بن عبد الحق) ت ٧٣٩هـ:
"مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع".
- (٢٠) البلاذري: (أحمد بن يحيى بن جابر) ت ٢٧٩هـ:
"فتوح البلدان" تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت ١٤٠٣هـ.
- (٢١) البلوي: (عبد الله بن عمير بن محفوظ) توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري
"سيرة ابن طولون" تحقيق: محمد كرد علي، دمشق ١٣٥٨هـ.
- (٢٢) البيروني: (محمد بن أحمد) ت ٤٣٠هـ:

"الجماهر في معرفة الجواهر، حيدر آباد بالهند، ١٣٥٥هـ".

(٢٣) التّجيبى السبّكى: (القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التّجيبى السبّكى) ت ٦٥٠هـ
"مستفاد الرحلة والاغتراب". تحقيق وإعداد: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب،
ليبيا - تونس ١٩٧٥م.

(٢٤) التّيفاشي: (أبو العباس أحمد بن يوسف) ت ٦٥١هـ

"أزهار الأفكار في جواهر الأحجار". نشر أنطونيو دادييري، فرنسا ١٨١٨م.

(٢٥) الحسن الوزان: (الحسن بن محمد الوزان) ت ٨٩٤هـ

"وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط ٢ سنة ١٩٨٣.

(٢٦) الحميري: (محمد بن عبد المنعم) ت ٧٢٧هـ

"الروض المعطار في أخبار الأقطار" تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت ١٩٨٤م.

(٢٧) الزهري: (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر) تاريخ الوفاة غير مذكور.

"كتاب الجغرافية" تحقيق: محمد حاج صادق، المعهد الفرنسي، دمشق ١٩٦٨م.

(٢٨) الطبري: (محمد بن جرير) ت ٣١٠هـ

"تاريخ الرسل والملوك" ٨ أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤ القاهرة ١٩٦٧م.

(٢٩) القلقشندي: (شهاب الدين أحمد بن علي) ت ٨٢١هـ:

"صبح الأعشى في صناعة الإنشا" القاهرة، دار الكتب الخديوية ١٩١٤م.

(٣٠) الكندي: (محمد بن يوسف بن يعقوب) ت ٣٥٠هـ

"ولاة مصر" بيروت ١٩٠٨م.

(٣١) المسعودي: (أبو الحسن علي بن الحسين) ت ٣٤٦هـ:

- "التنبيه والإشراف" نشر دي جوية، لندن ١٨٩٧م.

- "مروج الذهب ومعادن الجواهر" تحقيق محي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٨٣م.

(٣٢) المقدسي: (أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الشاوي) ت ٣٨٠هـ

"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" لندن ١٩٠٩م.

(٣٣) المقرئزي: (نقي الدين أبو العباس أحمد بن علي) ت ٨٤٥هـ

- "البيان والإعراب عما بأرض من الأعراب". تحقيق: عبد المجيد عابدين، القاهرة ط ١

١٩٦١م.

- "المقفى الكبير" تحقيق محمد البعلوي (بيروت ١٩٩١م).

"السلوك لمعرفة دول الملوك" حققه د/ مصطفى زيادة حتى نهاية عام ٧٥٥هـ، وحقق

د/ سعيد عبد الفتاح عاشور بقية الكتاب.

(٣٤) ناصر خسرو: (عزوي الفارسي) ت ٤٧٦هـ

"سفر نامه" ترجمة د/ يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥م. طبعة ١٩٩٣م.

- (٣٥) الذويري: (شهاب الدين أحمد عبد الوهاب) ت ٧٣٢هـ.
- "نهاية الأرب في فنون الأدب" طبعة القاهرة ١٩٩٠م، طبعة القاهرة ١٩٩٢م.
- (٣٦) الهمداني: (أبو بكر أحمد بن محمد بن أبي عثمان الحارمي) ت ٥٨٤هـ.
- "مختصر البلدان" ط لندن سنة ١٣٠٢هـ.
- (٣٧) الواقدي: (محمد بن عمر) ت ٢٠٧هـ.
- "فتوح الشام" جزءان (بيروت، بدون تاريخ)
- (٣٨) ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبو عبد الله الرومي) ت ٦٢٦هـ.
- "معجم البلدان" ١٠ أجزاء، بيروت ١٩٨٦م.
- (٣٩) اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) ت ٢٨٤هـ.
- "البلدان" ط لندن ١٨٩١م.
- "تاريخ اليعقوبي" ط بيروت ١٩٦٠م.

ثالثاً المراجع العربية:

- (١) - السيد عبد العزيز سالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٣م.
- (٢) الشاطر بصري عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، القاهرة ١٩٨٧م.
- : معالم تاريخ السودان وادي النيل، ط ١ القاهرة ١٩٥٥م.
- (٣) بتلر: فتح العرب لمصر: ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٣٣م.
- (٤) بوركهات: رحلات بوركهات في بلاد النوبة والسودان. الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ترجمة فؤاد أندراوس القاهرة ١٩٥٩م.
- (٥) جورج زيدان: العرب قبل الإسلام (بيروت - بدون تاريخ).
- (٦) جمال حمدان: شخصية مصر دراسة عبقرية مكان، عالم المكتبات، القاهرة ١٩٨٠م.
- (٧) جواد علي: المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ٢ بغداد ١٤١٣هـ.
- (٨) جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي في المصور القديمة والوسطى. ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨م.
- (٩) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، القاهرة ١٩٨١م.
- (١٠) سليم حسن: موسوعة مصر القديمة، عشرة أجزاء، مهرجان القاهرة للجميع عام ٢٠٠٠م.

- (١١) صبحي نديم: التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية القاهرة ١٩٥٢م.
- (١٢) صلاح الدين: تاريخ القبائل المصرية. ط المطبعة المصرية ١٩٨٤م.
- (١٣) صلاح الدين الشامي: الموانئ السودانية، دراسة في الجغرافية التاريخية، مكتبة جامعة القاهرة ١٩٦٢م.
- (١٤) عبد الرحمن عبد التواب: شواهد القبور في جبانة أسوان حفريات في المدة من ديسمبر ١٩٦٠م - منتصف ١٩٦٣م (لم تنشر).
- (١٥) عبد العال عبد المنعم الشامي: محاضرات في الجغرافية التاريخية، طريق عذاب قوص خلال العصر الوسيط القاهرة ١٩٩٨م.
- محاضرات في الجغرافية التاريخية، الصحاري المصرية في العصر الوسيط، القاهرة ١٩٨٧م.
- (١٦) عبد العظيم عبد الرحمن، محاصيل الحقل للأصناف الأول بالمدارس الثانوية الزراعية، وزارة التربية والتعليم ط ٢٠٠٨ / ٢٠٠٩م.
- (١٧) عبد الله يوسف غنيم: جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، الكويت ١٩٨٠م.
- (١٨) عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، ط ١ ١٩٧٦م، دار المعارف.
- (١٩) محجوب زيادة: الإسلام في السودان، دار المعارف القاهرة ١٩٦٠م.
- (٢٠) مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى القاهرة ١٩٦٠م.
- (٢١) محمد صالح ضرار: تاريخ قبائل الحباب والحماسين بالسودان وإريتريا، الدار السودانية للكتب، السودان ط ١ ١٩٨٤م.
- (٢٢) محمد عوض: لسلالات والشعوب الأفريقية، القاهرة ١٩٦٥م.
- : السودان الشمالي، سكانه وقبائله، القاهرة ١٩٥١م.
- (٢٣) محمد محمود لصياد: السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٦م.
- (٢٤) محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطى، ط ٢ ١٩٩٦م.
- (٢٥) مكي شبيكة: السودان عبر القرون، القاهرة ١٩٦٤م.
- (٢٦) نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، القاهرة ١٩٠٣م.
- (٢٧) نيقولا جريمال: تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر جريحاوي، راجعه د/ زكية طبوزادة، ط ٢ القاهرة ١٩٩٣م.
- (٢٨) كرم الصاوي باز: مصر والنوبة في عصر الولاة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ٢٠٠٦م.

رابعاً الدوريات:

- ٤- مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، المجلد ٢١ جـ ٢ ديسمبر ١٩٥٩م، طبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤م، المقال الأول، مصطفى محمد مسعد: الذبحة والعرب في العصور الوسطى.
- ٥- كتاب الأبحاث الصادر عن مؤتمر أسوان عبر العصور الفترة من (٣ - ٥ أبريل ٢٠٠١) إعداد وتقديم د/ عمر صابر عبد الجليل، ط١ أسوان ٢٠٠٢م، كلية الآداب بأسوان جامعة جنوب الوادي. المقال الثالث من المحور الثالث: أحمد حسين النمكي: أسوان وصحراء مصر الشرقية.
- ٦- كتاب الحدود المصرية والسودانية عبر التاريخ، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩م، تاريخ المصريين رقم ١٦٤، أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة (٢٠ - ٢١ ديسمبر ١٩٩٧م) إعداد د/ عبد العظيم رمضان.
- مقال الجلسة الثالثة: أ. د/ رجب محمد عبد الحليم: مبداء عيذاب ووادي العلاقي وأثرهما في علاقة مصر بالسودان حتى نهاية القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي.
- ٧- حوليات إسلامية، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة. المجلد الحادي والعشرون القاهرة ١٩٥٨م، مقال حمادة محمد خير : ابن سليم الأسواني
- ٨- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد ٢١، العدد الأول، مايو ١٩٥٩م، سعاد ماهر محافظات الجمهورية العربية المتحدة في العصر الإسلامي.

رابعاً المراجع الأجنبية:

- (1) ARKELI., A,J: History of The Soudan form The carliest Times to 1821, London 1961.
- (٢) Bloss, J.F.E, the story of suakin" S. N. XX, part II, 1936
- (3) c\f: Crawford,o.g.s The Fung Kingdom Of Sennar. Glouse. Cter 1951
- (4) c\f: Crawford,o.g.s" The ston Tombs of theN.e.sudan, kush, No. 2,1954
- (٥) Gardiner, A, H., Ancient Egytian Onomastica, Oxford, 1947.
- (6) John of Ephesus: Ecclessiastical History. Book IV ., part III, ed. by Payn smith
- (7) Kammerer,A : le mer Rouge A Travers Les Ages.Paris 1925

(8) Kees, H., Beiträge zur Altägyptischen Provinzialverwaltung und der Geschichte des Feudalismus, 1932

(9) Kirwan, I. P.: Studies in the later History of Nubia. Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, vol., XXIV 1937

(10) Meyer, Ed., Geschichte des Altertums, Stuttgart, Berlin, 1921.

(11) Paul, A.: A History of the Beja Tribes of the Sudan, Cambridge, 1954

(12) Salders, the Bisharin. Sudan Notes and Records, vol. VII, 1929

(13) Seligman: "Some Aspects of The Hametic Problem in the Anglo Egyptian Sudan" J. R. A. S. No 43, 1913

(14) Trimmingham, J. S.: Islam in the Sudan, London, 1949.

Trimingham, J. S.: Islam in Ethiopia,

(15) Urkunden d. Sethe, K., des alten Reichs, Leipzig, 1932

(16) Weigall, A. E. P., A Report on the Antiquities of Lower Nubia, Oxford, 1907

خامساً مواقع الانترنت:

(1) <http://beja.topgoo.net>

(2) WWW.Rookn.com

(3) WWW.sudaneseonline.com

المحتوى	رقم الصفحة
الإهداء.....	٣
شكر وتقدير.....	٤
المقدمة	٥ - ٩
دراسة لأهم المصادر والمراجع المستخدمة.....	٩ - ١١
خطة الدراسة	١٢ - ١٤
الفصل الأول: جغرافية البجة وأصولهم	١٥ - ٢٩
أ- الموطن وجغرافيته	١٦
ب- مصطلح البجة ومصدره	١٩
ج- التعريف بالسكان وأصولهم	٢٤
د- العقائد والأديان	٢٦
هـ- لغة الإقليم	٢٨
الفصل الثاني: الحياة السياسية عند البجة	٣٠ - ٦٥
أولاً: مظاهر السياسة الخارجية للبجة	٣١
أ- البجة في بداية الفتح الإسلامي (في الفترة من ١٩ - ٣١ هـ / ٦٤٠ - ٦٥٢ م)	٣١
ب- البجة في عصر الولاة (في الفترة من ٢٠ هـ - ٢٥٤ هـ / ٦٥٢ - ٨٦٨ م)	٣٤
ج- البجة من بداية عهد الدولة الطولونية إلى سقوط الدولة الفاطمية (في الفترة من ٢٥٤ هـ - ٥٧٠ هـ / ٨٦٨ - ١١٩٠ م)	٤٥
ثانياً: لتنظيم الإدارية والسياسة الداخلية للبجة	٥٦
أ- نظام الحكم والإدارة	٥٦
ب- وراثة الحكم	٦١
ج- الخلافات والمنازعات الداخلية	٦٣
الفصل الثالث : مظاهر الحياة الاقتصادية عند البجة	٦٦ - ١٢٣
أولاً: الزراعة و الري	٦٧
أ - موارد الماء و الري	٦٨
ب - أنواع المحاصيل	٧٠
ج - معيشة الفلاح	٧١

٧٢	ثانياً: الرعى و الثروة الحيوانية
٧٢	أ - حرفة الرعى
٧٤	ب - الثروة الحيوانية
٧٦	ثالثاً: الصناعة
٧٦	أ - المواد الأولية
٧٦	ب - أهم الصناعات
٨٤	رابعاً: التجارة
٨٦	أ - التجارة الداخلية
٨٦	١- مراكز التجارة وأهم الأسواق
٩٣	٢- أهم السلع التجارية
٩٥	ب - التجارة الخارجية
٩٥	١- أهم الطرق
١٠٤	٢- الموانئ التجارية
١٠٤	أ- باضع
١٠٨	ب- عيذاب
١١٦	ج - سولكن
١٦١ - ١٢٤	الفصل الرابع: مظاهر الحياة الاجتماعية عند البجة
١٢٥	أولاً: عناصر السكان وطبقات المجتمع
١٢٥	أ- قبائل البجة قديماً وفروعها اليوم
١٤٦	ب - العرب وقبائلها
١٤٦	١- العناصر العربية في بلاد البجة قبل الإسلام
١٤٨	٢- قبائل العرب في بلاد البجة بعد الإسلام
١٥٧	ثانياً: العادات والتقاليد البجاوية
١٥٨	أ- المسكن
١٥٩	ب- الملابس
١٥٩	ج- المأكّل
١٦١	د- العادات والتقاليد
١٧٤ - ١٦٢	الملاحق والصور
١٧٧ - ١٧٥	الخاتمة
١٨٥ - ١٧٨	المصادر والمراجع والدوريات
١٨٨ - ١٨٦	الفهرست

أولا ملخص الرسالة باللغة العربية

الرسالة : أربعة فصول سبقت بمقدمة وعرض لأهم المصادر والمراجع المستخدمة
الفصل الاول: (جغرافية البجة وأصولهم) ، ويحتوى على المواطن وجغرافيته ، ثم اصل
المصطلح ومصدره ، والأصل السلالي للبجة ، ثم المعتقد ولغة الاقليم .

الفصل الثانى : (المظاهر السياسية للبجة) وتنقسم الى مظاهر خارجية وأخرى داخلية
اشتملت المظاهر الخارجية على سياسة البجة من بداية الفتح العربى مروراً بعهد الولاية
والدولة الطولونية حتى سقوط الدولة الفاطمية اما داخليا فتشمل النظم الادارية والسياسية
الداخلية للبجة من نظم حكم وإدارة .

الفصل الثالث : (المظاهر الاقتصادية للبجة) ويشمل الزراعة والرعى والثروة الحيوانية ،
والصناعة ، والموارد الأولية ، والتجارة بعناصرها داخليا وخارجيا

الفصل الرابع (المظاهر الاجتماعية للبجة) ويشمل عناصر السكان وطبقات المجتمع من
بجة وعرب واهم العادات والتقاليد التى كان يمارسها البجة فى جوانب الحياة .

ثم ختمت الرسالة بمجموعة من الملاحق والصور وقائمة لأهم المصادر والمراجع
والدوريات والفهرست .

The Master summary in English:

Master : four chapters preceded the introduction and presentation of the main sources used .

Chapter I :- (Baja geographical origins)

Contained : a home and then out of the term geography and its source , and origin of racial list Baja then belief and language of the province.

Chapter II :- (Political aspects of the Baja)

Divided into aspects of external and other internal , Which included appearances foreign policy Baja , beginning of the Arab conquest , through the covenant of the governors and the state tulunid until the fall of the Fatimid state . the internally include administrative systems and the internal politics of Baja of governance and management .

Chapter III :- (Economic aspects of Baja)

Includes agriculture , irrigation , grazing and livestock , industry ,raw materials and trade internally and externally .

Chapter II II :- (Social aspects of Baja)

Includes elements of the population and layers of society from Beja and Arabs , and the most important customs and traditions that were practiced by the Beja in the aspects of life .

Then It ended with a group of supplements photo and alist of key sources and references , periodicals and the index .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

" يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين "

صروا لله العظيم

سورة آل عمران : آية ١٧١